

أبو عبدو البغل

دار الشیقة العربیة للتألیف والترجمة والنشر بسوریة

چی ده موپاستان

قوی کالموت

ابرهم سیم الحلو

سلسله عمیون الادب العالمی
٦

جميع حقوق الطبع والنشر

والإقتباس محفوظة



توطئة

كانت الغاية من الرواية والقصة - قبل جي دي موباسان - الموعظة وإزجاء النصيح واغداق الدروس الاخلاقية ، لذا نجدها قليلة الجدوى عديدة النفع ، ذلك ان المرء بطبعه يكره الامر والنهي ان ينصبا عليه كما ينفر من يتشج بمسوح الرءاظ ويعلو المنابر ليضع في مسعبيه قوله : لا تفعل هذا وافعل ذاك !

أما « موباسان » فقد انجى الى الغاية نفسها منتجاً - بيلا أقصر - واكثر استقامة إذ جعل شاغله تصوير جمال الحياة وقبحها جميعاً ، فخرج الخير والشر متعاقبين ، في كتاباته ، غير مغتوقين ؛ لانها في حياة الناس كما خطبها بقلمه البليغ . واكتفى بان يريك القبح باسمج أشكاله دون ان يقول لك : لا تفعله ! واكتفى بتركك تعيش الجمال الخالد بابدع الوانه دون ان يدفعك السية قائلاً : دونك إياه ! هذا هو العبقرى الروائى موباسان الذي فهم الحياة كما لم يفهمها كاتب من قبل .

* * *

يعتبر الكاتب الروائى الفرنسى « جى دي موباسان » علماً من أعلام القصة في الأدب العالمى الحديث ، فهو صاحب مدرسة مجددة طوحت بالأساليب القديمة وعصفت بالطريقة الكلاسيكية وأرغمت الرومنطيكية على الانحناء ! ولم تكن هذه المدرسة الجديدة التي ابتدعها موباسان إلا المدرسة الواقعية التي تجنب الى تصوير الانسان كما هو - لا كما يجب ان يكون ! فكان الكاتب الواقعى ذاك الرسام الصناع الذي ينقل عن الطبيعة مظاهرها وخلجاتها على علاتها ، فلا يسمح

بيد الرفق على جراحاتها ليلئها ، ولا يشوه حقائقها بأصبغة زائفة دخيلة وانما عليه ان يعطيك صورة صادقة عن الحياة فتراها جميلة في قبحها وقوية في ضعفها ومرة في حقيقتها ، فليس من طبعه ولا في خلقه ان يهول لك المعاييب ولا ان يعظم لك الفضائل ولا ان يجعل لك من الابطال أنصاف آلهة ، وجل قصده انه يمر بالقلم على الفرطاس فيقول لك ما تراه تحت ناظريك بقلم حي وفكير خالد !

« أحب السماء كحُب الطائر لها ... وأحب الغابة كحُب الذئب لها . .
وأحب الصخرة كحُب الوعل الذي اتخذها له ملعباً ... » (١)

ومعنى الحب عند موباسان هو الرغبة العارمة في الامتزاج ، والفناء فيما هو محبوب . ومن ثم استرسل موباسان يمتزج بتلك الامواج الذائخة التي تضطرب في محيط الحياة ، يعلو متونها تارة ، ويهبط الى اعماقها تارة ، لا يضيّق بشيء مما يكون ، ولا ينفذ الاستقرار فيما يجري ، فقد فني في هذه الحركة الدؤوب كل فناء ! ولكن ... غفر الله للحياة ! فلشد ما تشبث بها فنبذته عنها بعيداً ! !

* * *

ولد موباسان سنة ١٨٥٠ من عائلة تمت الى العراقة بسبب قسوي وبدأ حياته المدرسية في كلية مدينته « روان » فكان تلميذاً غير مرغوب فيه ، فهو لا يأبه الا لنزاعات نفسه الطليقة فلا يملك عن الاسترسال معها محبداً ، فضاقت المدرسة بقصوره وما هي الا فترة حتى الفى نفسه يخرج الى الحياة الصاخبة شبه طريد ... وانتقل الى الريف يرتع فيه ويمرح ، يحيا مع الزراع ، ويختلط بهم في حياتهم الحشنة الطليقة فيجد في ذلك انساً وسلوى .. ولكن الريف ضاق به ، فهو يأخذ منه ولا يعطيه ، فما لبث ان الفى نفسه طريد الريف ..

وقضى حقبة اخرى من حياته موظفاً في وزارة البحرية ، وكان من فضائل وظيفته القليلة ما تركته له من فراغ .. فانصرف الى الأدب ، واتصل بغوستاف فلوبير الذي كانت تربطه بعائلة موباسان او اصر متينة ، فتلقاه بذراعين ممدوتين ، واخذ عنه اول اساليب التأليف الروائي ، وبغفلة عرف موباسان

(١) من « رسالة الى موباسان » لمحمد تيمور .

كبار الروائيين اتباع المدرسة الواقعية . ولم ينقطع موباسان بين عامي ١٨٨٠ و ١٨٩١ عن نشر القصص والروايات التي امتازت بقوة اسلوبها وصدق تصويرها والمقاسة بسمه الواقعية المعروفة التي كادت ان تنقلب سبة عليه !

أحب موباسان في الحياة متعها اشكالا والوانا ، فأغرق نفسه في لجة الحسن : فهدر القود جهد طاقته ، واعتصر الكؤوس اعتصار ظامي ، لا يروى له غليل ... وكان يصور كل ما أحب الصورة الصادقة التي علفت في ذهنه منه ساعة أحبه . .

لذا ترى في كتابة موباسان كل لون مخطر لك في بال ، ونجد بين ابطاله كل نموذج يمكنك ان تلتقي به في اي مجتمع وفي اي زمان .. ومن هنا تأتي القيمة الانسانية لأدبه ، بيد أنه آنس من الحياة إباء عليه وتخلصاً من بين يديه . ولم تكذب الايام ظنه فما بلغ الأربعين من عمره حتى انقصر ما بينه وبين عالم الاحياء من صلات واتخذ لنفسه سكناً بين القلم والقرطاس .. يعمل ليل نهار دون ان يدركه تعب او يحس مللاً .. يالها من غرائب ، فإن حبه للحياة هو الذي حرره دوام وصلها ، وكلها هم بهاضمت وكلها مال اليها بعدت .. فلا بدع ان يحقد عليها حقداً مريراً ، حقداً يخالط ذلك الحب المكين كما يخالط السم النافع رطب الشراب !

ورأى المجتمع تتحكم به عادات ومعتقدات عليها غلائل فاخرة من نسج الخداعة والرياء ، فجري يحطم القيود ويمزق الاغلال لا يصدده عائق عن هدفه المرموق ، فنضا الاستار عن تلك العرائز البشرية التي تعمل في السرائر وتجعل من الناس دمي تبعث السخريه والاشمئزاز .

وربع المجتمع بما جابه به من مساوئه ونزعاته الدنيئة ، واذله ما صفه به من حقيقة علقمية الطعم ، فظيعة في بشاعتها ولكنها متناهية في صدقها واخلاص اهدافها ... فصاح به المجتمع بنفس واحد : مكانك ايها الفاجر السليط ! الا ان ذلك المجتمع كان في قرارة نفسه مقراً بصدق ما ذهب اليه ، معترفاً ان الحق ما قاله .. فكأنه يستزيده ولا يحاول خنق انفاسه كما تظاهر .

ولم تمهل الحياة موباسان حتى يحقق كل غاياته واهدافه ، فما لبثت متسع

الحياة ، واستمّار الشباب أن سرت في دمه سمّاً زعافاً ، وحل يوم شعر فيه أن عقله ينزف ، وأنه مرشك أن ينضب .

واصيب موباسان بالجنون ، فأقام سنوات ثلاثاً في مصحح للأمراض العقلية وقضى نحبّه في نهايتها سنة ١٨٩٣ بعد أن كان قد وهب المكتبة الفرنسية ثروة طائلة خلبت بها أن تزهر وتفخر بهذه المدينة الكريمة . كما كان قد اهدى للادب الحديث طريقته الجديدة الواقعية اذ انه ابدع فناً يكاد ان يكون جديداً في الادب الفرنسي آنذاك هو فن القصة القصيرة التي احدثت ثورة فعلية في الادب العالمي فيما تلا ذلك من اعوام .

واذا كانت المكتبة الفرنسية قد اتحفت بهذه الروائع التي قدمها لها القصاص الكبير موباسان فإن المكتبة العربية ما زالت ظامئة الى هذا الادب الرفيع تضيفه الى ذخيرتها الخالدة ، وها هي ذي دار البقعة العربية تسهم - على عادتها - في بناء المكتبة العربية فتقدم للقارئ العربي هذا الاثر النفيس من آثار موباسان الذي يغلو بعض النقاد فيرى فيه خير ما انتجته قريحة موباسان وافض - ل ما خطه براعه !

دمشق - حزيران ١٩٥٣

المعرب

الكتاب الأول

١

كان النور يتسرب الى الرسم الفسيح عبر فتحة تنوسط السقف فتبدو مربعا ازرق متألقا يفسح للنظر رؤية زرقاء السماء اللامتناهية تقطعها طيور منطلقة كأنها سهام مراشدة .

واذا ما ولجت القاعة العالية الجهمة الاثاث ، خيل اليك ان ألق السماء البهيج آخذ بالشحوب والاضمحلال ، حتى ليستحيل ضئيلاً ناعساً كأنه يغفو فوق قطع الاثاث القديمة ثم يختنق في الزوايا فلا يبلغ اعماقها الاً بكمية ضئيلة الاً انها كافية لتجعل الاطر المذهبة تلتهم التماع جذوة نوشك ان تحبو .

كان هدوء ناعس يسود جو الرسم الفسيح ، هدوء ألف مسكن هذا الفنان حتى غدا جزءاً منه لا يكاد يفارقه الا ساعة ينشط الى العمل فتتطلق الروح الانسانية بكل مجالي قوتها وحيويتها ، فاذا انهك الفكر واضناه مجهود العمل الخلاق بين تلك الجدران ، عاد الى استكاته وهدوئه

فتعود تلك "السكينة الغافية تجلب كل شيء" فكان الموت قد نزل تلك
الساحة بعد انتفاضات الحياة المبدعة - فيجنح كل شيء الى الراحة بجنوح
الفكر اليها : الاناث والسجوف واللوحات الكبيرة التي لم يُفرع
من رسمها . فكان المسكن بكل ما فيه قد شارك صاحبه جهده المبذول
ونشاطه المستهلك ، فيدركه ما يدرك الرسام من عناء يتجدد في
كل يوم

كانت رائحة تبعث الخدر في الاعصاب ، تنقل الجو فكانها ،
لكشافها ، قد علقت بالسجوف والطنافس والمقاعد . انها مزيج من
روائح الاصباغ والمركبات الكيماوية والتبغ المحروق .
لم يكن ثمة ما يمكر الهدوء الخيم سوى صرخات قصيرة
عنيفة صادرة عن طيور السنونو العابرة من امام النوافذ المفتوحة .
اضف الى ذلك صخب باريس العميق المبهم الذي لا يكاد يصل الى
الآذان الا بمشقة .

كان كل شيء هادئا في محراب الفن . لم يكن ثمة ما ينبض
او يتحرك ما خلا تلك الضبابية من الدخان الازرق المتصاعدة بشكل
متواصل نحو السقف ، كلما نفث اوليفيه برتان نفساً من لفافته وهو
مستلق فوق ديوان وثير يمج الدخان يبطء من خلال شفتيه .
كانت نظراته ضائعة في زرقة الافق البعيد . فهو يبحث عن

موضوع جديد للوحة يتمخض عنها ذهنه . ما تراه فاعلاماً ؟ لم تكن
اية فكرة قد تبلورت في ذهنه حتى الساعة . فهو ليس ذلك الفنان
السريع التصميم ، الواثق من صواب تخيلاته الاولى ، فهو قلق ، برم
يتردد الالهام دون انقطاع في مظاهر فنه .

واوليفيه برتان رسام ذائع الصيت ، اغتصب المجد والثروة
اغتمصاباً ، غير انه لم يكن ، حتي آخر حياته ، ليعرف له مثلاً اعلى اليه
يسير . لقد نال من روما اعلى شهادات الرسم . فكان اول أمره ذائداً
عن التقاليد ، ميالاً الى بعث جمال القدم وروعة الماضي ، ثم غير نهجة
الفني فقال لي التجديد ، وهو على علو قدمه في عالم الفن يذكرك بكبار
الفنانين الذين سجلوا فصولاً مجيدة في التاريخ الفني . وعاد في نكسة
جديدة الى الاسلوب الكلاسيكي فاخرج صوراً لاشخاص احياء
بلغت حد الروعة الفنية .

كان ذكياً ، متحمساً ، يعمل دون هوادة ، وقد اكتسب مرونة
عالية تولدت من ترده القديم وعديد محاولاته يساعده ذوق سليم
وذكاء مرهف . وربما كان لانصراف المجتمع الى تذوق فنه والاقبال
على انتاجه يد في وثبات تلك التي رفعت الى مصاف كبار عباقرة الفن .
ايكون قد تمكن من السيطرة على مواهبه وتوجيهها الى مآصار اليه لا
الى ما كان يجب ان يكون ؟ فنذ نجاح لوحته الاولى ، دفعته رغبته في

ان يصبح محط اعجاب الجميع ، الى المثابرة والتقدم . حدث ذلك دون
ان يحسب له حسابا . فمهد امامه الطريق سراً . ان الرغبة في ان
يجد نفسه ذلك الفنان المرموق ، ذلك الرسام الحامل لواء مدرسة فنية ،
ان تلك الرغبة قد ضربت بسهم وافر في ارتفاع نجمه وذبوع اسمه .
كان دمث الخلق ، لطيف الطباع ، شديد العناية بنفسه ، بالغ
التأنى بلبسه ، متزن التصرف ، ذا فروسية ورجولة .

وقد اجتمعت فيه هذه الصفات النادرة لتعطي الشهره التي اغتصبها
اغتناباً فبمدلولته . كيلو بآثره ، اللوحة الاولى التي حملته الى قمة الشهرة ،
فتنت به باريس فجأة ، فبذته ، واحتفلت به ، ففدا فجأة احد فنانها اللامعين
الذين لا تصادفهم في كل حين والذين تتزاحم الصالونات لاستقبالهم كما
تلقاهم الندوة بفخر منذ فجر شبابهم . لقد دخل محراب الفن دخول
الفاتحين واعجاب المدينة كلها يحف به . كما ان الثروة قد قادت به الى
حدود الشيخوخة ثمهد له السبل وتحقق له الرغبات .

انه ، تحت تأثير النهار المانع في الخارج ، يبحث عن موضوع
شمري للوحة جديدة . كان مستغرقاً بلفافه ، يحلم ونظرانه تطوف
في الفضاء متخيلاً في الافق وجوهاً سريعة التقاطيع ونساء حسنات
في مفاوز الغابات او فوق ارضة الشوارع ، وعشاقاً على ضفاف المياه

وكل ما في الحياة من ممتع جذاب يشير الخيال . كانت الصور المتحولة ترسم على صفحة السماء غامضة ، متحركة في استغراق ملونة ، امام نظريه بينما تقطع السنونو الفضاء بطيرانها المتواصل كأنها الاسهم المارقة ، او كأنها تحاول نحو الزرقه كما يفعل القلم عندما ضربه الصفحات . لم يجد شيئاً . فكل الوجوه التي ترقص امام خياله تبدو كأنها معروفة منه قبل ذلك ، وكل النساء كأنهن بنات او اخوات اللواتي خلقهن خياله من قبل . ها هو الخوف بماوده . فند سنة خيل اليه ان جمعته فرغت ، انه انتهى من كل ما في رأسه من مواضع ، انه استهلك كل الهامه ، وشاء ان يستوتق من هذا التخيل ، من هذا العجز خيال كل جديد يخافه من المدم .

ونهض بارتحاء ليبحث في محفظته عله يجد شيئاً يمكن ان يشير فيه فكرة . وراح يفتش في اوراقه ، مدخناً لفاقته ، عن التمام والرسوم التي يحفظها في خزانة كبيرة قديمة . وشعر بالاشمئزاز فجأة من هذا التنقيب فالقى بفاقته وروحه تشعر بالغنى وراح بصفر لحناً شعبياً ثم انحنى والنقط من تحت مقعد ثقلاً للرياضة راح يحركه . ثم رفع يده الثانية سجعاً بكشف عن مرآة تساعد على معرفة الاوضاع الصالحة لناكد من الرؤية ولاختبار حقيقة الرسوم ، ووضعها امامه وراح ينظر فيها ويتم .

كان يذهو بقوته الجسدية وبجماله في المجتمعات ، اما الآن
فان السن يرهق كاهله ويثقله فقد تكرر كصارع قديم بالرغم من
انه يتريض بالسلاح والفروسية كل يوم غير أن رأسه بقي ملفناً
للانظار ، جميلاً كما كان قبلاً انما بشكل آخر . فالشعر الابيض الكث
القصير يغطي امنيه السوداء وين لمعانا قويات تحت اهدابه الرمادية وكان
شارباه الاعبران كشاربي جندي قديم يصفيان على وجهه سمعة الحيوية
والاعتزاز . كان يقف امام المرأة وقد ضم عقيقه واستقام بجسده وراح
يرسم بالكركه المعدنيه كل الحركات الموزونة بطرف ذراعه القوية
متابعاً بنظرة رضى مجهوده الوثيد الجبار . غير انه فجأة شاهد في اعماق
المرأة التي تمكس كل الرسم بابا يتحرك ثم ظهر رأس امرأه ، لاشي
سوى رأس ينظر . وارتفع صوت يسأل :

— انت هنا ؟ فاجاب : وهو يستدير : اني هنا .

ثم القى بألة الرياضة وانطلق الى الباب برشاقة شبه مفقطة .
ودخلت امرأة انيقة المظهر . وبعد ان تصافحا سألته : أنت

بتريض ؟

— أجل اني اقلد الطاووس وقد ضبطت . فضحكت واجابت :

— ان البوابة ليست في غرفتها ولما كنت اعرفك دائماً وحيداً في
مثل هذه الساعة فقد دخلت دون ان اعلن عن نفسي . فراح ينظر اليها :

— يا الله ! كم انت جميلة ! يا للأناقة !

— اجل انه ثوب جديد . اتجده جميلا ؟

— رائعا ، بديع التناسق . انت للناس اليوم ذوق التناسق
والانسجام . وراح يدور حولها متلهسا القماش معدلا بطرف اصابعه
وضع الطيات كرجل بتقن التجميل كأنه خياط قضى كل حياته
مستعملا ذوقه كفنان وعضلاته كرياضي لتصميم الازياء المتغيرة
الانيقة التي تنم عن جمال الانوثة الاسيرة بين جدران من الحرير والمحمل
او تحت ثلوج من الدتلا . وانتهى بان اعلن :

— انه ثوب ناجح جداً . وهو ينسجم مع جسمك كل الانسجام
وتركنه يمتع نظاره بها وهي شديدة السرور بان تكون
جميلة فترضيه .

لم تكن حديثة السن انما كانت جميلة ، ربة الجسم ، مليئة ،
غير انها ريانة المود تمثل هذه اللدونة التي تعطي للجسم في الاربعين
طعم الثمر الناضج . كانت كاحدى هذه الورود التي لا تقنا مذ دهره
متفتحة ، ربيا ، حتى انها لتسقط وهي اشد ما تكون نفعا وشذى .
انها تحتفظ تحت شعرها الاشقر بجمال الباريسيات اللواتي لا يدر كهن
هرم فهن يحملن دائما تلك الرغبة الوئابة في ان يبقين قتيات ، تلك
القوة التي لا تستهلكها الايام والتي تبقى خلال عشرين سنة لا تتغير

ولا تفنى بل تنتصر دائماً : أنها العناية بأجسامهن والاقتصاد بصحتهن
ورفعت خمارها وتمتت : - حسناً . الا تقبلني ؟
- كنت ادخن -

- آه ... وقدمت له شفيتها قائلة : لسوء الحظ ...
والنقث شفاهما . وتناول مظلتهما وخلعها من سترتها الربيعة
بمحركات ثابتة واثقة فقد اعتاد هذه الاشياء المائيلة . وسألها بعد ان
استوت فوق الديوان : - كيف حال زوجك ؟
- حسناً جداً . انه يخطب في المحاس النبأية هذه الساعة بالقرات .
- آه . وما هو موضوعه ؟

- لاريب في انه يدور حول الشوندر او الزيت ... كما هو دائماً .
ان زوجها الكونت دي غيروا ، نائب الاور ، جعل من نفسه
اختصاصياً في كل الموضوعات الزراعية .
وسألته وهي تقطع الرسم الى لوحة لم تكن قد رأتها قبلاً :
- ما هذه ؟

- صورة طباشيرية بدأتها . انها صورة الاميرة دي بوتاف
قالت بلمجة جديدة : - اسمع . اذا كنت مستثار على رسم
النساء فلن اردد في اغلاق مرسمك . انا اهل الى اين يؤدي مثل هذا
الميل -

— آه . لن يتاح للمرء ان يرسم الاميرة مرتين !

— اعتقد ذلك جيداً .

وراحت تفحص اللوحة كما امرأة تعرف الفن . فكانت تدنو وتتقهر متخذة من يدها مظلاً باحثة عن المكان الذي تكون فيه اللوحة اكثر تعرضاً للنور . ثم اعانت اعجابها :

— انها جيدة جداً انك تنجح جيداً في الرسم الطباشيري .

فاجاب منتفشاً :

— اتجدين ذلك حقاً ؟

— نعم إنه فن لطيف جداً يستدعي الكثير من الدقة انه لم يخلق المصورين (البنائين) الذين لا يجيدون الا استعمال المسطرة والبيكارا منذ اثني عشر عاماً وهي توجه ميوله نحو الفن المرموق وتحارب نكساته نحو الواقعية المجردة وبكثير من التقدير الاجتماعي الانيق كانت تدفعه بلطف نحو مثل اعلى من الجمال المذوع المصنوع . سألته :

— كيف هي الاميرة ؟

فكان عليه ان يقدم لها الاف التفاصيل من كل ضرب ، هذه التفاصيل التي تشبع التطفل النسوي والغيرة الحادة عندما ينتقلان من ملاحظة اناقة غيرهن الى تقدير نفسيتهما . وسألت فجأة : — انتحجب اليك فقهقه واقسم ان لا .

عندئذ اقلت يديها الى كتفتي الرسام ونظرت اليه بثبات .
ان شدة السؤال ارجفت البؤبؤ المستدير الذي يتوسط الحدقة
الزرقاء ذات النقاط السود كأنها المداد وتممت من جديد : - اصحيح
انها ليست مغرية ؟ - اوه . صحيح تماماً .

فتابعت : - اني لمطمئنة فانت تحبني الآن اكثر من اي وقت
آخر . لم يعد اخريات القدرات الاوان ، يا صديقي المسكين .
لقد حررته فارتجف هذه الارتجافة المسيرة التي تهز قلب
الرجل الناضج عندما يحدثونه عن سنه . وتتم : - اليوم وغداً كامس
لم يكن ولن يكون سواك في حياتي يا آني .

فاخذت ذراعيه واستدارت الى الديوان واجلسته الى قريبا .
- بم تفكر ؟

- اني ابحت عن موضوع للوحة .

- اية لوحة ؟

- لا اعلم فانا ابحت .

- وما ذا فعلت هذا اليوم ؟

وكان عليه ان يروي لها كل الزيارات التي قام بها ، الولايم
والسهرات ، المحاورات والاحاديث . وكان الواحد والاخر يهتمان
بهذه الاشياء العائلية النافذة من الحياة الاجتماعية : المداوات الصغيرة

والعلاقات المعروفة والمظنون بها ، والاحكام المبرمة والمعادة والمسموعة
الفرقة على نفس الاشخاص وعين الاحداث وذات الآراء . كانت
تحمل نفسها وتفرقها في هذا النهر المضطرب المكر الذي يسمونه
الحياة الباريسية . كانوا يعرفان كل الناس . فهو كفنان تفتح امامه كل
الابواب وهي كسيدة مترفة زوجة نائب محافظ . وكانا قد اعتادا
رياضة الحديث الفرنسي الناعم السخيف الذي يستغيب الناس متحبين ،
وبشفكه دون جدوى ، ويحلي وهو يسف . انه يعطي الشهرة الخاصة
المرغوب فيها الذين اعتادت السنتهم على هذه اثرة الفارغة .

— متى تأتي فتعدي عندنا ؟

— ساعة تشائين . حددي اليوم .

الجمعة . فستكون عندي الدوقة مورثان وآل كوريل
وموزاديو وذلك للاحتفال بعودة ابنتي التي ستصل هذا المساء . ولكن
لا تقل لأحد فهذا سر .

— آه . صحيح . اني اقبل . اني ساكون في غاية السرور بان
ارى آنيث . فلم اراها منذ ثلاث سنوات . صحيح منذ ثلاث سنوات .
لقد ريت آنيث في باريس الا انها اصبحت في السنوات
الاخيرة الشغل الشاغل لجدتها ، السيدة بارادان التي كانت عمياء
تقريباً وكانت تقيم معظم السنة في املاك صهرها بقصر الرونسيير

في مقاطعة الاور، ومن ثم بدأت المرأة المجوز تحتفظ بالطفلة. ولما كان آل غيروا يقضون نصف حياتهم في هذه الناحية حيث تستدعيهم مصالح زراعية وانتخابية فلم تكن الفتاة ترسل الى باريس الا غراراً فقد كانت هي تفضل الحياة الطليقة الحرة في الريف على حياة المدينة المقيدة. ومنذ ثلاث سنوات لم تكن قد جاءت باريس مرة واحدة وكانت الكونتس تفضل أن تتركها بعيدة لئلا توظف في نفسها النزعات الخطرة قبل اليوم المحدد لدخولها المجتمع. وكانت مدام غيروا قد هيأت لها في الريف معلمتين رفيعتي الثقافة كما كانت تكثر من زيارة امها وابنتها. فضلاً عن ان اقامة الفتاة في القصر كانت ضرورية نظراً لوجود المرأة الشبيخة هناك.

وكان اوليفيه برثان في الايام الخالية يقصد قصر الرونسيير فيقضي فيه ستة اسابيع او شهرين كل سنة الا انه منذ ثلاث سنوات جره الرومانزم الى مدن المياه البعيدة الامر الذي كان يذكي حنينه الى باريس فكان لا يقوى على مفادرتها اذا ما عاد اليها.

لم يكن للفتاة ان تمود قبل الخريف الا ان اباهما كان قد اعد لها فجاة مشروع زواج وقد استدعاها للتعرف بالشخص الذي اعد ليكون زوجها لها: المريكيز دي فاراندال. وقد وضع المشروع في سرية

تامة حتى ان احداً غير اوليفيه برثان لم بطلع عليه فقد اسرته له مدام
غيروا . سالها : — اذن ففكرة زوجك مدروسة جيداً ؟
— اجل . واعتقد انها موفقة جداً .

ثم انصرف الى الحديث باشياء اخر . وعادت الى موضوع
النصوير وحاولت حمله على رسم صورة للمسيح . فكان يقاوم معترضاً
ان ثمة كثيراً من هذه الصور في العالم غير انها كانت تدافع بحرارة
حتى فقدت صبرها :

— آه لو كنت اتقن الرسم لكنت اريتك فكرتي . انها غاية
في الجدة والجرأة : مثلهم ينزلونه عن الصليب وقد افلتوا بديه وتركوا
جسمه يسقط فوق الجمهور الذي يدفع ذراعيه ليتلقاه ويسنده . اتفهم ؟
اجل لقد فهم . بل لقد وجد الفكرة مبتكرة . غير انه لم يجدها
من ذوق العصر . ولما كانت صديقتة متمددة فوق الديوان كانت
احدى قدميها متدليه وقد غلفها حذاء دقيق يثير في العين الشبهة من
خلال جوربها الشفاف . هتف قائلاً :

— هو ذا ! هو ذا مايجب ان ارسم ! هو ذا الحياة ! قدم امرأة
تطل من تحت ثوبها ! يمكن للمرء ان يضع كل شيء فيها . الواقع !
والرغاب والشعر ! لا شيء ابداع واجمل من قدم امرأة ! واية اسرار بعد
ذلك : الساق المختبئة الضائعة تحت هذا القماش ! كان جالسا فوق

الارض فتناول الحذاء ونزعه فخرجت القدم من غلافها الجلدي
فتحركات كأنها حيوان وقد فوجي بالحزبة . وتابع برثنان :
انه دقيق ناعم . أنه مادي . بل أكثر مادية من اليد . ارني يدك يا آني .
كانت ترتدي قفا زين طويلين يبلغان مرفقيها ، وكي تتخلص من احدهما
كان عليها ان تاخذه من طرفه الاعلى ثم تسحبه كما يسحب جلد افعى
يراد نزعها عن جسمها . ثم بدا ذراعها السمين الشاحب المستدير فكان
في ظهوره المفاجي ما يطير بالفكر الى عري كامل جري . ثم تركت
يديها تسقطان تلتصق الخواتم في اصابعها البيضاء الورديه الاظافر فكانت
تظهر في دقتها كأنها مخالب ينشها الحب في القلوب . وراح او ليفيه
برثنان يداعبها بخنو ممجبا . فكان يحرك اصابعها فلهه باعبة حية . قال :
— يا لها اشياء عجيبة ! عجيبة ! هذه الاعضاء اللطاف ، الذكية ،
الدقيقة ، التي تنفذ كل ما يراد منها ، كالكتابة واشغال الابرة او تدبير
البيوت او صنع الاهرامات والقاطرات . . . او المداعبة . . . وان هذا
هو عملها المفضل المحبب . وراح ينزع الخواتم الواحد تلو الآخر .
حتى حان دور محبس الزواج ، هذا الخيط الذهبي ، فانزعه وضحك
قائلاً : — انه الوحيد الذي يفرضه الشرع . وانه ليستحق التحية .

فقالت باضطراب قليل : — يا للخبث !

انه دأغا هازي . فيه هذا الميل الفرنسي الى السخرية من أكثر

الاشياء جداً وكان كثيراً ما يلجأ الى ذلك دون ان يتعمده او دون ان يحسب لما قد يؤدي من رد فعل لدى النساء المحصنات فكانه بذلك يتجاوز الحدود المقدسة على حد تعبيره . اما هي فكانت كثيراً ما تنضب اذ يروح يهزأ هزء المعتاد من علاقتهما التي استمرت طويلاً حتى لكانها النموذج الحي للحب في القرن التاسع عشر . . . سالت بهد فترة صمت :

— انك ستصبحنا آذيت وانا ، الى معرض الرسم ؟
— اظن ذلك .

ثم راحت تساله عن اجمل لوحة في المعرض المرتقب الذي سيفتح خلال خمسة عشر يوماً . غير انها استدركت فجأة كأنها تذكر شيئاً مفسياً .

— هيا اعطني حذائي . ساذهب .

كان يلعب بالحذاء الصغير حالماً ، فيديره بين يديه المضطربتين . ثم انحنى وقبل القدم التي بدت طافية بين الثوب والبساط والتي كانت قد سكنت بعد ان بردت قليلاً بتأثير الهواء ثم البسها الحذاء ، ونهضت مدام غيروا نحو منضدة تحمل اوراقاً ورسائل قديمة وحديثة . ومحبرة رسام قد جف مدادها ، وكانت تحق بعين متفلة فترفع الاوراق لتنظر تحتها . قال وهو يقترب منها :

— اراك تشوشين هذه القوضى التي انا فيها . ودون ان

يجيب سألته :

— من هو هذا السيد الذي يريد شراء لوحك (المستحجات)؟

— انه اميركي لا اعرف اسمه .

— وهل انفقما على (مغنية الشارع) ؟

— اجل . عشرة آلاف .

— حسنا فعلت . سعر طيب ولكنه . . . عادي . وداعا

يا عزيزي .

واقتربت منه عارضة خدعها فراح يكسوه قبلاً هادئة واختفت

وراء الباب قائلة بصوت خافت : —

— يوم الجمعة الساعة الثامنة . لا اريد ان توصلني . انت تعرف

ذلك . وداعا . وبعد ذهابها اشعل لفافة ثم راح يزرع مرسمه جيئة وذهابا

بخطي وثيدة . وراح يستعرض تاريخ علاقته بها متذكراً الدقائق

البعيدة المتوارية يبحث عنها ويربط بعضها ببعض الآخر مهماً بمفرده

بترجيع هذه الذكريات .

كان ذلك عندما بدأ يتمتع شهابا في سماء باريس الفنية ، في الوقت

الذي شرع الفنانون يستحوذون على اعجاب الرأي العام ويتربعون

في القمة السامقة نتيجة لبضع ضربات بريشة الرسم

لقد بقي برثان بعد عودته من روما سنة ١٨٦٤ عدة سنوات دون شهرة ودون ذبوع ضيت ومن ثم فجأة عرض لوحته كليبو بآرة سنة ١٨٦٨ فرفعه النقد الفني والجمهور الى الالوج .

وبعد موت رينيو سنة ١٨٧٢ بعد الحرب ، هذا الحدث الذي وسع الطريق امام زملائه للسير قدما ، قدم برثان (جوكاست) فكانت قبلة الموسم بما انطوت عليه من جرأة في التعبير حتى عده بعضهم من الفنانين الالوجين الالوج ان المدرسين انفسهم لم يستطيعوا الالوج الاعجاب بها . وسنة ١٨٧٣ نال قصب السبق ورصع صدره وسام رفيع عندما قدم لوحته (يهودية الجزائر) التي اوحى اليها احدى رحلاته في افريقيا ثم جاءت لوحة للاميرة ساليا فرفعته الى صف رسامي الهيئات المبرزين ومنذ هذا الوقت غدا الفنان المحبب الى كل باريسية والمسجل الامين لكل ما يزخرن به من فتنة وجمال . وفي بضعة اشهر غدا محط امل كل باريسية وما زالت شهرته تطير في افق مدينة النور حتى عرفه القاصي والداني وتزاحمت سيدات الطبقات الراقية عليهن يظفرن بصورة يرسمها لهن ، وكان من الطبيعي ان تندفق الثروة والمجد اليه فيصبح طوع بنانه كل ما في باريس من روعة ورفاهية وجمال .

في هذه الهمرة عرف آني . جاته ككثيرات غيرها كن يقصدنه كي يرسمهن . جاته برفقة زوجها النائب . وادرك للنظرة الالوج

ان هذه المرأة الشابة تحمل دعوة سافرة في عينيها وفي حركات جسدها
البض المتمطش الى متع الحب الحقيقي اللاهب . كما ادرك ان ما
ينطوي عليه جفناها من رغبات حاره ونزعات وثابه قلما يندل عليها
جفنا امرأة .

واتفق معها على عمل اللوحة ومواعيد الزيارات وراح زوجها،
استجابة لعادة التكلم في الجماهير يستفيض بامتداح الفنان معرباً له عن
شديد اعجابه بكل ما تنتج ريشته من روائع اللوحات . وتلقى او ليفيه
ثناءه بشيء كثير من التواضع المزوج بالبرود . ثم راح الزوج النائب
يشكر الفنان بسيل جارف من الجمل التي تنبئ عن خطيب زلق اللسان .
فهو منذ مدة طويلة يود ان يعمل لزوجته صورة وطبعاً لم يكن له ان
يختار سوى السيد او ليفيه رتان وهو لم يخش الرفض بالرغم من انه
يعرف كم تترام عليه الطالبات .

وهكذا تم الاتفاق على ان يصحب زوجته الكونتس منذ
الفد الى المرسى ثم عقب معرباً عن خشيته فيما اذا كان ثوب الحداد
الذي ترنديه لا يحول دون تحقيق رغبته تلك فاجابه او ليفيه انه بالعكس
يود ان يخرج التعبير القوي الذي يوحى اليه التناقض بين وجه الكونتس
الزاهر بالحياة والدقة والعمان تحت شمرها الاشقر مع سواد الثوب
الفاحم .

وهكذا جاءت في البغد برفقة زوجها وفي الايام التالية مع ابنتها التي كانا يجلسانها امام طاولة مثقلة بالمجلات المصورة .

كان او ليفيه برآن كعادته يظهر كل تحفظ . ان نساء المجتمع لا يستدعين كل الاطشنان ذلك انه لم يكن قد عرفهن قبل ذلك . فهو يفترضهن مشيرات للآلم وحقاوات في آف . لثيمات وخطرات ، سخيفات ومزعجات . وكان قد حدث له مع نساء من الطبقات المتوسطة مغامرات سريعة مردها شهرته وطبعه المرح وقوامه الرياضي الانيق ووجهه الاسمر القسيم . وهو يفضل هذا النوع من النساء لانه يشعر مهمن بشيء من الحربة في القول والعمل هو المعتاد الاشياء غير المعقدة التي يقوم بها سواء في مرسمه او في مبادله . وكان قد انطلق في الحياة سعياً وراء المجد لا وراء الحب لذا كان يشعر بنوع من التفككة عندما يتلقى ثناءً او اعجاباً من السيدات المتعجبات . انما دون ان يعتمد الى مغازلة واحدة منهم قط . ولم يكن يسمح لنفسه بالمزاح غير المؤدب مهمن او القاء الكلمات ذات المغذى ، لذا حمل عنهن فكرة السماجة والجمود . فكلمها جاءت احداهن ليرسمها شعر حيا لها بهذا الفارق ، الذي يميز الجنسين بالرغم من انه لم يكن يعدم وسيلة للتجيب اليها . فورا الابتسامات وكلمات الاعجاب المفنعة كان يشعر دائماً شعور الكائن الاسمى . وقد تولد لديه نوع من الكبرياء والمعجب حتى ليظن به كبر

وخيلاء . ومما زاد هذا الشعور في نفسه انه كان يعامل من الامراء والاميرات معاملة الند للند ، فهو قوي الادراك لما اسبغه عليه ذكاؤه من مركز ناله سواء ورائته دون ان يكون لهم يد في ذلك . كانوا يقولون عنه بشيء من الاستغراب : انه رجل عظيم التهذيب . ان مثل هذه الملاحظة كانت تهزه وتذكره بالحدود التي التزمها . ان هذا الوقار وهذا التحفظ كانا يضايقان مدام غيروا التي لم تكن لتجد ما تقوله لهذا الرجل ذي البرود والاعتداد .

بعد ان اجلست انتهت جاءت وجلست فوق مقعد بالقرب من اللوحة التي بدأها بمجتهدة ان تعطي هيئتها بعض التعبير كما كان يوعز اليها الفنان .

وحوالي الجلسة الرابعة توقف برثنان عن الرسم فجأة وسألها :

— ما الذي يعجبك في الحياة فوق كل شيء ؟

فاجابته وقد شعرت بارتباك امام سؤاله :-

— لست ادري ! ولكن لم هذا السؤال ؟

— اني ابحت عن فكرة سعيدة اضمها في هاتين العينين .

ولما اجدها حتى الآن

— حسناً حاول ان تجعلني اتكلم فانا احب الثثرة كثيراً .

— انك مرحة .

— مرحلة جداً

— فلنثرثر ياسيدي .

قالها بلهجة كثيرة الجد ، ثم عاود الرسم وهو يجاذبها اطراف
بعض الاحاديث باحثاً عن نقطة يلتقي فيها فكرهما . بدءاً بتبادل الرأي
بعض الاشخاص الذين يعرفانهم ثم راحا يتحدثان عن نفسيهما هذا
الحديث المستحب بين كل الاحاديث .

وفي اليوم الثاني شعرا انهما اكثر انسجاما وقد وجد برتان
نفسه مرحاً مسروراً فراح يتطرق الى دقائق كثيرة من حياته كفنان
وقد اطلق العنان لذكريانه اذ وجد استجابه من جليسته .

وقد صدمتها هذه اللهجة الصادقة التي تسمي الاشياء باسمائها
هي التي اعتادت لهجة الصالونات المهدبة الملتوية غير انها لم تشعر بنفسها
الامتناساة معه بهذا السيل الجذاب الجري .

لم تمض ثمانية ايام الا وقد قهرته ، استحوزت عليه واغرته بروحها
المرحة وصدقها وبساطتها . وكانت قد انسته حكمه على نساء المجتمع وقد
اخذ يؤكد ان هن وحدهن سحراً وجاذباً لا يقاومان . وبينما كان
يرسم امام لوحه يتقدم ويتقهقر بحركات رجل يناضل ، كان يترك
لافكاره الخاصة العنان كما لو كان قد عرف منذ زمن طويل هذه
السيدة الشقراء ذات الثوب الاسود ، كأنها مصنوعة من عسل وحزن ،

الجالسة امامه تضحك وهي تصفى اليه وتجيبة مرحة بشي كثير
من الحيوية حتى لتفقد في كل لحظة الوضع المفروض للرسم .
كان يقترب منها تارة ويتعد اخرى ، بغض عيننا وفتح الثانية
ليستكشف كل خلجات وجهها وتعايره العابرة ، ليلتقط كل ما في
وجه المرأة الجميلة عدا الظواهر الخلابية ، هذه المعاني المثالية للجمال ،
هذا اللائق الباهر الذي لا يحيط به علم ، هذا السحر الخاص بكل امرأة
لا إشارتها فيه سواها ، السحر الذي يجعل المرء يهيم بها دون غيرها .
في احد الاصائل جاءت البنية واستوت امام اللوحة يكسو
وجهها جدما اكثر ما ينم عنه وجه الطفل وسالت :

— قل اهذه هي امي ؟

فاخذها بين ذراعيه ايقبلها وقد هزه ادراكها للوحة كدليل
على اتقانه عمله . وفي يوم آخر وكانت تبدو شديدة الهدوء صاحت
فجأة بصوت ضعيف حزين :
= امي . اني منجرة .

وقد تأثر الرسام بهذه الشكوى حتى انه في اليوم الثاني جاءها
بمعد هائل من اللعب كاد الرسم يغص بها . فكانت دهشة آتت
الصغيرة عظيمة وسرورها اعظم وراحت تنظم الالعب بعناية كبرى
لتماود اخذها الواحدة تلو الاخرى حسب رغبتها الموقفة . منذ هذه

اللحظة احبت الزسام كما يحب الاطفال ، ذلك الحب الحيواني الذي يحيلهم وافري اللطف عظيمي النعمومة .

كانت السيدة غيروا تستعذب هذه الجلسات . فهي كثيرة الفراغ هذا الشتاء ذلك انها في حدادها لا تستطيع ارتياد الحفلات والمجتمع لذا تراها تدفن في هذا الرسم كل رغبات يومها وهموم حياتها . انها ابنة تاجر باريسي وافر الغنى ، مضياف وقد قضى منذ عدة سنوات وابنة سيدة عريقة تمضي ستة اشهر كل سنة في السرير : نتيجة للعناية الشديدة التي تحاط بها . وهكذا اضحت آني وهي بعد رطبة العود سيدة بيت حقيقية ، تعلمت كيف تستقبل وتبسم وتحادث وتميز الناس وتجد اختيار اسلوب مخاطبة كل منهم فهي في الحياة بصيرة مرهنة لبقة .

وعند ما قدموا لها الكونت دي غيروا خطيباً ادر كت فوراً المغانم التي يجرها مثل هذا الزواج لذا لم تبدِ اي ممانعة فهي فتاة عاقلة تعلم جيداً ان ليس للمرء ان ينال كل ما يشتهي وان عليه ان يوازن بين الصالح والطالح في كل الاور .

هكذا انطلقت الى الحياة فاضحت قبله الجميع لما تحملت به من وسامة ومرح . ووجدت نفسها محاطة برجال يغازلونها غير انها لم تفقد قط قلبها الذي لم يكن ليقبل عن عقلها رزانة واعتدالا . . .

كانت ذات دل غير ان ذلك لم يكن ليذهب بها بعيداً . ان
الثناء لما يدخل السرور الى قوادها فهو يهدد رغباتها المكبوتة غير
انها تتظاهر بعدم ادراك شيء من ذلك فهي تنام ملي جفنيها بعدسرة
تقضيها في صالون يحيطها فيه اعجاب الرجال ويطاردها تناوهم ، انها
تشمركاً ما قد قامت بواجبها وادت رسالتها فوق الارض .

ان اسلوب العيش هذا قد دام سبع سنوات دون ان تشعر
بازعاج ودون ان تجد حياتها رتيبة ذلك انها تعبد هذا التموج الموزون
في الحياة الاجتماعية الصاخبة بيد انها لم تكن لتقدم ساعات تنمى فيها
شيئاً جديداً . ان الرجال الذين يشكلون محيطها هم مزيج من المحامين
ورجال السياسة والتمويل ورجال النوادي الفارغي الاعمال . كانوا يجلبون
لها التسلية كما يفعل المثلون ولم تكن لتنظر اليهم نظرة كبيرة الجدمع
انها كانت تكن احتراماً لمرأى كرم ووظائفهم والقباهم .

كان يعجبها الرسام بما وجدت لديه من جديد الطبع . فهي
تجد سلوى عظيمة في رسمه فتضحك بكل قواها وقد ادرك هو ما
كانت تجده من متعة في تلك الجلسات .

كان يعجبها ايضاً لجماله وقوته وشهرته ، فهما كانت المرأة
معتدة بنفسها فلا بد لها من ان تنجذب بالجمال والمجد . وقد اطر بها
ان تلفت انظار هذا الفنان المتذوق الجمال وبدورها راحت تهى .

لاكتشاف نفسيته التي وجدتها نيرة ومثقة اصف الى ذلك رقة
حاشيته ودمايته ، انها جواذب حقيقة لدى رجل زكي محكم القول
يخرج الكلام واضحاً والفكرة نيرة .

ان هذا التجاذب قد ولد سريعاً بينهما حتى لكان المصافحة التي
يتبادلانها لدى حضورها كل يوم كانت تعمل على مزج قلوبهما مزجاً يزداد
يوماً فيوماً . حينئذ ، ودون اي تفكير او اي حساب للمستقبل ، شعرت
بميل جارف لاغواء هذا الرجل فاستسلمت الى فكرتها هذه استسلاماً
كلياً . . . لم تدرك كلف امرأ ولم تظهر ما لا نبطن وكل ما في
الامر انها تركت غنجها الجذاب بفعل كفرزة انثى امام رجل يعجبها
دون سواه فكانت تضع كل قوة انوثتها في نظراتها واساليبها في
مخاطبته والتحدث اليه والابتسام له ، هذا الاغواء الذي تنثره
حولها الانثى التي تحس استيقاظ غريزتها كي تكون محبوبة . كانت
تقول له قولاً مثيراً معناه : اني معجبة بك كل الاعجاب يا سيدي
وكانت تتركه بتكلم طويلاً لتظهر له ، باصفاها اليه ، كم كانت تستعذب
قوله . فكان ينقطع عن الرسم ويجلس ازاءها وفي ثورانه النفسية تلك
التي تنول من رغبة اثارة الاعجاب كان يروح بثرثر متفلسفاً او شاعراً
او مهرفاً تبعاً للظروف . كم كانت تسر اذ تجده مرحاً ، كم كانت
تجتهد في اللحاق به عند ما يروح يسبر الاعماق بفكره الثاقب غير انها

لم تكن لتقوى على مماشاته دائماً بينما تروح تنظاها بفهم افكاره وادراك ما يرمي اليه ملتذذ بان يشعر به يراقب شدة انتباهها لما يذهب اليه من القول متأثراً بما يجد لديها من عقل مثقف نير وطيع تسقط فيه الفكرة كما البذرة في الارض .

كانت اللوحة تتقدم وتبدو متقنة . وقد بلغ الرسام بها تلك اللحظة التي يحتاج فيها الى استكشاف كل الفتنة الكامنة في صاحبها ليستطيع التعبير عنها بتلك القوة المتقنة التي تعلن عن موهبة الفنان الحقيقي .

كان منحنياً فوقها ، يراقب كل خلجة من خلجات وجهها ، وكل تضرع يمتري خدها ، وكل ظل يطوف يشرتها وكل تعبير تعبره عينها عن اسرار طاعتها ، كانت روحه قد اشبعت منها كما تشبع اسفنجة غمست في الماء فراح ينقل الى اللوحة هذه الانعكاسات التي استطاع التقاطها والتي راحت تسيل كما الموجة من فكره الى ريشته بينما راح في اسفراقة جالمة سكري كانه قد عب من سحر المرأة حتى انثني .

وشمرت به يسكر بمطرها النافح ملتذاً بهذه اللعبة ، بهذا النصر الذي غدا داني القطوف والذي كان يثيرها هي الاخرى . ان شيئاً جديداً قد دخل حياتها فاعطاها طعماً جديداً موقظاً فيها نشوة

سحرية بعيدة القرار . فاذا سمعت الآخرين يتحدثون عنه احست قلبها
سرع الوجيب وشعرت برغبة لم تكن لتتجاوز شفتيها بان تقول :
(انه يحبني) . كانت تسر اذا امتدح الناس مواهبه وتسرا اكثر اذا
اثنوا على جماله . واذا ما حلت به وهي وحيدة لا تحشى تعكير حلمها
تخيلته صديقها الطيب الذي يقنع دائماً بضغطة مخصصة من يدها

اما هو فكان كثيراً ما يقطع جاسية التصوير ويلقي الريشة على
المحمل ويأخذ آنيث الصغيرة بين ذراعيه يحنو عليها ويقبلها في عينها او شعرها
وهو يرنو الى امها كأنه يقول لها : « هذه القبل لك وليست للصغيرة ! »
ولم تكن مدام غيروا تصحب فتاتها دائماً الى الرسم فهي تحضر
بفرد هامن رقت لا آخر وفي مثل هذه الايام لم يكن العمل ليتقدم ابداً
فيها يقطعان الوقت بالثرثرة .

وتأخرت ذات اصيل . كان البرد شديداً . فنحن في اواخر
شباط . وكان اوليفيه قد عاد مبكراً كفعله في كل مرة يترقب قدومها
املا في ان تأتي قبل الموعد . كان يقطع الرسم ذاهبا غاديا بدخن لفاقته .
والقى على نفسه هذا السؤال للمرة المئة . منذ ثمانية ايام : الست عاشقا؟
ليس يدري . وربما لم يكن قد اصبح حتى تلك الساعة عاشقا ولكن
كيف يفسر هذا الشعور الذي يداعبه . انه لا يعتبره حبا . الا انه
اليوم يستغرب هذه الخلجات ...

او تحبه هي؟ وطبعاً لم يكن ليعمل نفسه كثيراً بهذا السراب
الغلب! أمّا ان تصبح له فذلك يبدو مستحيلاً. فما ان تعجبه امرأة
حتى تجتاحه الرغبة فيمد ذراعيه نحوها كما نحو ثمرة يود اجتثاثها.
ولكن دون ان يضطرب افكاره لبعدها او يستطار لقربها. أمّا هذه
المرأة فالامر مختلف فما ان لامسته الرغبة فيها حتى شعر بها تتمكن
من قلبه محتبئة وراء عواطفه التي لم تكن قد تبلورت بعد.

كان او لفيه يعتقد ان الحب يبدأ بالاسترسال وراء الاحلام
والتخيلات الشعرية. أمّا ما يحسه الآن فعلى العكس، يبدو منبثقاً
من اهتزازات لا يستطيع عنها تعبيراً، جسدية وروحية في آن. كان
متوتر الأعصاب، مرهف الحس، مضطرباً، كما يكون المرء عندما
يشعر ان مرضاً يجتاح كيانه. لا شيء يؤلمه بيد ان الحمى تمشي في
عروقه فتتعدى الى تفكيره فتثيره فيغدو محموماً بالمدوى. وهو لا يجمل
ان مدام غيرو هي بمبعث هذا الداء. يعرف ذلك مما تتركه من ذكريات،
ومن انتظاره لها عندما تدنو ساعة حضورها. فهو لا يشعر نحوها
باندفاع كلي انما يحسها هي مقيمة في اعماقه كأنها لم تفارقه قط فهي
اذ تغادره تترك شيئاً من نفسها له، شيئاً لطيفاً لا يستطيع له وصفاً.
ماذا؟ أهذا هو الحب؟

انه الآن يسبر اغوار قلبه ليستكنه خفاياه. انه يستألفها بالرغم

من انها لا تنطبق تماماً على الفكرة التي كونها لنفسه عن المرأة التي يبحث عنها . وبالرغم من ان مدام غيروا تعجبه جداً الا انها لا تتمتع بالصفات المنشودة .

ولكن لم تشغل من تفكيره كل هذا الحيز ؟ لم يهتم بها اهتماماً اكبر مما يفعل حبال غيرها من النساء . ابكون قد سقط فقط في احبولة نصبها غنجها وانوثتها الطاغية ؟ هو الذي طالما عرف هذا النوع من النساء ذوات الميول العابرة ! يعود للسقوط في مثل هذه الشباك التي تنصبها نساء لام لمن الا الاغواء والاغراء ...

كان يسير ثم يجلس ثم يعود الى السير يشغل لقاقة ثم يلتقي بها فجأة وانظاره عالقة في عقربي الساعة اللذين يسيران الى الساعة الموعدة ببطء وتراخ

وقد خطر له ان ينتزع زجاجة هذه الساعة ويدفع بالمقرنين الذهبين الدائرين بطرف اصابه الى الرقم المنشود الذي يجد ان نحوه بكسل شديد .

وخيل اليه ان مثل هذا العمل كفيف بان يفتح الباب ويراها داخله وقد خدعتها خيلته ثم يروح يتسم من هذه الرغبة الصبيانية البعيدة التصديق .

والقى على نفسه هذا السؤال : يمكن ان اصبح عشيقها ؟ بدت

له هذه الفكرة خرقا غير قابلة للتحقيق فلا يمكن مجاراتها اذ انها
قينة بان تجلب لحياته المتاعب والمشاكل . غير ان همذه المرأة تعجبه
كثيراً ! واستخلص قائلاً : « لا ريب في ان موقفي حرج غريب »
وازفت الساعة . وجهه ريندها بمتفرض واخذت اعصابه تتوتر وروحه

تضطرب . كان ينتظره بصبر فارغ يزيده التأخر لحظة اثر لحظة ..
انها لم تخلف موعده قط . ولا بد ان تظهر خلال عشر دقائق
فيراها داخله عليه وما ان مضت الدقائق العشر حتى وجد نفسه بالغ
الاضطراب كانه بانتظار حلول مصاب . الا يمكن ان تعتمد اضاعة بعض
وقته ؟ وخلص الى التفكير في انها ان لم تأت فسينتلم بالغ الالم . ما الذي
هو فاعله ؟ سينتظرها ! - كلاً . لا بل سيخرج حتى اذا جاءت متأخرة
وجدت المرسم خالياً . ولكن متى يتوجب عليه مغادرة المرسم ؟ و كم
من الوقت يجب ان يعطيها عليها تحضر ؟ او لا يجدر به ان يبقى حتى اذا
جاءت افهمها بكلمات مهذبة بارده انه ليس من ذلك نفر الذي تخلف
معه المواعيد . وان لم تأت ؟ لا بد ان ترسل اليه برقية او بطاقة او خادما
يقدم الاعتذار . واذا وقع ذلك فما تراه فاعلاً ؟

لا ريب في انه يكون قد اضاع يوماً من حياته فهو ان يقوى
على العمل بعد ذلك ..

وحينئذ ! حينئذ لا بد له من الذهاب اليها مستفسراً ...

لأنه يشعر رغبة في رؤيتها. هذا صحيح . انه يود رؤيتها وهذه الرغبة عميقة الغور في نفسه ، ماحة ، تكاد تحطم اعصابه . ما هذا ! هو الحب ولكنه لا يشعر انتفاضا في عقله ولا هياجاً في عروقه ولا اندفاعاً مع الخيال في فكره الاً انه قد خالص الى الشعور بأنه ان لم تأت هذا اليوم فسينالم كثيراً . وقرع الجرس في مدخل مسكنه . وشعر او ليفيه برنان بانتفاضة مفاجئة ثم طغى عليه سرور غريب فالتقى لفاقة بحركة بهلوانية

ودخلت . كانت بمفردها . وبدرت منه جرأه متناهية فجأة:
— أديرين عن اي شيء كنت اسائل نفسي وانا انتظرك !
— كلا لا ادري .

— كنت اسأل : أأنا قد احببتك !
— احببتي ! ؟ اراك تفقد ادراكك
واتبعت ذلك بابتسامة . وقالت له ابتسامتها : هذا لطيف منك
وانا به عظيمة السرور » وتابعت :

— لا اخالك جاداً . ما الذي يدعوك الى مثل هذا المزاح !
اجاب — اني جاد كل الجد . فانا لا اؤكد لك اني احبك
وانما اسأل اذا لم اكن اوشك ان احبك .
— ما الذي يحدوك الى مثل هذا التفكير ؟

— اضطر ابي عند ما لا تكونين معي، وسعادتي لدى حضورك
وجلست : — لا تهتم لمثل هذه التوافه . فما دمت تنام جيداً
وتأكل بشهية فليس ثمة خطر ! وضحك قائلاً :

— واذا دهمني الارق وجفتني الشبهه !

— أخطرني !

— وبعد ؟

أتركك تشفى بسلام .

— شكرًا لك !

وعلى موضوع هذا الحب قضيا بعد الظهر كله في تفككه
وترويح وهكذا في الايام التالية وقد تقبلا ذلك كأنه مزاح لا اهمية له.
وسألته بلهجة جدية عندما دخلت :

— كيف حال حبك اليوم ؟

فكان يصف بلهجة جدية ناعمة كل تطورات مرضه ، وكل
شيء عن عمل هذا الحب في نفسه وافكاره الخاصة ، هذا الحب الآخذ
بالاشتداد يوماً فيوماً .

فكان يحلل نفسيته بدقة امامها ، ساعه فساعة ، منذ فراقها مساء
اليوم السابق . كان يقول ذلك بطريقة استاذ يلقي محاضرة تحليلية .
وكانت هي تصني اليه بالغة الاهتمام قليلة الاضطراب شديدة التأثر

بهذه القصة التي تخيل اليها انها تقرأها في كتاب هي بطلته . وبعد ان عددها
بأهجة مهذبة مراحل الاضطراب النفسي الذي غدا فريسة له راح
صوته يتهدج وهو يقبر لها عن خلجات قلبه ونزعات نفسه . وكانت
نسائله دائما مندفعه بحب الاستطلاع وقد ثبتت عليه عينها ، واذنها
منعطشة لسماع هذه الاشياء التي لا تثير اضطرابا لدى الاصغاء اليها
غير انها بالغة المذوبة جميله الوقع .

وكان احيانا عندما يدنو منها لاصلاح وضعها يأخذ يدها
ويحاول تقبيلها فكانت تجذبها منه وقد قطبت حاجبيها وتقول :
— هيا الى العمل .

ويعود الى العمل ولكن ما ان تمضي دقائق خمس حتى تلقى
عليه سؤال يحمله الى معاودة الحديث في الموضوع الوحيد
الذي يشغلها .

وبدأت تحس خوفا مبهما يولد في قلبها . انها ترغب في ان
تكون محبوبة وليكن الى حد . كانت واثقة من انها لن تجاريه في
اندفاعه ومن هنا تولدت خشيتها في ان يندفع بعيدا فتضيعه اذ انها
ستجبر على تحطيم آماله بعد ان تكون قد شجعتة وان هي تنكرت
لهذه الصداقة منذ الآن ، لهذا السمر المستحب المشتهى الذي يسيل
كما جدول بين حصي ذهبية ، فلا ريب في انها ستشعر بحزن عميق

والم بالغ كأنه تمزيق الاعضاء .

فهي عندما تغادر بيتها لتذهب الى المرمم كانت تحس سروراً
قوياً حاراً يعمرها فيحيلها خفيفة وسعيدة . وما ان تضع اصبعها على
جرس مسكن اوليفيه حتى تشعر بفراغ صبرها والبساط الذي يغطي
السلم كان انعم ما وطئته قدمها .

اما برنان فقد غدا في المدة الاخيرة قائم التفكير ، تأثر
الاعصاب ، مرهف الحس اكثر الاحيان — وكثيراً ما كان يشعر
بفراغ صبر يجتهد في كتمانها واخفائه .

وذات يوم ، لدى حضورها ، جلس بالقرب منها بدلاً من ان
يشرع بالرسم وقال لها :

— لا يمكن لك ياسيدي ان تتجاهلي الآن ماصرت اليه .
اني احبك مجنون .

وصعقت امام لهجته الجدية القوية واحست بعاصفة عاتية
نوشك ان تهب فحاولت ايقافها غير انه لم يعمرها اذنا صاغية . كان
التأثر قد طغى على قلبه وفاض فكان عليها ان تصفي اليه شاحبة مرتجفة
الاوصال قاقة . اما هو فراح يتكلم بلا انقطاع ودون ان يطلب شيئاً
معيناً ، وكانت لهجته مشبعة بالحنو والحزن والتصميم التمس وتركته
بأخذ يديها بين يديه طوال الوقت . كان امامها وعلى ركبتيه ودون

ان تنذبه هى لذلك وبمنظرة هائلة كان يضرع اليها الأتسيء اليه . اية
اساءة ! لم تكن لنفهم ولا تحاول ان تفهم غير ان حزنا فناكا استغرقها
وهي تراه بتألم وهذا الحزن كان يلتقي طرفه بطرف السعادة .
ورأت فجأة الدموع في عيذه فبلغ من تأثرها ان افلنت من بين
شفثيها تنهدة حارة . كانت مستعدة لعناقه كما بعانق المرء طفلاً يبكي . وكان
يردد بصوت لطيف حزين : هانذا انا لم كثيراً .. وراحت فجأة
بمدوى من الامة ودموعه تشق باكية وقد توترت اعصابها
واضطرب ذراعاها حتى اوشكا ان يمتدا اليه ويحتويه .

وشعرت فجأة انها انساقت بتياره عندما ضمها اليه وصهر
شفثيها بقبلة محمومة . حاولت ان تصرخ ، ان تقاوم ، ان تدفعه ، غير انها
ادركت انه ايس ثمة فائدة ترجى لقد اضاعت نفسها بيد انها لم تفقد
كل مقاومة فاستسلمت اليه في شيء من المقاومة فكانت تشد به الى
صدرها وهي تقول : « لا .. لا .. لا اريد .. لا اريد .. »

واقامت فترة مضمضعة الخواس ، وقد غطت براحتيها وجهها
ثم نهضت فجأة والتقطت قبعتها التي كانت قد سقطت فوق البساط
وفرت مسرعة رغم رجاء اوليفيه الحار وتعلقه بطرف ثوبها .
ما ان وجدت نفسها في الشارع حتى شعرت بعيل الى الاستلقاء
فوق اول رصيف فهي تشعر جسمها محطماً وساقها لا تقويان على

حملها .. ومرت بها مركبة فاستوقفتها وصعدت وامرت السائق ان يسير بها متمهلاً حيثما يريد .. والفت بنفسها في العربة واحكمت اغلاق الابواب وقبعت في الزاوية وقد دهمها شعور بالوحدة . انها وحيدة وحيدة وراء هذا الزجاج المرفوع .. وحيدة مع افكارها فقط . ولم يكن في رأسها خلال الدقائق الاولى سوى دوي العجلات واهتزازات العربة كانت تحدد في المنازل والسابلة وراكبي العربات بنظرات فارغة كأنها لا ترى شيئاً ولا تفكر بشيء كأنها كانت تستمهل افكارها وتعطيها فترة استجمام قبل ان تشرع باستعراض ما حدث لها .

ومن ثم هتفت بنفسها وقد نشط تفكيرها : هانذا امرأة مضیعة ! واستغرقها لفترة قصيرة هذا الشعور الصارم بالخطب الذي حل بها فلا يمكن اصلاحه . كانت كأنسان سقط من عل فاستكان دون حراك ظناً منه ان ساقیه قد تحطمتا ولن يستطيع لهما تحريكاً .. ولكن بدلاً من ان يدركها رعب من جراء هذا العذاب الالیم الذي ينتظر حلوله وتبلغ للقائه خرج قلبها من هذه الكارثة هادئاً وادعاً . كانت تضطرب اضطراباً هادئاً بعد سقطتها تلك التي ابهت ضميرها ولم تحاول ان تقاسم عقلها رعبه الذي اجتاحه بعنف ورعونة .

وردت بصوت مسموع كأنها تود استيعاب كلماتها والاعتناع

بها : هانذا امرأة مضيعة ... » ولم ينبض عرق بها لصدى شكوى ضميرها هذه . وتركت نفسها تنازج فترة مع اهتزاز العربة وقد ألقت جانباً هذه الأفكار التي تدور حول الموقف المريع . كلاًّ فهي لا تتألم لما حدث ، وكل ما تستشعر هو الخوف ، الخوف من الإدراك والتفكير وعلى العكس فقد أحست بما يولده لدينا الكفاح ضدميولنا ورغباتنا ، أحست بسرور طاغ حبال ذلك .

وبعد نصف ساعة من هذه الراحة الغريبة أدركت ان اليأس الذي نشدته لن يأتي ابداً فتخلصت من فتورها وتمت : انه لامر غريب ! الست حزينة !

ثم راحت تمكيل لنفسها اللوم ، وشمرت بغضب طاغ يهب في داخلها لقصر نظرها وضعفها . كيف لم تدرك مسبقاً هذه النتيجة ؟ ان ساعة هذا الكفاح قد دقت ؟ وان هذا الرجل يشوقها للدرجة تكفي للاسفاف بها امامه ؟ وان النفوس الاشد استقامة تهب فيها هذه الزوابع التي تودي بالارادة ؟ وراحت تتساءل عما سيحدث بهدان كالت لنفسها اللوم والاحتقار جزافاً . واول مشروع فكرت به هو ان تقطع كل علاقة مع الرسام وتمتنع عن رؤيته . وما ان اتخذت هذا القرار حتى نصالحته عليها الأفكار والحجج لضعفه .

كيف تفسر هذا الضجيج ؟ ما الذي ستقوله لزوجها ؟ وهذه

الحقيقة ان تذاع وهمس بها الشفاه حتى تصبح احدثه المجتمع
اولا يجدر بها ، لانقاذ المظاهر على الاقل ، ان تلعب مع
اوليفيه الدور الذي بان تظاهر بعدم الاكتراث والنسيان ، وبان تبدو
امامه وكأنها قد محت تلك اللحظة من ذاكرتها ومن حياتها ؟
او تستطيع الى ذلك سبيلاً ؟ او تكون لها القحه الكافية
لتظاهر امامه انها نسيت كل شيء ؟ او تتوصل الى النظر اليه باستغراب
وتساؤل كأنها تقول دهشة : ما الذي تبغيه مني ؟ أتستطيع ذلك حيال
الرجل الذي قاسمته تلك الخلجة العابره العنيفة ؟
وفكرت طويلاً بيد انها لم تجد حلاً آخر ممكن التحقيق
ستذهب اليه اذا كان الغد ، بشجاعة ، وتفهمه حالاً ما الذي تريده وما
الذي تطلبه منه والذي تريده يختصر في ان عليه الا يشير الى ما حدث
بكلمة او بنظرة مما يذكرها بذلك الموقف المهيمن .
ولا ريب في انه سيتألم كثيراً الا انه كرجل مذهب مستقيم
لن يسمه الا الاستجابة الى رغبها فيبقى في المستقبل كما كان حتى
تلك الساعة .

وما ان خلصت الى هذا القرار حتى اعطت للسائق بعنوانها
وقصدت البيت فريسة لتأثر عميق وليليل شديد للذهاب الى فراشها قبل
ان يقع نظرها على اى كان وان تنام وتنسى . وبعد ان اعتزلت في

غرفتها تمددت فوق مقعد وراحت تفتظر ساعة العشاء في استغراق
ابله منعمدة الا ترهق افكارها بالحادثة الخطيرة . وخرجت في الساعة العشاء
المعينة وقد دهشت لهدوئها فهي تنتظر زوجها بوجهها العادي دون
ان يمتورها اي اختلاج . ودخل زوجها يحتضن . ابنتها بين ذراعيه
فضمطت يده وعانقت البنية دون ان تحس اي ضيق .

وسألها السيد غير واعما عملته . فاجابته بعدم اكتراث انها
جلست امام الرسام كفعلها كل مرة .

— واللوحة ؟ هي جميلة ؟

— انها موفقة جداً .

وبدوره راح يحدّثها عن الاشياء التي يحب ان يتحدث عنها
اثناء تناول الوجبات : عن اجتماعات المجالس ومناقشاته حول مشروع
قانون تعديل الانتاج .

كانت هذه اثرة محتملة في الماضي اما الآن فهي تثيرها . انها
تنظر الى هذا الرجل السوقي الذي يهتم بمثل هذه الاشياء بابتسامة وهي
تصفي اليه وتجيبه بلطف بل بالطف مما اعتادت . كانت تفكر وهي
تنظر اليه : « لقد خنته ، وهو زوجي اليس ذلك غريباً ، لا شيء
يمكن ان يربل هذه الوصمة . لقد اطبقت عيني . لقد استسلمت خلال
لحظات قلائل لقبلات رجل فانا لم اعد امرأة وفية ! انها لحظات !

لحظات في حياتي لا يمكن ازلتها. لقد ارتكبت خلال هذه اللحظات ما لا يمكن اصلاحه ، انها جريمة ، بل احط جريمة بالنسبة لامرأة شريفة ... ومع ذلك فلست اشعر بآس . ولو قيل لي ذلك امس لما استطعت تصديقه . ولو أُكِّد لي وقوع مثل ذلك لاجتاحني ندامة قينة بتمزيقي ارباً . والآن .. لست اشعر بشيء من كل ذلك . وخرج زوجها بعد العشاء كما اعتاد ان يفعل كل يوم تقريباً . واخذت ابنتها فوق ركبتيها وراحت تقبلها وتبكي . بكت بدموع صادقة ، دموع ضميرها لا دموع قلبها .

غير انها لم تنم تلك الليلة قط .

كانت مغمورة بظلام غرفتها . وقد ادر كها اضطراب عظيم لما تنتظر من تصرف الرسام حيالها . وادر كها الخوف من الغد . من لقائه واللقاء اليه بما تود قوله وجهاً لوجه . ونهضت مبكرة . ومكثت معظم قبل الظهر متمدة فوق كرسيا الطويل مستعمدة كل ما يمكن ان يحدث لها ، كل ما ستجيب به متخذة كل حيلة للرد على كل مفاجأة .

وخرجت مبكرة ايضاً لتتيح لنفسها فرصة التفكير وهي سائرة . لم يكن ينتظرها . بل كان يتساءل منذ مساء امس كيف سيكون نهجه حيالها في المستقبل .

فبعد ذهابها أو بالأحرى هربها الذي لم يجروء على الحملولة
دونه مكث وحيداً مصغياً الى وقع خطاها وحفيف ثوبها رغم كونها
قد ابتعدت والى صوت اغلاق الباب بيدها العنيفة وهي خارجة .

وبقي واقفاً بفعمه سرور جارف عنيف فوار . لقد تغلب عليها
هي ! لقد حدث ذلك بينهما ! أمممكن هذا ؟ كان الانتصار مفاجئاً
وها هو يتلذذ بطعمه ، وليناح له هذا التلذذ بشكل اعمق جلس بل استلقى
فوق الديوان الذي كان مسرح انتصاره .

واقام طويلاً تغمره هذه الفكرة : انها الآن عشيقته ! لقد
اوثق ، في لحظة قصيرة ، بينه وبين المرأة التي طالما اشتهاها ، ذلك
الرباط السري الذي يشد مخلوقين شداً لا تنفصم له عرى . انه لا يزال
يحتفظ في كل عرق منى عروق جسده المرتجف بتلك الذكرى العنيفة
التي تركتها تلك اللحظة الخاطفة حيث التقت شفاهما واتحدت جسداهما
لينعمان بأعظم انتفاضة من انتفاضات الحياة !

ولم يخرج هذا المساء كي لا يفقد هذه الفكرة وذهب الى
فراشه مبكراً والسعادة تغمم نفسه اي افعام .

وما ان استيقظ في صبيحة اليوم التالي حتى القى على نفسه هذا السؤال
ما تراني فاعلاً ؟ لو كانت صديقه غانية او ممثلة لارسل اليها ازهاراً او
حلية ، غير انه اقام محيراً امام تناقض موقفها ذاك .

لا ريب في ان عليه ان يكتب . . ما ذا ؟ وزاح يسود
الصفحات ويشطب السطور ثم يمزق الاوراق ثم يعاود الكتابة . . .
عشرين رسالة . . . وجدها كلها جارحة سخيفة بغيضة .

كان بود ان يعبر لها باسلوب ناعم عن اعتراف روحه بحميلها
ويصور لها هيامه المجنون بها ويقدم لها اخلاصه وتفانيه ، الا انه لم
يجد سوى جملا ركيكة عادية ليعبر عن كل هذه الاشياء الحارة . .
جملا سخيفة ممجوجة خشنة صيدانية.

وانصرف عن فكرة الكتابة وقرر ان يذهب للقائها عند ما
تمر ساعة حضورها الى الرسم لأنه لم يكن ليتصور انها ستأتي .
واعتكف في الرسم امام اللوحة التي تمثلها . كان بود لو يلبصق
شفتيه فوق الاصابع التي تمثل شيئاً من سحرها ، وكان بين الفينة
والاخرى ، يطل بانظاره الى الشارع عبر النافذة .

وكما لمح ثوب امرأة من بعيد يعلا وجيب فؤاده . عشرين
مرة خيل اليه انه يراها تخطر قادمة ولا يدرك خطأه الا بعد ان
نفوته المرأة القادمة فيعود الى جلسته لحظة محطم الاعصاب بعد اخفاقه .
ولحها فجأة ، فتشكك ، واخذ منظاره فاستوثق ، واحس
ناثراً عميقاً يستبد به ، وجلس ينتظرها .

ولما ولجت الرسم القى بنفسه الى ركبتيها وحاول اخذ يديها ،

فانزعتهما منه بعنف ، فاقام تحت قدميها رافعا اليها عينييه . قالت له بترفع :

— ما ذا أراك فاعلا يا سيدي . انا لا افهم لتصرفك معنى ؟

فتتم : آه .. يا سيدي .. اني ارجوك ...

فقاطمته بعنف :

— انهض . فانت مضحك هكذا .

ونهض فزعا وتمتم :

— ما ذا دهاك ؟ ولم تعامليني هكذا وانا اهواك ؟

وبكلمات قلائل جافة ، افهمته حينئذ ارادتها ، واعادت الامور

الى نصابها :

— لست افهم ما تريد قوله ! لا تحدثني ابداً عن حبك . وان

فعلت غادرت هذا الرسم فلا اعود اليه ابداً . فادا نسيت هذا الشرط

مرة واحدة امامي فلن تقع علي منك عين قط

كان ينظر اليها مستطار اللب لهذه القسوة غير المنتظرة . واخيراً

فهم . واجاب :

— حسنا ما صدع بالامر يا سيدي .

فاجابت :

— حسنا جداً . هذا ما انتظرته منك . والآن الى العمل .

فقد طال بك الوقت للفراغ من هذه الموحة .

واخذ ريشته وشرع يرسم بيد مر تجفة وقد علت عينيه غشاوة
فلا تريان . كان يميل الى البكاء لأن قلبه قد تحطم وانسحق .
وحاول ان يخاطبها فكانت تجيبه باقتضاب . ولما حاول ان
يمتدح زبها اجابته بلهجة صارمة شعر معها ان الحب يوشك ان ينقلب
كراهية وبغضا . وحدث في روحه وجسده معا انقلاب عصبي غريب
انه يكرهها . اجل . انها امرأة ! امرأة كغيرها من النساء . هي
الآخرى . ولم لا ؟ انها متقلبة ، غظة وضعيفة ككل بنات جنسها
لقد حاولت اجتذابه واغراءه باساليب فتاة صغيرة ثم بعد ان شفقته
حبا رفضت ان تقدم له اي شيء لا جثة الى احط اساليب الفواني
الرخيصات المستعدات دائما للتخلص من ثيابهن قبل ان يصبح الرجل
الذي يغوينه ككلب الشارع يجري لاهثا خلفهن . تعسا لها . لقد
نالها ، لقد امتلكها ! فلتقل ما بدا لها . لتجبه باية لهجة تشاء فلن
تستطيع محو شيء مما حدث اما هو فمن السهل ان ينساها .
لا ريب في انه احزن صنعا بتخلصه من مثل هذه العشيقة
التي لو استمرت علاقتها لسحقت حياته الفنية ولزقتها بخائبها الجميلة .
وادركته رغبة في ان يصفر حياها كما يفعل تماما (النماذج) التي
تقف امامه غير ان توتر اعصابه ، وخوفه من ان يرتكب حماقة ما ،
جعله يعمد الى اختصار الجلسة مدعيا ان ثمة موعداً هاما ينتظره .

وعند ما تبادلنا التحية ساعة فراقها شعرا انهما لم يكونا متباعدين يوم
التقيا للمرة الاولى اكثر منهما الآن .

وما ان ذهبت حتى اخذ قبعتها ومظفه وخرج . كانت شمس
باردة تسكب سماء شاحبة الزرقة . المطخة بالضباب ، تلقي على المدينة
نورها الشاحب الحزين ...

ما ان سار بعض الوقت بخطي سريعة مترددة مستضما بالسابلة
لثلا يحيد عن الخط المستقيم ، حتى بدأت غضبه منها تضعف وتحول الى
أسف وندم . وبعد ان تذكر كل اساءاتها اليه راح يقارن بينها وبين
النساء العابرات فيجدها اجملهن واكثرهن جاذبية واغراء . وكالكثيرين
في مثل حاله راح يعمل نفسه بقاء على غير ميعاد شاعر اذلك الشعور الطاغى
الفريد الشيق الذي يضيفه الخيال على قلوبنا . لم يكن عليه ان يحصل
على كل ذلك ؟ او لم يكن بمقدورها هي ان تقدم له كل هذه
السعادة ؟ لم لم يتحقق شيء من كل ذلك ؟ لم لا تتمكن من الحصول
على كل ما ينتغي ، او نحصل على جزء ضئيل لا يزيدنا الا تشوقاً
الى هذه الاماني العذبة المؤلمة !..

انه لا ينشد هذه المرأة بالذات : انما ينتغي الحياة من ورائها
والآن انه يفكر لم هو يريد ما الذي ينتغيه منها ؟ وبما يستطيع
ان يصمها به . ألا انها كانت لطيفة وناعمة معه ؟ اما هي فتستطيع ان

تنظر اليه نظرتها الى لص . وعاد والحزن يكاد يزهق انفاسه . كان عليه ان يعتذر منها . ان يجعلها تنسى ان يعمل كل طاقته ليكون لها ، فيما بعد ، طليعاً منجياً امام ارادتها .

وجاءت في اليوم التالي تصحبها ابنتها . وقد علت شفقتها ابتساماً كئيبة كانت قبل ذلك لامعة مشعة ، وبدا في عينيها الزرقاوين المسكينتين لمان يحمل ندماً وانسحاقاً يمان عما يقاسيه قلب هذه المرأة لقد حركته شفقة عليها ولجأول صرف ذهنها عن كل ماله مساس بما حدث راح يحيطها بعناية كبيرة في منتهى اللطف والليناس . كانت تجيبه بلطف ، وحسن طوية ، وبلهجة امرأة تعبة محطمة يهظها الم عظيم .

اما هو فما ان ينظر اليها حتى تعاوده فكرته الجنونية في ان يحبها ويكون محبوباً منها . وكان يسأل نفسه كيف لم تغضب اكثر من ذلك . كيف استطاعت العودة اليه وسماع حديثه واجابته وتلك الذكري تجثم بينهما .

ان المرأة التي نكره رجلاً اغتصبها لا تستطيع مقابله دون ان ينفجر فيها حقدوا الدفين وكرههته اللاهبة . غير ان الرجل لا يستطيع ان يبقى جامداً حيال مثل هذه المرأة . فامناً ان تحقد عليه او ان تسامحه . فاذا هي ساحتها اصنحت قريبة من ان تحبه .

كانت هذه الافكار تدور في رأسه وهو يتابع الرسم فيشعر
بنتيجتها انه اصبح سيد افكاره والمسير لها .

وخلص الى التفكير انه بشيء من الصبر والدراسة والحنكة
يتوصل غداً او بعد غد الى استعادتها والتمتع بوارف حبها .

وقد عرف كيف ينتظر . ولم يعدم وسيلة يلجأ بها الى الاحتيال
كما فعلت هي فكان يحيطها بخنوه الخالص ويتظاهر امامها بالندامة لما
بدر منه وبغير ذلك من الانصرفات التي تنم عن قلة اكرثاث ..

كان مطمئناً الى النتيجة . الى السعادة المرتقبة آجلاً او عاجلاً .
ولم يعدم شعوراً باللذة غريباً اذ وجد نفسه قليل اللهفة ، مقيماً بالانتظار .
وكان يقول : انها خائفة ، اذ يراها قادمة دائماً مع ابنتها .

واحس ان التقارب بينهما يسير بشكل بطيء وان في نظراتها
شيئاً غريباً ، متناقضاً ، لطيفاً غير انه مؤلم ، لأن روحها في نضال
هائل وارادتها في اضطراع مرير وكانها تقول : لا احتمال مزيداً »

وبعد مدة من الزمن صارت تأتي بعفدها وقد وثقت من
حسن سيرته حياها . وحينئذ راح يعاملها كصديقة ورفيقة ، يحدثها
عن نفسه وعن مشاريعه وعن فنه كما يحدث اخاه بذلك .

لقد اجتذبها بهذا الاهمال كحبيبة . وكذلك سرها ان
يجعل منها مشيرة له ، وان يميزها بذلك عن غيرها من النساء ،

واقنعت بان مواهبها قد جعلته يحمل عنها فكرة ارفع . غير انه لشدة
استشارته لها واخذه بأرائها جعلها تصبح بالنسبة اليه مع الزمن موحية
اكثر منها مشيرة .

وقد سرها جداً ان تبسط نفوذ افكارها على مثل هذا الرجل
العظيم ، واعتقدت انه يحب فيها الفئانة التي توحى اليه كثيراً من لوحاته
و ذات مساء . بعد حديث عن عشيقات الفنانين تركته باخذها
بين ذراعيه ودون ان تحاول فكاً كآ راحت تبادله قبلاته .

لم تشعر حينذاك بندامة . الا انها ، ارضاء لعقلها وكبريائها
اقتعت نفسها أن ثمة قضاءً وقدرًا ليس لهما محيص عنهما .

لقد اجتذبتها اليه قلبه البكر وروحه التي كانت عاطلة ، وذلك
الغاب البطي المستمر الذي اتاح له امتلاك جسدها ، كل ذلك جعلها
تتعلق به تعاق امرأة طرية العود تحب حبها الاول .

اما هو فكان حبه ثورة عنيفة عاتية شمرية . فكان يخيّل اليه
احياناً انه يطير بها بين ذراعيه في سموات الحب البالغة الروعة محمولين
على خيال مجنح بديع ذلك الخيال الذي يطوف بأمالنا ويداعبها دون
انقطاع .

لقد انتهت صورة الكونتس . فجاءت ولا ريب خير ما أبدعته
ريشته ، ذلك انه استطاع ان يضع فيها هذا الشيء الذي لا يدرك ،

ولا يمكن التعبير عنه ، الذي يصعب على الفنان كثيراً إبرازة على
الوجوه . هذا السر ، صورة الروح التي تطفو ، دون ان ندرك ،
فوق الوجوه .

وصرت الشهور ، وتلتها السنون ، فما زادت ذلك الرباط إلا
متانة ووثوقاً تلك الصلة التي ربطت الكونتس غيروا والفنان اوليفيه
برتان .

لم بعد لبرتان ذلك الشعور الذي كان لديه في الايام الخوالي .
فقد انقلب الى عاطفة هادئة عميقة ، الى نوع من صداقة يمازجها الهوى .
وقد اعتاد ذلك فلم بعد ينزع الى تغير شي . فيه .

اما هي ، فكان تعلقها به عشقاً لا هوادة فيه ، عشق امرأة
تعطي لرجلها كل شيء دفعة واحدة والى الابد . كانت مخلصه ووفية
في علاقاتها المجرمة تلك كما كانت في الزواج ، وانتهى بها ذلك الى
عاطفة فريدة لا يستطيع شيء تحويلها عنها . لم تكن تحب عشيقها
فحسب ، انما كانت تريد ذلك الحب . وكانت عيناها لا تفارقه قط
وهي على مثل اليقين من ان شيئاً آخر لن يقوي على تحويلها عنه .
لقد ربطا حياتهما ببعض اختيارهما كما يتماصك شخصان بالاكف
قبل ان يشا من على الماء طلباً للموت وهما يجهلان السباحة .

بيد ان الكونتس ، منذ ان استسلمت الى برتان كانت تشعر

بالمخاوف تهاجمها . اتراه يثبت على حبها ؛ لا شيء يمسك به مخلصاً سوى ارادته كرجل ، واعتداه بنفسه ، فقد يشتهي امرأة يصادفها اشتهاً عابراً كما حدث له مع نساء عديديات اخريات . وكانت تجده متحرراً سهل الانقياد ، غير معصوم عن السقوط هو الذي يعيش دون اية مسئولية او واجب او عادة ملازمة كبقية الرجال . انه جميل ، ذائع الصيت ، مرغوب ، يجد في اية ساعة نحت تصرفه معظم نساء المجتمع اللواتي لا تردعن حشمة ، وكذلك قل عن نساء الملاهي والفنانات اللواتي لا يحلمن بخير منه . ان اية منهن تستطيع في اي يوم ان ترافقه بعد المشاء ... ثم تحتفظ به لنفسها .

وهكذا عاشت في هلع من ان تفقده . مراقبة حركاته ، ونبراته ، تلقاها كلمة ، وتشقيها ملاحظة اعجاب يديها بامرأة اخرى وامتداح وجه لامرأة سواها او سحر طلعة تمر به . فشكل ما تجهله من حياته يخيفها وكل ما تعرفه يحمل اليها القلق والاضطراب . ولدى كل لقاء كانت توجه اليه الاسئلة البريئة الطواهر لتطلع على ارائه بمن قابل من الناس او البيوت التي دعي لتناول الطعام فيها ، ولتسجل تاثراته الطفيفة بكل ما يصادف في حياته . فما ان تشمر بان ثمة من يستعوز على جزء من تفكيره حتى تروح تحارب هذا التأثير بشتى الطرق ومختلف الوسائل .

كانت تشعر احياناً بهذه الدسائس القصيرة القريبه الغور التي
لا تستمر اكثر من اسبوعين والتي لا تخلو منها حياة فنان قط .

كانت تستبق الشعور الى الاخطار قبل ان تحس بميل جديد
يولد في نفس اوليفيه ويكون ذلك بما يبد وفي عيذه من برق عندما
يحاول الاقدام على احدى المغامرات العاطفية العابرة .

وتروح تنالم . فهي لا تنام الا نوماً متقطعاً مليئاً باحلام
الشك والريب . وتحاول ضبطه فتصل الى مسكنه في اوقات لا ينتظر
قدومها فتلقي عليه اسئلة ظاهرها برىء ، فتعجم قلبه ، عليها تدرك
خلجاته كما يعجم المرء عضواً مصاباً ليدرك موطن الداء ...

وما ان تخلو بنفسها حتى تشرع بالبكاء واثقة من انها ستخسر
هذه المرة ، من انهم سيسرقون حبها الذي تنسبث به لانها هي التي
اوجدته بكل ما فيه من حرارة ومن احلام .

وما ان تشعر به يعود اليها بعد هذا الهجران القصير ، حتى
تنظر اليه نظرتها الى شيء كان ضائعاً فوجد .. وقد افعم قلبها شعور
فامر بالسعادة حتى يحدث لها في مثل هذه الحالات ان تدخل اول
كنيسة تصادفها لتسجد وتشكر الله . وقد انصرفت الى الاهتمام بنفسها
وباناقتها لتحوز اعجابه دون سائر النساء ، الامر الذي جعل من حياتها
سلسلة من التألق المغناج والذل الفاتن .

فقد كافحت من أجله ، ودفاعاً عنه ، وكان سلاحها دائماً : الجمال ،
والفتنة والانوثة والنافقة . أنها تريد كلما ، دار الحديث حولها ، ان
يعمد المتحدثون الى امتداح فتنها وناقتها وذوقها وذكائها . فهي تريد
ان تروق في اعين الغير من اجله . حتى اذا رآها محاطة بالمعجبين ارضت
كبريائه واثارت غيظه . وفي كل مرة تشعر ان الغيرة بدأت تعذبه
كافأته بساعة من ساعات الحب ينسيه انتصاره فيها عذابه وشقاؤه .
انها تعرف ان الرجل كثيراً ما تعترض سبيله امرأة فاتنة في
اي مكان او زمان فيروج مدفوعاً بسحر انوثتها الطاغية ، وبلذة الحديد ،
متدلها في حبها . وخشية وقوع شيء من هذا القبيل كانت تعتمد الى
اساليب اخرى : كانت تطريه وتدله .

فهي بشكل مستمر تغمره بالثناء والمدح وتهدهده بالاعجاب
وتحيطه ببخور عابق وهي انما تفعل ذلك لتحكم وثاقه اليها فقد يتاح
له في المجتمع امرأة تحبه ولكنه سيجد حبها فاتراً وانه ان وجد تلك التي
تغدق عليه حبها فلن يتاح له تلك التي تفهمه كما تفهمه هي .

لقد جعلت من صالونها حيث يدخل دائماً المسكان الذي يرضي
كبريائه . كفنانه حتى كان في نظره افضل مكان يزوره في باريس ،
هو بفضلها لأن كل رغباته تجد ما يشبعها ويرضيها فهي لم تكن فقط
نسمى الى استكناه كل اذواقه لتعمل على ارضائها كي يشعر بالسعادة

لديها ، بل كانت تسعى لتخلق عنده اذواقاً جديدة ، محرّكة منهم المادي
والعاطفي عما تحيط به من عناية ومن وجد لا هب بلغ حد العبادة .
أما تبذل قصارى جهدها لاغراء حاسة النظر فيه بأناقتهما
وحاسة الشم بعطرها ، وحاسة السمع بغزلها . وحاسة الذوق بما تقدم
له من ضروب المآكل .

غير أنها وهي تعمل جاهدة على إثارة كل غرائز ذلك الرجل
العازب بتلك الأساليب التي لا تناح لعشيقه أخرى ، كانت تجد أنه
بدأ بتدمير من بيته الخاص ، ومن وحدته فهو لا يستطيع المجيء إليها
الآن ضمن حدود بفرضها المجتمع ، فكان يسعى الى التخلص من وحدته
تلك في النادي او في مكان آخر ، وادر كمها الخوف من ان يفكر
بالزواج كنتيجة لذلك الشعور بالوحدة .

وكثيراً ما كانت هذه الأفكار تعذبها فتتمنى ان تعجل به
الشيخوخة فتقل كل هذه المخاوف لديها فتتاح لها الراحة من كل
هذه الاضطرابات الروحية التي تمن في ايلامها فتتمتع بالهدوء والسلام .
ومرت السنون على مثل هذه الحال . وكانت السلسلة التي تشد
احدها الى الآخر متينة بل كانت هي تعمل دائماً على تمكين حلقاتها
كلما آتست ضعفاً في احداها . غير ان الهدوء لم يعرف سبيله الى قلبها
فهي تحيط الرسام برقابة وعناية كما تحيط طفلاً يجتاز طريقاً غاصّة

بالمربات . وكانت كل يوم تختفي حدوث شيء مجهول يهدد كيـان
حبها وتشعر به حاضراً فوق رأسها في كل لحظة من لحظات النهار .
اما زوجها الكونت فلم يكن ليخالجه اي شك في سلوك
زوجته ، فهو لا يعرف الغيرة بل يرى مثل هذه العلاقة بين زوجته
والرسام الكبير طبيعية جداً ، فليس يمته المكان الوحيد الذي يتلقى
بحفاوة هذا الرجل الشهير ، ولشدة ما التقى الرجلان انهما بان ربطتهما
صداقة بل نوع من الحب ...



عندما ذهب برنان يوم الجمعة مساءً ، لدى صديقته ، بناء على دعوتها الاحتفال بقدوم ابنتها اتوانيت دي غيروا ، لم يكن قد حضر سوى السيد ميزاديو الذي كان جالسا منذ لحظات في الصالون نمرزج لويس الخامس عشر .

انه كهل ذكي ، كان يمكن ان يصبح رجلا ذا خطر وهو لا يريد ان يتعزى ابداً لما اضاع من فرص ثمينة في حياته .

كان يعمل حافظا للمتاحف الامبراطورية ثم استطاع ان يعين مفتشا للفنون الجميلة في عهد الجمهورية الامر الذي لم يحل دون توثق الصداقة بينه وبين كل امير واميرة او دوق ودوقة من الارستقراطيين الاوربيين ، وكان فضلا عن ذلك يمد نفسه الحامي المحلف ليكل فنان من اي نوع .

كانت موهبته للكبرى الذكاء وسهولة التعبير عن كل شيء فيخرج الفكرة بشكل جميل مهما كانت تأفهة حقيرة ، الامر الذي جعله مرغوبا في جميع المجتمعات . وكان له حاسة رجل السياسة الذي

يستطيع الحكم على الناس للنظرة الاولى .

فكان شغله الوحيد ان يتنقل بنشاطه النير ، الثرثار ، غير المجدي

من صالون الى صالون ليله ونهاره ..

كان اهلا للتحدث في كل موضوع واعطاء الاحكام على كل

حادث ، وهذه الصفة جعلته محبوبا في الاوساط النسائية خاصة . فهو

في الواقع يعرف كثيرا من الاشياء بالرغم من ان مطالعته لم تتجاوز

الكتب المقررة لعملة . وكان صديقا حميما لاعضاء (الاكاديميات)

الخمسة ، مقربا من جميع العلماء والكتاب والفنانين الذين كانوا يصغون

اليه دائما بارتياح . وهو لم يكن ليهم بالتفاصيل الفنية فلا يتكبد

اتقان حفظها الا انه يستطيع ان يعبر عما يريد بسهولة يبعدها دائما

عن التفاصيل المعقدة التي لا تهم الا العالم المختص .

فاذا ما سمعته يتحدث خلت نفسك امام مستودع الافكار ،

امام احد هذه المخازن التي لا تجد فيها شيئا نادرا غير أنها لا تفتقر الى

اي نوع من انواع الحطام العادي .. وكل ما فيها رخيص سهل المنال ..

وكان الرسامين علاقة مباشرة به بحكم وطيفته . فكانوا

يتماقون ، ويخافونه وكان هو من ناحيته يقدم لهم خدمات جلي .

كان يهي لهم من يشتري لوحاتهم او ان يقدمهم للجمع فهو يحب

مثل هذا العمل والتظاهر بحمايتهم واطلاقهم في ميدان الحياة الفنية

وكان هؤلاء الفنانون يرون شرفاً عظيماً لهم الانطلاق في المجتمع بهذا الشكل الذي يتيح لهم حضور الولايم الكبيرة والتعرف بالشخصيات المرموقة. كان يدعوهم الى وليمة يقيمها الامير دي غال اثناء مروره بباريس ، ثم يتعشى معهم على مائدة تضم بول ادلمانس واوليفيه برتان وآموري مالدان .

اما برتان فكان صادق المودة له الا انه كان يقول عنه : انه دائرة معارف جول فرن مجلدة بمجلد حمار !»

وتصافح الرجلان وراحا يتحدثان في الموقف السياسي وعن احتمال نشوب الحرب الامر الذي يدعو السيد ميزاديو الى قلق شديد فهو يرى ان من مصالحة المانيا ان تسحق جميع الدول المحيطة بها فالسيد دي بسمارك ينتظر منذ ثمانية عشر عاماً فرصة ليحطم فرنسا. اما اوليفيه برتان فكان يخالفه في هذا الرأي ويزعم ان هذه المحاسوف تخيلات وهمية لا ظل لها من حقيقة فالمانيا بنظره لا يمكن ان تقدم على مثل هذا الجنون فتتقي بكل قواتها في مغامرة لا تعرف لها نهاية ، والمستشار بسمارك اعقل من ان يقدم على مثل هذا العمل الذي يترك ابعاده المماضية في مهب كل ريح خاصة وهو في اواخر ايام حياته

وكان السيد ميزاديو يتظاهر ان لديه اشياء لا يقوى على التصريح بها فهو قد قابل وزيراً اثناء النهار واجتمع بالفرانديك فلاديمير

وهو عائد من (كان) مساء امس .

ولم يزعن الرسام لرأي ميزاديو بل راح ينافح عن وجهة نظره
الخاصة فهو يعتقد جازما ان هذه الضجة التي تثار فارغة لا تحفي تحمها
سوى حرب الاعصاب .

وخلص الى القول : ان ليس احداً سوى بسمارك يمكنه ان
يطلق حكما صادقا لا ريب فيه .

ودخل السيد غيروا وصافح ضيفه بحرارة معتذراً بجمل خطابية
عن تأخره وتركه اياهما بمفردهما .
سأله الرسام :

— وانت يانائبنا العزيز ، مارأيك بما يثار حول نشوب الحرب؟
واندفع السيد غيروا ليخطب . فهو بصفته عضواً في المجالس
يعلم اكثر من سواه رغم انه لم يكن يتفق بالرأي مع زملائه النواب
كلّا فهو لا يعتقد ان نشوب الحرب محتملا في الوقت الحاضر على الاقل
وراح يصور السيد بسمارك بخطوط واضحة قوية ، صورة تذكر
بطريقة سان سيمون ، : ان الناس لا يفهمون هذا الرجل لانهم يحاولون
الحكم عليه بالنسبة الى تفكيرهم الخاص فيعتقدون انه مقدم على فعل
ما كانوا يفعلونه لو كانوا مكانه . فبسمارك ليس سياسيا منافقا بل
هو صادق مستقيم ولكنه قاس . انه يجار دائما بالحقيقة عارية

لا لبس فيها فاذا نادى : اريد السلام . فهو حقا يريد السلام . وكل ما يعمل ببرر ما يقول : ففي تسليحه وفي تحالفه مع الدول بكون وسيلة للسلام الذي ينشده .

واستخلص السيد غيروا قائلاً : انه رجل عظيم . عظيم جداً . ينشد الهدوء للعالم بأسلوبه الخاص : بالهديد والوعيد . وعلى العموم . ايها السادة : انه رجل بربري عظيم .
اجاب السيد ميزادبو :

— الغاية تبرر الوسيلة دائماً . فانا اوافقك على انه ينشد السلام دائماً ولكن عن طريق الحرب . وهنا تبرز لنا حقيقة بينة الخطوط وهي ان الحرب لا تثار الا في سبيل الحصول على السلم .
واعلم خادم : — سيدتي الدوقة دي مورمان !

وبدت بين مصراعي الباب المفتوحين امرأة طويلة قوية البنية تقدمت بخطى ثابتة تم عن سيطره وثقة .

واندفع اليها الكونت وقبل اناملها وسألها :

— كيف انت ايها الدوقة ؟

وحياها الرجلان الآخران بشيء من عدم التكلف ولكن باكبار ذلك ان الدوقة كانت تجعل دائماً حدوداً في حياتها بين رفع الكلفة والاحترام .

والدوقة هي ارملة الجنرال دي مورتمان ووالدة لابنة وحيدة
زوجة الامير ذي ساليا ، وهي ابنة الماركيز دي فاراندال ، ، من ارومة
عريقة عريضة الغنى وصالونها الفخم في شارع فاران تفتح ابوابه لجميع
طبقات المجتمع الارستقراطية الراقى . فلا يمر بياريس صاحب سمو
دون ان يتناول وقعة على مائدة المراكيز . وما ان تسمع برجل ذي
صيت حتى تعتمد الى التعرض له والتحدث اليه والحكم عليه . وهذا هو
المحرك الرئيسي لحياته وفيه كل ما يحتلج في صدرها من رغبات .
وما ان جلست حتى اعان الخادم من جديد :

— سيدي البارون وسيدتي البارونة دي كوربال .

انهما شابان ، البارون اصلح مترهل ، والبارونة رشيقة انيقة
شديدة السمرة .

كان لهذين الزوجين مركز خاص في الارستقراطية الفرنسية
ناجح عن علاقتها الغامضة . فهما من اصل وضيع بالنسبة للنبلاء لذا كانا
مفرمين بكل مظاهر الارستقراطية المتكلفة فهما محدثا نعمة . وقد
عملا جاهدين على مجاراة الوسط الذي فيه يضطربان فهما لا يرتادان
الا البيوتات الكبيرة العريقة متظاهرين بذوق رفيع وميول نبيلة
وتقى واستقامة يحترمان كل ما يحترمه النبلاء ويحترقان كل ما
يحترقونه لا يترددان في ذلك ابداً فيظهر ان نتيجة لتصرفها ذاك

في كثير من الاعين كأنهما زهرتان من زهور المجتمع الراقى . فرأيهما
يشكل ترديداً لما يجب ان تكون عليه الاشياء وحضورهما احد المجتمعات
الرفيعة يسبغ عليهما شرفاً حقيقياً .

وآل كوربال هؤلاء يمتدنون بقرابة للكونت غيروا .
وسألت الدوقة الكونت مدهوشة :
— حسناً اين زوجتك ؟

— لحظة واحدة . ثمة مفاجأة . ستحضر حالاً .

عندما مر شهر واحد على زواج السيدة غيروا قدموها
للمر كيزة التي سرعان ما احبتها وتبذتها واتخذت من نفسها حامية لها .
ومرت عشرون سنة على هذه الصداقة دون ان تؤثر في
قوتها فاذا قالت المر كيزة : (صغيرتي) . فهم انها تعني الكونتس بهذه
الكلمة التي تنم عن تعلق شديد بها . ولديها حدث اللقاء الاول بين
الرسام والكونتس . ودنا ميزاديو من الدوقة وسألها :

— اذهبت الدوقة لمشاهدة معرض « الرسامين الشذاذ (١) »

— كلاً ما هذا المعرض ؟

— زمرة من الفنانين المجددين ، قدموا لوحات كأنها رسوم

(١) تعريب : Intemperants تعني اسلوباً من الرسم خارجاً عن

المألوف نادت به فئة من الفنانين الفرنسيين في اواخر القرن التاسع عشر .

• متوهين او سكارى . الا ان فيها قوة تعبير لا تنكر .

فتمتت السيدة الكبيرة بشي* من الحقد :

— انا لا احب مزاح هؤلاء السادة .

وبدت متسلطة ، عنيفة ، فهي لا تقبل رأياً يخالف رأيها الذى نستوحيه دائماً من مركزها الاجتماعى المرموق . فالفنانون في رأيها وحتى العلماء والكتاب جماعة من الناس مكلفون من قبل الله بالترويح عن المجتمع وتقديم الخدمات له فهمي لا تريد ان تعبر عنهم غير هذا التعبير الذى تقيسه باللذة التي يتنصها لها رؤية لوحة جميلة او قراءة كتاب طريق او قصة اكتشاف جديد .

كانت طويلة قوية ثقيلة الجثة حمراء البشرة قوية نبرات الصوت كانت تظهر بكل مظاهر العظمة في قولها وتصرفاتها . مستعدة لحماية كل من يلجأ اليها حتى الملوك المخلوعين وهي تتقرب من الله دائماً بكرمها الفائض على رجال الدين ومنحها للكنائس . وعاد ميزاديو يقول :

— اتعلم الدوقة ان قاتل ماري لا مبورج قد اوقف ؟

فسألته حالاً كأن لها في الامر مصلحة :

— كلاً لم يتصل بي ذلك . هات حدثني به :

وراح يروي لها التفاصيل . كان مديد القامة ، بالغ النعافة يرتدي صدرية بيضاء تزينها جواهر تقوم مقام الازرار ، كان يتكلم

دون اشارات ، بلهجة واضحة الكلمات كأنما هو صاحب اختصاص
يتكلم ضمن دائرته . كان قصير النظر يظهر رغم عويناته كأنه
لا يرى احداً من الحضور وعند ما عاد يجلس خيل للناظرين ان مجموعة
عظام جسمه تنحني وتكيف حسب شكل المقعد . فكان عموده
الفقري . مصنوع من كوتشوك ، وساقاه المتصالبتان ظهرتا كشرطين
طويلين ملتفين وذراعاها المتبدلان على جانبي المقعد ينتهيان بكفين
شاحبتين لهما اصابع ، فرطة الطول . وشعره وشارباه المصبوغة بطريقة
فنية تتدلى منها خصائل مهيمة ينضأ على كتفيه بشكل بشير شيئاً من
التفككة المتأداة .

وراح يشرح للدوقة كيف ان حلي ابنة الهوى القليل قد
قدمت هدية من قبل القائل الى غانية اخرى . وفتح الباب في هذه
ال لحظة من جديد وعلى مصراعيه ، ودخات سيدان بزي من الدتيل
البيضاء ، كانتا متشابهتين كأنهما اختان من سنيين مختلفين ، احدهما
بالغة النضوج والثانية رطبة العود ، الاولى متينه التركيب ، والاخرى
مفرطة النحافة . . كانتا تتقدمان وقد تخاصرتا مبتسمتين .

وانار دخر لهما عاصفة من التصفيق والهتاف . فلم يكن احد
غير اوليفيه يعلم بججي آتيت ، وظهورها بصحبة امها كان مفاجأة
سارة حقاً : كانتا جميلتين بل تكادان تتعادلان جمالاً فالام كزهرة

شديدة التفتح - احدة الاربع ، والبنت ما تزال برعماً يستعد للتفتح
واستقبال نور الحياة . انهما رائعتان . واخذت الدوقة تصفق بيديها
بالغة السرور :

— الهى . انهما ساحرتان ما اجمليهما الواحدة بالقرب من الاخرى
انظر ايها السيد ميزاديو كم هما تشابهان !
وبرر رأيان فوراً . زعم ميزاديو وآل كوريل والكونت
غيروا انهما لا تشابهان الا في لون البشرة والشعر وخاصة العيون التي
كانت فقط واحدة لدى الاثنتين بما فيها من بقع سوداء دقيقة كانها
نقط الحبر فوق الحدقة الزرقاء . ولكن الفتاة عندما تبلغ سن النساء
فلا شك في انهما ستختلف كل الاختلاف عن امها .
اما الدوقة واوليفيه برتان فزعمتا انهما متشابهتان في كل شئ
ولولا اختلاف السن لما عرفت احدهما من الاخرى .
قال الرسام :

— كم تغيرت في هذه السنوات الثلاث ! اني اكاد انكرها
بل لا اجرؤ على مخاطبتها بصيغة المفرد .
واخذت الكونتس بالضحك :
— آه كم اود مثلاً ان اسمعك تخاطب آنت بصيغة الجمع .
وقالت الفتاة :

انا للتي لا اجرؤ على أن اخاطب السيد برتان بصيغة الافراد .

وابتسمت امها :

— احتفظي بهذه المادة المذمومة فانا اسمح لك بذلك فهي

تساعدك على توطيد اواصر الالفة .

وقالت آنيث وهي تحرك رأسها :

— كلا كلا . ان هذا لما يزعجني .

وعانقتها الدوقة وراحت تفحصها فحصى العارفة المهتمة :

— انظري الي يا صغيرتي . ان لك نفس نظرة امك . ستكونين

حسنة بـمد وقت قصير عندما تتعلمين كيف تسوين هندامك .

يجب ان تسمني ، ليس كثيراً ، انك هكذا شديدة النحول .

وهفت الكونتس :

— آه . لا تقولي لها هذا .

— ولم ؟

— ليس من دواعي السرور ان يكون المرء فيلاً ! ها انا

اودان انحف

غير ان السيدة دي مورتان احدثت حتى انتم احدهما وجود

فتاة صغيرة :

— آه انكن دائماً تفضلن الهياكل العظمية لأن الثياب

ننسجم فوقها اكثر من الجسم المكنن اما انا فمن اصل كله غدير
الشحم ! امّا اليوم فالزي هو النحول . . . النحول الذي يذكّرني ببقر
مصر . . . وانا لا افهم الرجال الذين يعجبون بها كلكن العظمية . .
اما في ايامنا فكانوا يبتغون ما هو اجدر بالاهتمام .

وصمتت وقد علت الابتسامات كل الشفاه :

— انظري يا صغيرة . ان امك على احسن حال هكذا :

تشبهي بها .

وانتقلوا الى غرفة المائدة وما ان استقر بهم المجلس حتى عاد
ميزاديو الى اثاره النقاش باسطاً وجهة نظره في انه يفضل ان يكون
الرجل نحيفاً ليتمكن من القيام بكل عمل امّا الشأن مع النساء فمختلف . .
واحتدم النقاش من جديد وراح كل يبسط رأيه حول هذا
الموضوع الذي بدا لهم عظيم الخطر وكانت المركة دأماً تدافع عن
السمنة بينما انحازت زوجة كوريل الى صف ميزاديو وتبمها زوجها . .
ثم تطور الجدل الى الطرق الفعالة لازالة السمنة وتشعب
الحديث شتى .

وكان برنان حتى تلك اللحظة صامتا : فاستحثته المركة بان

طلبت اليه ابداء رأيه : قال :

— آه ياسيدي . اني رسام ولا ارى كبير اهمية في مثل هذا

الموضوع أمّا لو كنت مثالا لكان موقفي مختلفا ...

— ولكن انا اسالك كرجل ... فماذا تفضل ؟ .

— انا ... افضل قواما رشيقا معتدل الاكتناز او كما نقول

طا هيتي :

دجاجة رطبة مليئة ... ليست صميئة بل مكنتزة وناعمة .

وقد اثار تشبيهه الضحك ولكن الكونتس نظرت الى ابنها

وقالت :

— لا تصدقي . انه لما يسر ان تكون المرأة نحيلة فالتحيلات

لا يدركهن الكبر .

وكانت هذه الملاحظة ماثار نقاش جديد الا ان الكل اجمعوا

على صواب نظرة الكونتس . فلا شيء يجعل بالشيخوخة كالسمنة .

ثم راحو كنتيجة لهذه الملاحظة يستعرضون الكثيرات من

نساء الطبقة الراقية متخذينهن كامثال وشواهد .

وكان اوليفيه جالسا بالقرب من آنيث فاستدار وقال لها :

— اصفي اليّ يا نانيت .. ان ماتسمعيه الآن سيصك اذنيك

مرة او مرتين كل اسبوع على الاقل حتى ينتهي بك الامر الى حفظه

عن ظهر قلب وخلال اسبوع واحد ستعرفين كل ما يدور في المجتمع

من احاديث : النساء ، والمسارح الخ .. ولا يبقى الا ان تغيري

الانتهاء من آن لا آخر حتى يتاح لك الخوض في كل حديث...
ورفعت اليه الفتاة عينين خيشتين يكمن فيهما ذكاء حاد في طور
التكوين. وظل ميزاديو والدوقة يتبادلان النقاش كما يتبادل اللاعبان الكرة
دون ان يفظنا الى ان افكارهما تدور في فراغ لتعود الى اللقاء من جديد .
وحاول برنان ان يثبت نظريته القائلة ان الناس ، وحتى اكثرهم
ثقافة وذكاء ، لا يحاولون استعمال مواهبهم الا قليلا في سبيل الاشياء
النافعة في الوقت الذي يصرفون فيه طاقة هائلة في توضيح اشياء نافهة
لا طائل تحتها وليس فيها غناء... وراح يبرهن ان ليس في مثل
هؤلاء شيء من العمق في التفكير وان ثقافتهم تصبح عديمة الفائدة
بقوة الاستمرار على اجهادها في ميادين عديدة النفع نافهة الغاية...
ان هؤلاء يعيشون وكأنهم اموات ، فهم لا يتقنون تذوق الجمال
ولا ادراك الخير والحق . انهم يجهلون كيف يتمتع الانسان بالسعادة
او برؤية الطبيعة او بجمال الفن . انهم لا يعرفون تذوق الجمال لانهم
لم يألّفوا النشوة التي يخلقها في نفوسهم . وهم غير خليقين بحب مجرد
لانهم لا يستطيعون الاخلاص الذي يتطلبه هذا الحب .
وتطوع البارون دي كوربال للدفاع ضد وجهة نظر برنان...
غير ان منطقتهم كان ضعيفا متهاافتا نهافت الثلج امام النار في
الوقت الذي ظنه من القوة بشكل لا يحتمل جدلا او ردا

واعتصم برتان بالصمت في اول الامر ثم راح يرد على خصمه
راسما صورة رجل من هذه الطبقة التي عنها بانتقاده :

صور هذا السيد في الصباح ووصيفه يساعده على ارتداء ثيابه
ثم يأتي الحلاق فيروح يحدنه احاديث عامة عادية وتأزف ساعة النزهة
فيخرج بعربته ويروح يسائل السائس عن صحة الجياد ثم يسير في مجاشي
الغابة وغايته الوحيدة ان يحبى ويتلقى التحيات . ثم يجلس الى المائدة
مع زوجته ويخرجان بعد الغداء في عجلة فلا يحدثها الا ليعدد اسماء
الاشخاص الذين يمرون بهم ، وفي المساء يتنقل من صالون الى صالون
ثم يتعشى مع احد الامراء ليصغي الى نقاش يدور حول سياسة اوربا
ثم ينتهي به المطاف في احد مرافق الاوبرا حيث يتابع ببصره الخجول
الراقصين والراقصات مكثفيا بوجوده في مثل هذا المكان .

كانت الصورة صادقة مثيرة للضحك ولم تكن لتجرح احداً
من الحاضرين حتى ان ضحكة دارت حول المائدة التي يجلسون اليها .
ولعل الدوقة هي الوحيدة التي احست شيئاً يخز قلبها غير انها

قالت :

— هذا شيء غريب جداً . اني اكاد اموت ضحكا ..

فاجابها برتان : —

— انا لا اخشى على احد منا الموت ضحكا لاننا نحن لا نعرف

كيف نضحك واذا ضحكنا كان ضحكنا متكلفا ككل عمل نفوسهم .
به . اذا شئتي ان تعرفي اين يضحكون حقا ومن اعماق افئدتهم فاذهبي
الى المسارح الشميه ، اقصدي المجتمع البرجوازي خالطي الجنود في
حجراتهم ... واما صالوناتنا ففيها لا يضحكون .. فهم ينظرون
بكل شيء حتى بالضحك .

وقاطعه ميزاديو :

— اتسمع .. انك قاس ياسيدي .. انك انت نفسك لا
تحتقر هذا المجتمع الذي توجه اليه لو اذع نقدك .

وابتسم برنان وقال :

— اني احبه !

— اذن ماذا تقعد ؟

— ولذا فانا انتقده .

وعقبت الدوقة :

— كل ما يقوله برنان هو من باب العرض .

ثم انقلب الحديث نقاشا عاما هادئا حيبا وراح الكل
يشتركون في ابتداء الاراء ولما كانت الوليمة قد او شكت على
الانتهاء هتفت الكونتس فجأة :

— انا لم اشرب حتى الآن قطرة واحدة . ها هو كاشي .

فلتشرب وسأرى اذا كان ذلك يزبل السمنة .
وثارت الدوقة وحاولت ان تحبر الكونتس على ان تشرب شيئاً
من الماء المعدنية ولكن هذه لم تذعن لها فصاحت بها :
— يا للجنون . . . حسناً سترين كيف ان ابتك ستهزأ بك
يوماً . ما ايها الكونت عليك ان تمنع زوجتك بالاقلاع عن هذا الجنون
ولم يسمعها الكونت لانه كان منهمكاً في شرح فكرة الآلة
الدارسة الميكانيكية التي اخترعت في اميركا .
ونهضت الكونتس وقد قدمت ذراعها لجارها واعطى
الكونت ذراعه للدوقة وانتقل الجميع الى الصالون الكبير . . .
وفي الحجرة الفسيحة المنيرة المزينة جدرانها الاربعة بسجف
من الحرير الازرق الشاحب المزخرف الحواشي بخطوط ذهبية وينضاء
كانت النور الفامر يقفي على كل شي فيها رونقاً ورواءاً . وتصدر
الصالون صورة الكونتس التي ابدعها ريشة اوليفيه برتان حتى لكأنها
تنشر سحرها في الجو فتعشش المكان وتنبث فيه حيوية ونشاطاً . كانت
حيث يجب ان تكون ، تشع ابتسامتها العابقة سنى وجمالاً فكانها
تنشر في هواء المكان فيضاً من سحرها الفتان ، سحر المرأة الشابة
الحسنة . ان هذه اللوحة واجبة الوجود في هذه الحجرة . وكما ان
الكنيسة لا تخلو من صليب يتصدرها هكذا كانت تبدو صورة

الكونتس في صدر الصالون الفاخر .

وكان كل من يراها يكيل الثناء للريشه التي ابدعتها .
ولم يفت ذلك ميزاديو مرة واحدة . فان لرأيه قيمة كبرى
بصفته خبيراً بالفنون من لدن الدولة وكان يهجه ان يقول دائماً بالهجة
العارف المقدر لكلامه :

— حقاً أنها اجمل لوحة رأيتها . ان فيها لحياة سخابة ماثرة .
اما الكونت فقد خلقت فيه كثرة امتداح هذه اللوحة شعور
من يملك اطروفة كبرى من طرف الفن . فمكان يستوعب تباعاً
كل ما يقال في امتداح اللوحة والثناء على الريشة الخلاقة .

وارتفعت كل الاعين تستجلي معالم اللوحة الجميلة ، فلم يكن
اوليفيه برتان ليعلق كبير اهتمام على مثل هذه المظاهر الاطرائية فقد
اعتادتها اذناه ايما اعتياد لدرجة ان اضحت بالنسبة اليه كالمسؤول العابر
عن الصحة الذي يلقيه صديق عابر يصادفك في الطريق . وكل ما فعله
أن ادار السراج الكشف نحوها وكان الخادم قد وضعه جانباً باهمال .
ثم جاسوا . وكان الكونت يجاور الدوقة التي راحت تحدثه
قائلة :

— اعتقد ان ابن اخي سيأتي ليصطحبني وقد يشرب لديكم
كاس شاي .

كان لهما رغبان منسجمتان كل الانسجام منذ فترة طويلة
ولكن دون ان يصرحا بشيء من ذلك حتى ولا بالتاميع .

وكان اخ الدوقة المركيز دي فار ندال قد مات متأسراً
بستوطه عن ظهر جواده بعد ان دمرته المقامرة خلفاً ارملة وولداً .

وبلغ الولد الثامنة والعشرين من عمره وكان يقوم بسياحات الى
فينيا ولندن ليحضر احتفالات ومراقص ملكية ، وقد كاد يكون
دون ثروة غير انه حافظ على مركزه الاجتماعي بماله من عرافة الاصل
وصلات الرحم مع الاسر المالككة والنبيلة وبقي في باريس ذلك الرجل
المرغوب فيه .

وكان هذا المركز الاجتماعي لئله هذا الشاب شيئاً لا
يستهان به ولم يكن عليه سوى ان يحصل على الثروة بالزواج من
فتاة غنية فيتاح له ان يصبح نائباً بل قد يحلم بان يكون اقرب المقربين
الى العرش في المستقبل وربما غداً مستشار الملك العنيد او احد زعماء
الاحزاب .

وكانت الدوقة قد حصلت على المعلومات الصادقة عن ثروة
الكونت دي غيروا الذي يعيش ببساطة في شقة عادية في الوقت الذي
يستطيع ان يعيش في افخم قصور باريس وهي تعلم كل العلم ما ينطوي
عليه الكونت من طموح ، وهي التي لا تقل عنه طموحاً كانت

تحلم بان تزوج ابن اخيها من ابنته فثقل هذا الزواج يهوى لها شهرة واسعة في الاوساط الارستوقراطية ، وغيروا الذي تزوج هو طلباً للثروة اضحت له احلام اخرى .

انه يؤمن بعودة الملكية و ينبغي في حال تحقق ذلك ان ينال الحظ الاوفر .

فما هو الآن سوى نائب عادي ، فما ان يصبح حمي المركز دي فاراندال المتحدر من اسرة تربطها صلة رحم بالبيت المالك الفرنسي حتى يثب من جراء تلك القرابة الى القمة .

وكان كذلك بعلق كبير اهمية على صداقة الدوقة لزوجته تلك الصداقة التي تضي على هذا الزواج معنى حمياً . لكل هذه الاسباب ، وخوفاً من ان يصادف المركز فتاة اخرى تروق له ، عجل الكونت باحضار فتاته لبحث تحقيق الحلم المنشود .

ولم تخف هذه المشاريع على فطنة الدوقة التي كانت تنظر اليها نظرتها الخاصة وبالرغم من انها لم تكن لتعلم بحضور الفتاة المفاجيء الا ان ذلك لم يمنحها من الابعاز الى ابن اخيها بالحضور كي يمتاد شيئاً فشيئاً ارتياد هذا البيت .

وللمرة الاولى كان حديث الكونت والدوقة مكشوف الاغراض وقد افترقا بعد ان ابرما اتفاقاً حول هذه الامور .

وكان الباقون منهمكين في طرف الصالون بالمزاح والضحك .
السيد ميزاديو يحدث البارونة دي كوريل عن قدوم وزير
مفوض زنجي الى باريس ونقـديم اوراق اعتماد لرئيس الجمهورية .
عندئذ اعلن الخادم قدوم المـركيز دي فاراندال .

وظهر على العتبة وتوقف . وبحركة طليقة ركـز نظـارة
مفردة على عينه اليمنى كأنه يود استكشاف الصالون الذي باج ، او
ليتيح للحضور فرصه تأمله والالتفات اليه . وبحركة غير ملحوظة من
خده وحاجبيه ترك النظارة تسقط حتى طرف الخيط الحريري الاسود
المعلقة فيه وتقدم بخطى رشيقـة الى مدام غيروا فقبل يدها الممدودة اليه
مرفقاً ذلك بحركة انحاء شديدة . وفعل ذلك بممته ثم استندار الى
الحضور فصافحهم واحداً واحداً برشاقة ملحوظة .

كان طويل القامة ، اشقر الشارب ، قد لعب الصلع برأسه
قليلاً ، وكان يبدو بثوب الضابط الذي يرتديه شبيهاً برياضي الانكليزي
كان يخيـل الى الناظر اليه ان كل عضو من اعضاء جسمه اشد نـمواً من
رأسه ! وانه لا يمكن ان يكون له ميل لغير الاشياء التي تنحصر في
القوة الجسمية . غير انه كان ذا ثقافة لا بأس بها فهو قد درس وما
زال يدرس كل شيء تفيد معرفته في المستقبل : فهو يهتم بالتاريخ ملقاً
كل الـاهمية على تواريخ الوقائع ضارباً صفحاً عن العبر والدروس التي

يمكن ان تستخلص من ذلك . كما انه قد درس شيئاً من الاقتصاد
السياسي الضروري لثائب وشيئاً من العلوم الاجتماعية حسب مقتضيات
مجتمعه النبيل .

وكان ميزاد بو يحمل له تقديراً ويقول : « سيكون رجلاً ذا
خطر » امّا برتان فكان يقدر فيه قوته الرياضية . فكانا بقصدان
نادي الصيد وكثيراً ما كانا يلتقيان وهما على جواديهما في مماشى الغابة
فتولدت بينهما الفة شخصين يميلان الى ذات الشيء ، هذا النوع من
(النزعة البنائية الحرة (١)) الغريزية التي يخلقها بين شخصين حدث
هابر بشير في احدهما الاهتمام الذي بثيره في الآخر .

وعند ما قدموا آتيت للمركيز . انحنى لها وراح يتأملها بعين
الاعجاب وكأنه احس بما تبئت له عمته .

ووجددها جميلة كامنية عذبة ، لانه كثيراً ما عرف فنيات
كان يتنبأ صادقاً عما ينتظرهن في المستقبل من شهرة كجميلات وقلم
كان يخطي شأنه شأن الخبير الذي يتذوق خمرة حديثة فيحكم على
جودتها اذا ما غتقت .

وتبادل معها بضع جمل لامننى لها ثم جلس الى قرب البارونة
دي كوريل ليتاح له ان يثرثر معها بصوت خفيض .

(١) تعريب Framaconerie

ولم تطل بهم السهرة ، وبعد ان خلا المكان من الجميع ، وانصرفت الفتاة الى فراشها اطفئت الانوار وصعد الخدم الى حجراتهم ، مكث الكونت في الصالون الذي لم يزل مناراً بشمعتين ، وراح يمشي جيئة وذهاباً ، وقد طلب الى الكونتس ، التي ذهها النعاس ، ان تظل فوق مقعدها ، وراح يشرح لها آماله ويحلل اراءه ويناقش كل المواقف التي قد تقضي مواجهتها في المستقبل وكل ما يجدر ان يتخذ من حيلة وحذر .

ولم ينسحب الاً بعد ان تقدم الليل ، شديد الزهو بهذه السهرة ، وتتم وهو يخرج الى غرفته :

— اغلب ظني ان هذا الامر اضحى بحكم الواقع ..



« متى سنأتي يا صديقي ؟ فما قد مرّت ايام ثلاثة دون ان نمكثل عيناى برؤيتك ! كم بيدولى ذلك طويلا ! ان ابنتى تشغل معظم وقتى غير انك تشق بانى لا اطيق لك فراقا . »

واعاد الرسام ثلاثة بطاقة الكونتس، وكان يرسم بالقلم بعض اللوحات باحثا دائما عن موضوع حديد ، ثم فتّح درجا سرىا والقى بالبطاقة ، فيه فوق كومة من الرسائل المتجمعة منذ بدء علاقتها .

وكانا قد اعتادا ، بفضل علاقات المجتمع ، ان يلتقيا كل يوم . ومن وقت لآخر كانت تزوره في مسكنه فتجلس ساعة او ساعتين فوق المقعد وهو منهمك في عمله غير أنها كانت تخشى لفت الانظار وملاحظات الخدم ولذا كانت تفضل ان تلتنقى به في بيتها او في صالون آخر .

ولم تكن علاقتها بنظر الزوج تخرج عن كونها علاقة طبيعية خاصة وهما يتظاهرا ان امامه بشيء من الفتور الواحد حىال الآخر .

وكانت الكونتس تدعو عشيقها الرسام مرتين بالاسبوع على الطعام . وكل يوم اثنين كان يمر بها في شرفتها بالاوبرا فيحييها ويأخذ منها موعداً للقاء في مكان ما . وكثيراً ما كانا يلتقيان بمجرد الصدفة . وكان يعرف الايام التي تخرج فيها فكان يوم تكون في البيت يمر بها فيتناول كأساً من الشاي لديها ويمكث متمتماً بقربها بعض الوقت يبادلها الاحاديث والملاحظات وبالرغم من ان سوزة هواه كانت منذ مدة طويلة قد خبت، الا انه كان يشعر بحاجة لرؤيتها لا تقاوم .

كان الشوق الى بناء حائلة يداور قلب اوليفيه دون هوادة : انه يحلم بالبيت الزوجي الهادي ، بالحياه المائليه العذبة ، بتناول الطعام مع رفيقه ، ترافقه وتحذنه فلا يحس تعباً ، كانت هذه الرغبة القابضة في اعماق كل قلب بشري قد عرفت طريقها الى النور في قلب اوليفيه برنان وقد اقترب من الكهولة ، . . انه يحلم بهذا البيت الذي فيه يعرف طعم الراحة والهدوء ، والذي فيه تدلله امرأة وتحمل اليه الاستقرار والسكينة والسلام .

لقد مرت به ثلاثة ايام لم يَرَ خلالها اصدقاءه فقد شغلهم مجي ابنتهم كثيراً ، وكان قد بدأ يضجر بل لقد تقم على نفسه كيف لم يسمح له تكتمه بالتصريح برغبته هو الآخر بجيئها قبل الجميع .

لقد كانت رسالة الكونتس ضربة سوط اقامته واقعدته وجعلته
يهم فوراً بالذهاب اليها قبل حلول ساعة خروجها لأن الساعة كانت
الثالثة بعد الظهر عندما استلم الرسالة .

وحضر الوصيف الذي استدعاه بقرعة جرس وسأله :

— كيف الجو يا جوزيف ؟

— جميل جداً يا سيدي

— اهو حار .

— اجل يا سيدي .

— هات صدرتي البيضاء وسترتي الزرقاء والقبعة الرمادية
كان شديد الاهتمام بهندامه فهو لا يبدو الا انيقا ، فكل
ثيابه تحاط عند امهر الخياطين ومع ذلك فهو ، يبطنه الملتف بصدرته
البيضاء ، وقبعته العالية الرمادية المائلة قليلا الى الوراء لا يفرب عن
الادراك انه فتان عريق .

ولدى وصوله بيت عشيقته قيل له انها تستعد للخروج في نزهة الى
الغاية ، فساءه ذلك واقام ينتظر .

وراح يمشى كمعادته جيئة وذهابا ، منتقلا من نافذة الى اخرى
ومن مقعد الى آخر غابراً تلك الحجره الفسيحة المعتمة بالسناثر المسدلة .
وكان فوق المائدة المذهبة للقوائم حشد من تماثيل ودمى

لا جدوى منها ، لكنها جميلة غالية الثمن ، كل ذلك في فوضى محببة .
وكان اوليفيه ، الفينة بعد الفينة ، يمس دمية من تلك الدمي التي
قدمها بنفسه في أعياد ميلاد عشيقته ، فيقلبها بين يديه ثم يتفحصها بعدم
اهتمام حالم ويميدها الى مكانها .

وفي احدي الزوايا يقوم رف على ساق واحدة يحمل كنباً
قلما فتحت مجلدة تجايداً فخماً ، وبالقرب من الرف مقعد مستدير ، كما
كنت ترى على الرف نفسه مجلة (العالمان) مشوشة كأنها قد نليت
مراراً ومجلات اخرى لم تقض صفحاتها بعد كمجلة (الفن الحديث)
التي يجلبونها في هذا البيت لمجرد نشرها المسابقات الفنية والجوائز
المنوحة ، ذلك أنها غالية الثمن تكلف اربعماية فرنكاً في العام . . كما
كانت هناك « الصحيفة الحرة » الهزيلة ذات الغلاف الازرق والتي
تفتح صدر صفحاتها لنفر من الشعراء المجددين يطلق عليهم « العصبيون »
ويقوم بين النوافد مكتب الكونتس من طراز القرن الماضي
الجميل الذي تستعمله لكتابة خطاباتهما . وكان هذا المكتب يحمل مؤلفات
عدة : كالكتب العائلية التي تنقف العقل والقلب : موسى ، مانون
ليسكو ، فيرتر ، ولثلا يظن بها عدم اكتراث بالمسائل البسيكولوجية
كان فوق مكتبها : « ازهار الشر » « الاحمر والاسود » « المرأة في
القرن الثامن عشر » « وادولف » .

وبالقرب من هذه المجلدات بلاحظ المرء مرآة يدوية الصقت
زجاجتها فوق قطعة من الخمل المربع مطرزة ويداخلك الاعجاب اذا
تأملت ظهرها الذي يحمل نقوشاً غريبة من ذهب وفضة .

وتناولها برتان وراح بتأملها او يتأمل نفسه فيها : لا شك في
انه قد اكتمل في السنوات الاخيرة بشكل مربع ، وبرغم اعتقاده
بان وجهه اضحى ابلغ تعبيراً منه فيما مضى الا انه بدأ يشعر بالم حقيقي
من جراء هذين الخدين المترهلين وهذه البشرة المجمدة .

وفتح باب خلفه : نهاركم سعيد يا سيد برتان

— نهارك سعيد يا صغيرتي ، كيف انت ؟

— على احسن حال . وانتم ؟

— ما ذا لم لا تخاطبيني بصيغة المفرد ؟

— ان ذلك يزعجني في الواقع . .

— دعيك من هذه الاوهام

— ان ذلك يزعجني حقاً . انكم تخجلوني .

— ولم ؟

— لانكم . . . لانكم . . . لستم في سن الصبا ولا في سن

الشيخوخة . . .

— امام هذا المنطق يجدر بي ان اظل صامتاً .

وصعد الدم الى وجهها حتى غدت بشرتها حمراء من قمة رأسها
الى اخصصها.

وقالت: لقد كافتني امي ابلاغكم انها آتية حالاً . وهي تدعوكم
لمرافقتنا الى غابة بولونيا اذا شئتم

— بكل تا كيد . . ولكن أأنتم ذاهبون بفردكم ؟

— كلاً مع الدوقة دي مورمان .

— حسناً . . سأرافقكم

— اذن انتم تسمحون لي بالذهاب لارتداء قبعتي ؟

— هيا . . يا طفلني . .

وما ان خرجت حتى دخلت الكونتس وقد تبرعت استعداداً

للخروج ومدت اليه يديها :

— ما الذي شغلك عنا ؟

— لم اشأ ازعاجكم في مثل هذا الوقت .

— او ليفيه !

قالتها بلهجة فيها العنب المر والتعاق الوثيق فتأثر بلهجتها تلك

وهي تلفظ اسمه

وقال : انك خير نساء العالمين !

وهكذا انتهى هذا النزاع الصغير بين القلبين وراح المشيقان

في حديث المجتمع المعتاد :

— سنمر بالدوقة لنقوم سوية بجوله في الغابة . يجب ان ترى
بآ نيت ذاك المكان : وكانت العربية تنظرهم امام الباب .
وجلس برتان في مواجهة المرأتين وراحت العربية تجري يحيط
بها ضجيج حوافر الجياد تقرع ارض الشارع تحت القنطرة المرجمة
للصدى .

وفي الشارع الذي يؤدي الى المادلين كان الربيع الوليد يبدو
كأنه هابط من السماء فوق الكون . والهواء الدوافي كان يهيج
الرجال ، وبوحي الى النساء بالحلب ، وكان الصبية الصغار قد الققو
سلامهم فوق الارضفة واندفعوا يلعبون مع مربدين مع اقرانهم ...
ولم يكن سوى جوادي العربية مندفعين وقد ظهر العناء واضحاً في
حركتهما ...

وهتفت الكونتس : — يا لليوم الجميل .. يا لروعة الحياة !!
وراح الرسام يدقق النظر بالام والابنة وهما مغمورتان بالنور
العظيم ، نور الربيع . كانتا مختلفتين ولا شك . الا انه لم يكن ليغرب
عن الذهن ان احدهما متممة للآخري ، في عروقها دم واحد ،
تضطرب فيهما حياة واحدة . وعيونها بشكل خاص . تلك العيون
الزرقاء المرقطة ببقع سوداء صغيرة .. كانت متشابهة تماماً لو لم تكن

الزرقة لدى الصبية صافية نيرة ولدى الام حائلة قليلا : .. كانت الاعين
الاربعة تلك تدنو اليه بنفس النظرة الساحرة . واذا ما خاطب احداها
انتظر ان يسمع الجواب الذي يسمعه من الاخرى . وقد لاحظ وهو
يجاذبها الاحاديث والنكت انه امام امرأتين احداها قد شبعت من
الحياة .. والثانية لم تجرع بعد جرعتها الاولى ... كلات فهو لا يستطيع
التنبؤ بما ستكون عليه هذه الفتاة بعد ان يستدير تفكيرها وينمو
ذوقها وتواجه خطوط الحياة . انها شخص صغير جديد يستعد لمواجهة
الاقدار والاهواء ... انها جاهلة بمجولة .. كسفينة تنهيا لرفع مراساتها
والخروج من المرفأ بينما امها تعود اليه بعد ان طوفت في آفاق الوجود
... فقد عرفت الحب ...

وقد احس هدواً لدى تفكيره بانه هو الذي اختار هذه المرأة
الجميلة دائماً المتأرجحة في هذه المربة تدغدغها هبات نسيم الربيع
الدافئة .

وشعر كأنها تدرك ما يجول بخاطرهم وتشكره اعترافاً بجميله
بحركة غير منظورة ولا مقصودة .

وتنعم بدوره ...

— ياله من نهار جميل .

وعند ما صرخوا بشارع فارين واصطحبوا الدوفة مهمهم اتجهوا

نحو الأنفاليد فاجتازوا نهر السين وبلغوا الأليزاً ثم صعدوا نحو قوس
النصر في ساحة النجمة وسط سيل من العربات .

كانت الفتاة جالسة بالقرب من أوليفيه منطوية على نفسها وهي
تحقق هذا السيل من العربات بعينين ساذجتين مهمتين ومن وقت لآخر
كانت الدوقة والكونتس تتلقيان تحية قصيرة فتسألها . . من هؤلاء
فكان يذكر لها الاسماء .

وساروا في منزله غابة بولونيا في ضجيج من حركة العربات
ولم يكن الازدحام شديداً مثله بالقرب من قوس النصر فكانت جميع
أنواع العربات تمر في استعراض لا ينتهي وبين الفينة والأخرى كانت
تعبّر مركبة سريعة من طراز فيكتوريا فنزق الصفوف وقد استوت
فيها امرأة فنية ذات زي جري تسحب خلفها رائحة غريبة كأنها عطر
ازهار مجهولة .

وسألت آنيث . . من ترى تكون هذه السيدة ؟

فاجابها برنان : لست ادري .

وقد تبادلت الدوقة والكونتس ابتسامة وامضة .

كانت البراعم قد تفتقت والبلابل تنشد اغانيها في هذه
الحديقة الباريسية المغمورة بخضرة وليدة وعند ما بلغوا البحيرة كانت
العربات متواصلة وكان عليهم ان يردوا على التحيات التي لا تنتهي

والابتسامات المتبادلة . فكان راس الدوقة لا يفتأ ينحني في كل لحظة
امام قبعات ترفع وجباه تنحني كأنها في استعراض .
وقالت مخاطبة آ نيت :

— أنظري يا صغيرتي هذه مدام موند يلير اجمل نساء الجمهورية
كانت هذه الجميله تجاس في عجله خفيفة بالغة الجمال معطرة
بجمالها الذي لا يزاحم بينك العينين المظلمتين تحت جبهة يتوجها شعر
قائم وفيها العنيف الصارم . قال برتان حقاً انها لرائعة . ولم تجب الكونتس
لأنها لم تكن تحب ان تسمع برتان يتمدح جمال امرأة اخرى وقالت
الفتاة وقد استيقظت في نفسها فجأة غريزة العدا . .

— اني لا ارى شيئاً من جمالها .

فاستدار اليها الرسام قائلاً . .

— ماذا ؟ انت لا تجدينها جميلة ؟

— كلاً كأنني بها قد غمست بالخبر .

وضحكت الدوقة معجبة وقالت :

— احسنت يا صغيرتي . فنذ ست سنوات ونصف ورجال

باريس يرغون الجباه امام هذه الزنحية . ربما كانوا يهزؤون بنا لو سمعوا
ما تقول انظروا هيذي الكونتس لو كريست .

كانت وحدها في عربتها مع كلب اينض والكونتس سيده

نحيلة فكأنها الشيع، شقراء ذات عيذين رماديتين دقيقة التقاسيم وقد
كانت منذ خمس أو ست سنوات مبعث الهام الشعراء من مواطنيها،
وحيثهم بابتسامة مثبتة فوق شفها .

غير ان اينث لم تبد شيئاً من الاهتمام بها وقالت .

— آه انها لم تعد طرية العود .

ولم يكن برآن ليهم بمثل هذه الاحاديث بيد انه كان يستاء
من مثل هذه البد واث الصبانية . قال :

— ان الجمال نسبي مع مبالغ الحب فاجابته الدوقة دعنا المك لا نفهم

النساء الا بعد ان يجتزئ الثلاثين . ان الحق بجانب هذه الطفلة واغاب
الظن انك لن تعجب بمجالها الا بعد ان تذبل نضارتها . فاجاب بحدة ..

— ان المرأة لا تبدو جميلة الا بعد ان يكتمل نضوجها .

وراح يوضح فكرته بان الجمال المبكر ليس سوى طلاء للجمال

الناضج فهو لا يلوم الرجال قليلي الاهتمام بالنساء الفتيات فهو لا يسم

المرأة بمنسم الجمال الا عندما توشك نضارتها على الاندثار .

وقالت الكونتس مزهوة بفكرته :

— ان الحق ما قال فهو يحكم كفنان . كلام جميل ! ان الوجه

الشاب يكون دائماً سخيلاً لا معنى له وتابعت الكونتس موافقة على

كل كلمة يقولها وكان هو يتكلم بطلاقة محام يدافع ممبراً عن فكرته

بإشارات من رأسه ويديه ، ولم تكن آمنت تصغي اليه فهي . مستغرقة
في مشاهدة ما يحيط بها من حركة وحيوية . . فهذه الشمس والخضرة
والعربات ، هذه الحياة الفنية المرحية . . كانت كأنها كلها ملك لها . . .
ان بإمكانها ان تأتي كل يوم ، وان تعرف بالناس ، وتلقى
التحيات ، ولا شك في ان الرجال الذين سيشاركونها سيقولون عنها
انها جميلة .

وكان اهتمامها مقتصرًا على النساء الحسنات والرجال ذوي
الشارة فكانت تسأل عن اسمائهم فتطرب لهذه الاسماء الرنانة والالقاء
الفخمة التي كانت تعرفها بالجماع ومن قراءة القصص والصحف .
وخيل اليها انها تعيش في حلم . امّا العربات فهي تزعجها ايما ازعاج
وكثيراً ما كانت تقول :

— ارى الا يسمح لسوى عربات السادة النبلاء بولوج هذا
المنزه .

فاجاب برتآن :

— وما نفعل بالمساواة والحرية والاخوة (١) ؟

ونمت منها حركة تعني « هذه ليست لنا » وتابعت :

— لتخصص غابة لعربات الركاب . غابة فانسيين مثلاً .

(١) شعار الجمهورية الفرنسية الحديثة العهد في تلك الايام .

— ان افكارك رجعية يا آنستي . لقد غاب عن فكرك اننا
نمشي في عهد ديموقراطي . وعلى اي حال ، اذا كنت تودين مشاهدة
هذه الغابة هادئة تعالي في الصباح الباكر حيث لا تشاهدين الا
زهرات المجتمع .

وراح يرسم لوحة الغابة في الفجر مصوراً ببراعته المعهودة من
فيها من ناس قد خلعوا الالقاب ، والنواقص ، حتى ليخيل للمرء أنهم
ابناء حي واحد او مدينة صغيرة واحدة .
— او تأتي انت عادة ؟

— مراراً . ان هذا امتع ما اجده في باريس .

— او تركب الحصان صباحاً ؟

— اجل .

— وتقوم بزياراتك بعد الظهر ؟

— نعم .

— متى تشغّل ادن ؟

— انني اشغّل ساعة يروق لي .. فانا رسام .. رسام للحسان .

ومن متمات عملي ان ارى هؤلاء الحسنات لذا فانت تجدينني في كل
مكان يوجدن فيه .

وتتمت ضاحكة :

— راكباً جوادك او سائراً على قدميك !
ورسقتها بنظرة حادة راضية كأنه يقول لها :
— ها . ها . انك تجيدين التنكيت ! ستكونين سيّدة لا
بأس بها ..

وهبت نسمة من هواء بارد آت من بعيد ، من البرية الفسيحة
التي استيقظت نواً ، فتحرّكت الغابة برمتها ، تلك الغابة العالمية
الخلابة .

وتركت هبة النسيم اوراق الاشجار الصغيرة ترتجف
اغصانها وحرّكت الثياب فوق اجسام الناس . وبحركة واحدة متناسقة
تناوات النساء ارديتهن وجذبتهن على اكتافهن وراحت شعورهن
تترافص فوق اكتافهن كأن النسيم قد قذفها قذفاً لدى ملامسته لها .
وقفلوا راجعين والشمس تنحدر الى خدرها ، ورنين فضي يعلو
اسماع الكون . وقالت الكونتنس وهي لا تجهل عادة اوليفيه :

— انعود الى بيتك ؟

— كلاً اني قاصد النادي

— اذن سنزلك اثناء مرورنا .

— هذا احسن . شكراً ،

— ومتى ستدعونا للغداء مع الدوقة ؟

== لـسـكـم ان تـحـدـدوا الـيـوم

كان هذا الرسام بنعم باعجاب الباريسيات عموماً حتى لقد أطلق عليه صريده اسم (واتو^(١) الواقعي) في الوقت الذي أطلق عليه مبعضوه « المصور الفوتوغرافي للفساطين والمعاطف) . كان يدعو كثيراً الجيلات اللواتي رسمن الى ما نذته ، وغيرهن ايضاً من الشهيرات الدائمات الصيت اللواتي يجدن متعة في حفلات هذا العازب واجابت مدام غيروا :

— بعد غد . ايوافك بعد الغدا يا عزيزتي الدوقة ؟

— لا باس . انت لطيفة يا عزيزتي . فالسيد برنان لا يهتم

كثيراً بدعوتي الى مثل هذه الحفلات لاني لم اعد شابة .

وعادت الكونتس تقول ، هي التي تعتبر بيت الرسام ، نوعاً ما ،

كـيـنـها :

— لن يكون سوانا ، نحن الاربعة الذين في الدربة الدوقة

وآنيث ، وانا وانت ، اليس كذلك ايها الرسام الكبير ؟

— لا احد سواكم . هذا حسن وسأقدم لـسـكـم (سراطين)

على الطريقة الازاسية

— هذا سيدخل السرور على نفس الصغيرة

(١) Watteau رسام شهير عاش في مطلع القرن التاسع عشر

وحياهم من طرف شفتيه واندفع في المدخل ذي القناطر
المفضي الى البادي ، ومرت بفريق من الخدم نهضوا لدى رؤيتهم اباه
كانهم جنود يمر بهم ضابط ، فالقى اليهم بمصاه ومعطفه وراح يصعد
السلم قفزاً عابراً بغيرهم من الخدم ذوي السراويل القصيرة
وولج باباً فصكت سمعة اصوات لاهثة سريعة : هيا . لقد
لمستنى . دع ذلك . لقد نلتها . هيا . لمستك .

ووجد نفسه في غرفة السلاح حيث راح اللاعبون يتمرنون
وقد ارتدوا ثياباً من قماش رمادي وسترات من الجلد واشهروا بايديهم
سيوفاً طويلة يحركونها حركات ميكانيكية وكان فريق جالسا ، لاهثا
وقد حمل كل فرد مندبلاً بيده راح يحفف به جبهته وعنقه منتفخ الوجه
احمره ، وفريق آخر كان جالسا على الديوان المربع الذي بدور
حول جدران الغرفة وقد انصرفوا الى مشاهدة المباراة
ودخل برتان باسما وصافح الجميع وبدأ كانه في بيته
وهتف به البارون دي يا فيري

— اني احجزك !

— انا طوع امرك

ودلف الى غرفة الثياب لنزع ارديته .

فمنذ مدة طويلة لم يشعر برتان بمثل هذا النشاط واغلب الظن

انه سيقوم بمبارزة رائمة فهو يشمر بصبره يفرغ للشروع بها كأنه
تلميذ يستعد للعب في مباراة .

وما ان رأى نفسه امام خصمه حتى هاجمه بلا هوادة وخلال
عشر دقائق كان قد لمسه احدى عشرة مرة وانعبه لدرجة جعلت البارون
يطلب الرحمة . ثم لعب مع اثنين آخرين .

واكسبه الحمام البارد الذي اخذه بعد اللعب شعوراً بالبرد
حمل ذاكرته الى شبابه يوم كان في العشرين وكان يثب الى السنين
من فوق الجسور في الخريف ليستحوز على اعجاب البورجوازين .
وسأله صديقه مادان :

— ستمشى هنا ؟

— اجل .

سندجلس مع الرفاق الآخرين . هيا فالساعة السابعة والرابع
وخلال تناولهم الطعام دار الحديث في مجله حول النساء وراح
كل منهم يحدث الآخرين عن مغامراته العاطفية محتفظاً باسم عشيقته
او ذا كراً صفة من صفاتها او ملمحاً اليها باسم صغير . وما ان جاء
دور برتآن حـ قال بتحفظه المعتاد :

— اما انا فاني قانع « بالنماذج (١) » .

« ١ » mod يطلق على المرأة التي تقف عارية امام الرسام

ثم انتقلوا الى موضوع السن وهل يعوق الرجل عن السير
قدماً في منامراته فاجمعوا ان الرجل في باريس لا يهرم والنساء
الرخيصات لا يابهن بالسن فاكثرهن يفضلن متمولاً كهلاً على
فتى مملق .

وهضوا . بعد ان استعرضوا اسماء الملاحى التي يمكن قضاء
السهرة فيها :

السيرك . الايبودروم . عدن . والفولي برجير . . .
وبلغت اسماعهم موسيقى بعيدة وهم خارجون . فقال روديبكان
— اسمعوا . في النادي موسيقى هذه الليلة .
فاجاب برنان : اجل فلنمض عشر دقائق في الاستماع اليها .
وعبروا غرفة البليار وغرفة الالعب فوجدوا انفسهم في شبه
شرفة تطل على المسرح وكان هناك بضعة رجال جلوساً في مقاعد
مريخة وفي الاسفل قد تبعثر بضعة عشر شخصاً بين المقاعد الخالية .
كان اوليفيه يعبد الموسيقى ويدمن عليها كما يدمن المرء
تعاطى الافيون فهي تحمله سريماً الى عالم مفعم بالاحلام .

فا ان جرفه فيض الانعام حتى احس بنفسه محمولا على اجنحة
سحرية من النشوة جعل جسمه وعقله في حالة هياج عجيب واندفع
خياله مجنوناً بتأثير النغم المذب فانسام في عالم كله سحر وفنون

واحلام مذهبة الحواشي واطبق جفنيه وصالب ساقيه وترك ساعديه
يهبطان الى جنبيه وكان على مثل هذه الحالة يرى كل ما يعبر امام
ناظريه او امام عين خياله .

وعزفت الفرقة قطعة لها يدن ، فانغمض الرسام عينيه واستعداد
في مخيلته منظر الغابة والحشد من الناس والعربات امامه ، في
الركبة ، الكونتس وابنتها ..

وخيل اليه انه يسمع اصواتها ويصغي الى حديثهما ويشعر
بحركات المركبة ويستنشق عبير اوراق الشجر

وقطع عليه جاره هذا الاستغراق مرات ثلاثا فكان لا يلبث
ان يستعيده في كل مرة كما يستعيد المسافر في البحر دوي الموج
عندما يأتوي الى سريره بعد انقضاء الرحلة .

وكان الوجهان الجميلان ماثلين امام ناظريه طوال الغزف
فكان تلك الزهرة في الشمس المائمة قد طبعت الصورة في اعماق عينيه
ونهض ممثذراً لرفيقه بشي من التعب يدعوه للانسحاب ولم
يكن به في الواقع اي عناء انما على العكس كان بالسف النشاط
والحيوية الا انه رغب في الانصراف كي ما تنتهي سهرته على طاولة
البكار تلك الليلة

وفي صبيحة اليوم التالي نهض بعد ليلة ارقه من تلك الليالي

التي تدفع بالفنان في توفر اعصابه ، الى العمل الصارم المتواصل . وقرر
الا " يخرج مطلقاً وان يعمل حتى المساء .

وكان يومه رائماً : فقد اندفع في عمل سهل كانت الفكرة
تنسأل من رأسه هينة فينقلها فوق اللوحة جلية قوية .

واغلق ابواب مسكنه فخيم السكون المطبق نتيجة لانفصاله
عن العالم الخارجي وراح في شبه استغراق روحي فني يعمل ويعمل ...
وقد غاب بوعيه عن العالم ا فلا شيء يعكر عليه انكبابه على لوحاته
حيث كانت الصور تتكون تحت مس فرشانه بطريقة شبه سحرية
واحس بما يشبه نوبات الانتاج الثر . وفي المساء كان تعباً فأوى الى
فراشه لا يحلم بسوى وليمة الغد .

وكانت المائدة غنية بالالوان ، فهو يعرف في مدام غيروا عشيقته
النهم المذهب ، وبالرغم من مقاومة ضيوفه العنيدة فقد تمكن من
استقائهم الشامبانيا .

قالت الكونتس : ولكن الصغيرة قد تسكر .

فاجابت الدوقة مداعبه : - وما ذا في ذلك ؟ لا بد للمرء من ان
يسكر ولو لمرة واحدة في حياته ! وقد احس الجميع لدى عودتهم الى
المرسم بشيء من تلك البهجة التي تنبت للاقدام اجنحة !

وكان على الدوقة والكونتس ان يحضرا اجتماعاً في ندوة « الام

الفرنسيه « فشاءت ان توصيل الفتاة الى البيت قبل ذلك غير ان برتاف
عرض ان يصحبها هو ليقوما بجولة على الاقدام . وخرج الاثنان ..
قالت آيت : - لنتخذ اطول السبل .

— اتحبين التزه في حديقة مونسو ؟ ستشاهدين هنالك عربات
الاطفال ومرىياتهم انه مكان جميل .
— كم احب ذلك !

واجتازا شارع فالسكي ، وعبرا السلسلة الذهبية التي تغلق مدخل
هذه الحديقة الخلابة الاناقة ، العارضة في قلب باريس جمالها الاصطناعي
المختوض في وسط قصور النبلاء والامراء .

وعلى طول الماشي المحفوفة بالحنائل والازهار كان سيل غير
منقطع من نساء ورجال يجلسون فوق المقاعد الحديدية ينظرون الى
السابلة في شبة استعراض . وفوق الماشي الضائقة بين الحنائل الخضر
كانت جموع الاطفال يامبون ويمرحون ترائهم اعين الماريات اليقظة
او تتابعهم انظار الامهات القلقات . وكانت الاشجار الهائلة مستديرة
القمم كأنها ابنية مقبية من اوراق ، الكستناء العملاقة بخضرتها القاعة
وقد تدلت منها عناقيد حمراء وبيضاء ، والسيكومور النبيل ، والنباتات
التزيينية كانت بسوقها المتسلقة تسبق على الحشائش المتواجهة منظراً
جذاباً اخاذاً ...

كان النهار حاراً واليام قد شرع بتريد هـديله بين الاوراق
متقلان قة الى قة بينما راح الدوري يستحم في قوس قزح شكله غبار
الماء المندفع من الرشاشات تحت الشمس الماتمه ... وظهرت التماثيل
الناصبة سميدة فوق قواعدها في وسط هذه الطراوة المخضراء . فهذا
شاب رخامي جالس يحارل استئصال شوكة ، لم يهتد اليها ، من قدمه
وكأنها قد غرست في تلك القدم أثناء مطاردته (لديانا) الواقعة بعيداً
تحت خيمة تختبي فيها اثار معبد وتماثيل اخرى تنعق بهيام على شاطئ
البحرات او تحلم جالسة وركبها في يديها . .

وثمة شلال صغير يهدر منزلقاً فوق صخور لامعة الجمال ...
وشجرة مقنطرة تنسلقها لبلابة فاقمة الخضرة ... ومدفن قديم يحمل
كتابة ... وثمة اثار حجرية لا تذكر بالا كروبول كما ان هذه
الحديقة الصغيرة الانيقة لا تذكر بالغايات العذراء ...

ان هذا المكان هو الوحيد الذي يتيح للفنان ان يشاهد
تستطيع ان تقدمه الطبيعة في قلب باريس كما تقدم لنا المسارح ، وراً
مختارة من الحياة ...

منذ سنوات واوليفيه برتان يقصد هذه الحديقة يومياً ...
ففيها يستطيع .شاهدة الباريسيات في اطارهن الطبيعي . . « إن هذه
الحديقة خلقت لكل شخص جميل انيق . اما ما عدا ذلك فيشوه من

جمالها الخلاب . « كما كان يردد دائماً . . وفيها كان يتنزه الساعات
الطوال متعرفاً على كل نبتة او كل وجه من وجوه روادها المعتادين .
وهو يسير الآن الى جانب آنيث على طول الممشي وقد انصرف
نظره الى الحياة النشطة في هذه الحديقة .

وهتفت آنيث : - انظر ! ما اجمله !

واشارت الى طفل ذي حلقات ذهبية تتوج رأسه وهو يرنو
اليها بعينين زرقاوين برتئين . . وقد بدا مندهشاً ممعجبا .
ثم مروا بشبه استعراض للاطفال ، فكان رؤية هذه الدمي
الحية المزدانة بقشيب الثياب ، جعلها ثرارة ومحنة للجدل

كانت تسير الى قرب برتان بخطى قصيرة مبدية ملاحظاتها
على من يمر ان به من اطفال : فالسدين منهم كان يوحى اليها
ملاحظات مضحكة والشاحب يثير فيها عاطفة الشفقة والحنو

وكان برتان يصغي اليها بكل جوارحه وقد اطربه حديثها اكثر
من تربية الاطفال والعربات فكان يتمم : « يا للركة » غير ان ذهنه لم
ينصرف عن التفكير في صنع لوحة تمثل جانباً من هذه الحديقة مع
قبضة من المربيات والاطفال . كيف لم يخطر له ذلك ببال قبل الآن ؟

وسألها : او تحبين هؤلاء « المفاريت » ؟

- اني اعبدهم !

وخيل اليه ، وهو يراقبها تنظر اليهم ، ان رغبة ملحة تكاد تدفع
بها الى اخذ هؤلاء الاطفال بين ذراعيها وتقبيلهم . . . انها رغبة مادية .
عاطفيه . . . انها رغبة ام المستقبل . تلك الغريزة السرية المختبئة في عروق
هذه المرأة !

واحست بها ميلا الى الثروة فجارها فراحت تحدثه عن
الجياد . ففي (رونسير) حيث ربيت كانت السيدات تهتم اهتماما
خاصا بتربية الجياد وكان اهتمامهن بالزوج اقل منه بالشقة التي قد تضطرون
الى استئجارها بين الشقق المدة للايجار في البنايات الكبيرة
ثم تابعا سيرهما صامتين وعبرا باحواض تسبح فيها ضروب من
طيور البط والجمع وكان برنان تائها في مهامه افكاره وتوقف فجأة
وهتف :

— ما اجمل ان يسير المرء هكذا !

ثم استدار الى آنيث وقال :

— قولي يا صغيرتي . انزعجك ان تفهم امامي مرة او مرتين

لا صورك !

— كلاً . انه لمن دواعي اغتباطي

— انظري جيداً هذه الفتاة السارحة مع آمالها . . .

اجل . . . مستجلسين كجلستها فوق مقعد وتأخذين كتاباً

فوق ركبتيك وتحاولين ان تعملي كما تعمل .. احدث لك ان حملت
مستيقظة ؟

— اجل ...

— بم ؟

وحاول ان يحملها على الاعتراف الا انها لم تشأ ان تسر اليه
شيئاً فاعتصمت بصمتها وراحت تداور في الحديث منصرفة بكليتها
الى مراقبة اسراب البط العائمة فوق الماء تلاحق فئات الخبز تلقىه اليها
سيدة من المتزهات ... وبدأت مستاءة من سؤاله كأنه مس منها وترأ
بالغ الحساسية ...

وتم انتقلت بالحديث فروت له طرفاً من حياتها في روتسيير
حينث كانت تقرأ لجدها الكتب بصوت عال .. لا بد ان تكون
تلك الجدة المسكينة الآن تقايي لوحدة والضجر ..

وشمر الرسام وهو يصغي اليها بمرح طساغ يسيطر على كل
جارحة فيه .. مرح لم يشمر به قبل ذلك ابداً ... فكان كل ما ترويه
له من هذه الثرثرة البريئة الفارغة السخيفة يثير في نفسه سروراً كبيراً
واهتماً متزايداً ...

وقال لها : لنجلس ..

واقعدا كرسياً قرب الماء وجاءت بجعتان تطفوان امامهما

يحدوها امل القاء بعض الطعام اليهما ..

ووجد برنان نفسه وقد قفزت ذكريات كثيرة الى وضع
ادراكه .. تلك الذكريات القديمة العزيزة التي كانت غارقة في لجج
من النسيان الرائدة .. فكان بدأ قوية اخذت هز بحيرة ذكرياته
الهائلة ... كما يحدث له كثيراً ، لمجرد رائحة تصفع انفسه ، او نوب
نسائي يخطر امامه ... وراحت ذاكرته تعرض امامه شريط من
ذكريات قديمة عابقة بالف عطر وعطر ... مفعمة بالف لون ولون
امسيات صيف حارة ، واصائل شتاء باردة .. بساين وحدائق وبيوت
قطع من اثاث .. وروائح عطرية ... وبشكل خاص تلك الروائح
التي لا تنسى .. والتي تبعث ذكرياته .. او تحفظ لها جدتها كما تحفظ
روائح « الآرومات » المومياوات من التحلل والفناء ..

اهي خضرة الحماثل ، ام الماء السلسل ام العشب الندي ؟ ما الذي
اثار فيه هذا الحنين الملحاح الى الماضي ؟ اتراه صادف بين المتنزهات
وجهاً ذكره بوجه من ماضيه ؟ ربما ... ولكن اين وكيف ؟
ليس يدري .. كل ما يعلم ان نواقيس قلبه اخذت تدق دقا عنيفا
موقظة بين حناياه ماضيا حاراً عباق النفع بعطر فواح ...
وقال لها : - لقد برد الجو .. هيا بنا نعود ..

وسارا .. ولحا في طريق اوتبهما بعض الفقراء جلوسا فوق

المقاعد الحجرية ...

ولفت وجودهم نظر آنت التي استغربت كيف يعيش مثل
هذا البؤس في جو كجو هذه الحديقة الفتاة الفخمة ...
وكان اوليفيه مازال هائما مع ذكريات ايامه الخوالي ...
وكان ذبابة تطن في اذنيه طيننا مزعجا لا ينتهي ...
- ما بك ؟ انك تبدو كئيبا جدا ...

وانتفض لدى سماعه قولتها .. ترى من الذي وجه اليه هذا
السؤال ؟ اهي ام امها ؟ كلا ليست امها .. فصورها الآن قد تغير
وربما كان صورها يأتي من مهامه الماضي السحيق ...
واجاب باسما : - ليس بي شي . انك ، سليه جدا ، ولطيفة
جدا . انك تذكريني بامك . كيف لم يظن الى مدلول هذا القول
المعتاد الذي خرج من شفيتين لاعد له بها ؟
- تكلمي .. تكلمي ..

- عما ؟

- حدثيني - عما علمتك معلمائك !

وعادت تثرثر كطفل منطلق من المدرسة بعهد نهار اسر

طويل ...

وراح يصفي وقد اخذه اضطراب متزايد .. كان يراقب

عباراتها ، ويستوعب كلها فهذه الفتاة ما تزال غريبة عن قلبه . .
ولكنها لا نعدم كلمة او تعبيراً تخرجه حنجرتها يذكره بامها يوم
كانت شابة مثلاً . . . وكم كان ينتفض دمهشاً لدى سماعه غنة صوتها .
انه نفس الصوت الاغن . .

لا ريب ان ثمة اختلافاً كبيراً حتى لتنكر كل صلة بينهما . .
غير انه لا يلبث ان يأتيك نبذة نية ظ الذكرى على حين غرة .
وكان قد لحظ الشبه العظيم في هيئتي الام والابنة الا انه الآن ، وهو
يصفي الى ثرثرة الفتاة ، يدبر رأسه ناحية ، فيخيل اليه انه يعود انني عشر
حماً الى الورا . . . ويصفي الى عشيقته الشابة تحدثه . . .

وكان قد قاما بدورة الحديقة المرة الثالثة امام نفس الاشخاص
وذات الاشياء والاطفال . . .

وراحت آيت تسأله عن القصور المحيطة بالحديقة وعن
اصحابها . . انها تريد معرفة كل شيء . . . بشيء من النهم . . . فذاكرتها
النسائية بحاجة الى ما يملؤها وهامي تصفي بعينها اكثر من اصفاها
بأذنها .

وانتبه برتان وهما يجتازان بوابة الحديقة ان الساعة الرابعة
اوشكت ان تدق .

قال لها : اوه . يجب ان نعود . .

وبلغا متمهين شارع ما ليرب ...

وما ان غادرها حتى اجتاز ساحه الكونكوردا ليقوم بزيارة على
ضفة السين الثانية . كان يترنم ببعض الاغاني ، واحس رغبة في العدو
وكم بدت له باريس خلافة كما لم يرها من قبل وفكر : « لا ريب
في ان الربيع هو الذي اسبغ على الكائنات كل هذا الرواء »

كان في مثل تلك الحالات التي تفتح فيها الروح فتفهم كل شيء
بمزيج من الغبطة ، فتفتح العين على كل ما في الحياة من جمال فكاها
تزداد حساسية ونفاذاً فيتاح للمرء ان يتذوق الجمال باوسع معانيه كما
لو كانت بدقادة قد مسحت الارض فاحالتها ريانة ومرت على الكائنات
فحركت فيها الحياة الراكدة كما نشد رقص ساعة . متوقفة فتعود الى
العمل النشيط الريب ...

وفكر وهو يداعب بانظاره الف شيء جميل : - لا اعترف بان
ليس ثمة ما يشكل موضوعاً للوحة ! « ذلك أن ذكاء المتفتح على جمال
الحياة وروائها جعل كل عمل فني بالنسبة لهذا الجمال شيئاً سخيفاً ...
وان ثمة طريقة مثلى لتصوير الحياة على حقيقتها وطاقاتها . ودهمه فجأة
الرغبة في العودة الى الرسم . فاستدار على اعقابه وسار - حتى بلغ مرسمه
فاغلقه على نفسه ...

وما ان وجد نفسه امام القماش المعد للرسم حتى احس تلك الرغبة

في العمل تضحجل والفتى بجسمه فوق الديوان وراح يداعب احلامه .
لقد بدأت نقطة التحول في نفسه تقوى ونجلي . فهم ولم يعد
ذلك الرجل المشبعة فيه كل الرغبات .. فيها هو بينه فارغاً . . ومرسمه
الكبير خاوياً . وخيل اليه ان طيف امرأة يعبر امامه . . . امرأة حبيبه
منشودة . . فمنذ زمن بعيد فقد نفاد الصبر الذي يشعر به الرجل وهو
مقيم بانتظار عشيقته . . وها هو يشعر فجأة ان تلك الحبيبة قد ابتعدت
عنه وهو راغب في قربها . برفز اعصاب شاب مراهق . . وراح
يستلذ ترجيع ذكريات حبه . فكل ما في هذه الشقة يذكره بها . . .
باقوالها ومحركاتها وبقبلاتها . . انه يستعيد بعض الايام . . بعض
الساعات . . بل بعض اللحظات . . وهو يحبس مداعباتها في الايام
الخالوي تلك . . .

ونهض . . وراح يزرع الغرفة مفكراً . . . فالبرغم من هذه
العلاقة التي دلات وجوده فترة طويلة الا انه كان وما زال يشعر ان
حياته فارغة . . قاحلة . . وانه كان دائماً وحيداً . . . فبعد ساعات
طوال يقضيها في عمله يتلفت فلا تصطدم عيناه بسوى الجدران الباردة
الجمهه . . فهو لكون حياته خالية من المرأة ، كان عليه حين يشاء
الاتصال بحبيبته ان يرسم خطى اللص بينما يقفي الساعات الطوال
بقتل وقته بطرق شتى كان الاخرى به ان يقضيها برفقة المرأة المحبوبة

التي تشاركه الحياة . فلو كانت تعيش معه تلك المرأة لما كان عليه ان يرتاد النادي والملاعب والوبرا والابودروم بمثل هذا الالحاح حتى غدا لديه ذلك عادة مسيطرة ...

ففي الايام الخوالي كان يشور على النظام الاجتماعي الذي يحول دون اتصاله الدائم بمعشوقته ثم اخدت ثورته تضوّل وارتضى هذه الحواجز قائماً لنفسه بالحرية ... اما اليوم فانه يحس ندامة لما اقدم عليه . . . ويتمنى لو اتيح له استعادة تلك الايام لينهج غير ذلك النهج . لقد اصاب بنكسة حب ... ولعل للربيع يد في ذلك ... ام انه الباعث هو سماعه لصوت يشبه صوت معشوقته يوم كانت شابة نضرة ...

ان الاشياء الصغيرة السافهة كافية لاثارة الحنين في قلب رجل يكتهل ، فيثير ذلك الحنين بدوره الماء وندامة .. وكما في الماضي ، شعر بحاجة ملحة لرؤيتها .. برغبة تغلغل في روحه وعروقه تغلغل الخمر وراح يفكر فيها كما يفعل عاشق مرهق ومن ثم عزم على الذهاب لرؤيتها وتناول كأس من الشاي عندها بالرغم من انه شاهدها في ذلك الصباح بالذات ..

وبدت له الساعات طويلة لاتنقضي وما ان بلغ شارع (مارب) حتى ادركه خوف حقيقي .. فقد لا يجدها .. وقد يتحتم عليه ان

بقضي سهرته هذه وحيداً كما قضي سهرات كثيرة من قبل ..
وعند ما اجابه الوصيف بان الكونتس موجوده احس فرحاً
حقيقياً يطفي على فؤاده وقال وهو يقف على باب الصالون الصغير
حيث جلست المرأة ان تحت مصباح تشتغلان :

— ها انذا ايضاً ..

وهتفت الكونتس : اهذا انت .. اى حظ سعيد !

— لقد شعرت بوحدة مره .. فجئت

— ان هذا لطيف منك ...

— او تنتظرون احداً ؟ .

— كلاً .. ولكن ربما .. لست ادري على وجه التحقيق .

وجلس وراح ينظر بعين الحقد الى ذلك الصوف الاسمر

الخشن الذي تنسجانه بسنانير طويلة من خشب : وسأل :

— ما هذا ؟

— انه اغطية .

— للفقراء ؟

— لاشك .

— انه قبيح جداً !

— ولكنه دافئ جداً

— ربما . ولكنه بالغ القبح وخاصة في وسط هذه الشقة طراز
لويس الخامس عشر حيث يداعب كل شيء فيها الانظار وعليكم ان
يكون احسانكم لاصدقائكم المعوزين اكثر اناقة .
فحرت الكونتس كتفها وقالت :
— يا الرجال . ولكنهم في كل مكان ينسجون مثل هذه
الاغطية

— اعرف ذلك جيداً . . غير انه ليس من المستحب ان
يأتي المرء لزيارة اصدقائه فيجد اجمل السيدات وآتقهن بسحبين وراءهن
مثل هذا الشيء القبيح المنفر . . فوق افخم الطنافس وادق الائنات . .
ارى ان اكم ، في هذا الربيع ، احساناً سقيماً الذوق !
وشاءت الكونتس ان تختبر صدق قوله فذشرت ما نسجت
فوق كرسي مخلف بالحريز الى قربها وقالت :
— في الواقع . . انه شيء قبيح .

ثم عادت العمل . وكان الرأسان المنحيان تحت النور الوردي
يتلفيان سبلاً من اشعته تنساب بين خصلات شعرهما فتسيل فوق
الحدود الاسيلة . .

ثم تنحدر منسالة فوق الثوبين فالأيدي العاملة نسجاً . . . بينما
تتابع اعينهما هذا العمل بقليل من الاهتمام شأن من اعتادت انامله على

مثل هذا العمل حتى لعمل وعينه تنابه دون ان يهتم عقله به كل الاهتمام
وفي زوايا الصالون الرابع ، ارتفعت اربعة مصابيح من الصيني
فوق اعمدة من خشب قديم مذهب ، كانت تشر فوق الطنافس نوراً
لطيفاً يتخلل سترأ شفافة من الدانتيل تغلف زجاج المصابيح .

واختار برتبان مقعداً شديداً الأنحف اض ، ذاك المقعد الذي
يفضله دائماً عندما يتحدث الى الكونتس فسكانه جالس تحت قدميه...
قالت له : لقد قمت بنزهة طويلة مع آنيث في الحديقة .
— اجل لقد ثررنا كصديقين قديمين . اني احب ابنتك
حباً جماً ، ان الشبه بينكما عظيم . وعند ما تنلفظ بيمض الجمل يخيل
للمرء انك نسيت صوتك في فمها ...
— لقد رد ذلك زوجي كثيراً ...

وعاد ينظر اليهما وهما تملان مغمورتين بنسور الصباح ..
وعادت افكاره تمذبه وكانت تدور كلها حول بيته الفارغ البارد ...
برغم النار الموقدة في الموقد وعصرت هذه الفكرة فؤاده كأنه يدرك
ذلك للمرة الاولى .

آه ! كم من مرة تمنى لو كان زوجها لهذه المرأة لا عشيقاً لها
لقد فكر فيما مضى بان يحتطفها . يسرقها من هذا الرجل ... امّا
اليوم فهو يحسده . يحسده لانه ، بالرغم من انها تخدعه ، فهو يقيم

دائماً بقربها متمتماً بلطف الاتصال بها كل يوم .
وكلما نظر اليها احس رغبة في ان يسر اليها اشياء قديمة استعادتها
ذاكرته

حقاً انه ما زال يحبها . . بل اكثر من الماضي . . وهذا اليوم
اكثر منه في الايام الاخر . يريد ان يحدثها عن رغبته المتجددة فيها .
وعن احساسه بالشباب والنشاط . . وهو ينتظر بصبر فارغ ان تذهب
الفتاة الى فراشها باسرع وقت ممكن . . .

وكان دائم النظر الى ساعته صامتاً وقد سيطرت عليه فكرة
انفراده بها ودنوه منها حتى يلتصق بها ويلقي برأسه الى ركبتيها ثم
يتناول يديها فيلقي النسيج الصوفي والسنانير الطويلة الخشبية جانباً . . .
وفكر : انها عادة سيئة ان يسمح للفتيات الصغيرات بالسهر مع
الاشخاص الكبار . .

وسمع خفق خطوات في الفرقة المجاورة ثم اطل الخادم واعلن :
— السيد دي ميزاديو .

ونار في برنان غضب كبتة وعندما صافح مراقب الفنون
الجميلة تحركت فيه رغبة في ان يتناوله من كتفيه ويلقي به خارجاً .
وكان ميزاديو حاملاً اخباراً كثيرة : الوزارة توشك ان
تسقط وهناك من يتمم بفضائع تعلق بالمر كيز (رو كديان) واتبع

وهو يدنو الى الفتاة :

— ساجدئكم بذلك فيما بعد .

وَرَفَعَت الكونتس ناظرها الى ساعة الحائط فتحققت من ان
العاشرة توشك ان تدق :

— لقد ازف وقت النوم يا بنيتي .

ودون ان تملظ بكلمة . نهضت وطوت نسيجها ثم قبلت امها
وصافحت الرجلين واتجهت الى غرفتها هادئة كأنها لم تحرك الهواء
اثناء عبورها الصالون .

وسألت الكونتس بعد ان خرجت ابنها :

— هات حدثنا بفضيحتك .

— يتناقلون ان الماركيز دي روكديان الذي كان قد افترق عن
زوجته حياء وخصص لها دخلاً ثابتاً وجدته هي غير كاف ، فاستنبطت
طريقة فريدة واكيدة لترفع رقم هذا التعويض . فقد هيئت
طريقة جعلت الشرطه تضبطها في احد النزل في حالة مربية مع بمض
الناس واضطر ان يدفع الثمن الرجيع لشراء محضر الضبط الذي
نظم بها .

كانت الكونتس تصفي مفتوحة الميزين وقد تركت النسيج
يسقط فوق ركبتيها .

وراج برتان ، الذى ساءه حضور ميزاديو خاصة بمد خروج الفتاة ، بنى التهمة زاعماً انها افتراء دني* من تلك الافتراءات التي يجمل بالمجتمع الاتي بمد الى ترديدها ناهيك عن تصديقها . وغضب ، فنهض واستند الى المدفأة وراح يتكلم بشوة اعصاب رجل مستعد لان يجمل من مثل هذه القصة سبباً لعداء شخصي ..

ان رو كديان صديقه ، وان كان المجتمع استطاع الصاق تهمة الخلفة والزعونة به الا انه لم يستطع يوماً ان يصمه بما يحط من كرامته كرجل . وقد اخذ ميزاديو على حين غرة ، فدافع ثم تراجع وانتهى به الامر الى الاعتذار ... :

— لا تؤاخذني .. فقد سمعت هذه الحكاية منذ لحظات لدى الدوقة دي مورتمان .

— ومن حدثك بها .. انها امرأة ولا شك .

— كلا . ابدأ . انه المركيز دى فارندال ...

واجاب الرسام محتدأ : هذا لا يدهشنى منه !

وخيم صمت . وعادت الكونتس الى عملها . واستطرد برتان

بصوت هادئ* :

— انى اعلم جازماً ان تلك الحكاية لا ظل لها من الحقيقة !

وهو لم يكن يعلم شيئاً . فللمرة الاولى يسمع عن مثل هذه

المغامرة . و تراجع ميزاديو لما ادرك خطورة الموقف . وتكلم عن رغبته في زيارة آل كوريل وفي تلك اللحظة ظهر الكونت دي غيروا عائداً بعد تناول العشاء في المدينة . فعاد برتان يجلس وقد يش من امكان التخلص هذه المرة من الزوج . وقال الكونت:

— انتم لم تعرفوا بالفضيحة الكبرى التي تتردد هذا المساء ؟
ولما لم يحبه احد تابع :

— يبدو ان روكديان قد فاجأ زوجته في اتصال اجرامي اجبرها على دفع الثمن غالياً : وهنا شعر برتان بالخيبة فاقترب من الكونت والقي راحتيه الى ركبتيه وراح يحدثه بنبرة رفيقة بما كان يطلقه في وجه ميزاديو منذ لحظة

واقنع الكونت نصف اقتناع وراح ينحى باللائمة على نفسه لانه روى بحقة مثل هذا الحديث الذي قد يكون عارياً عن الحقيقة بل مدسوساً .. واسند ذلك الى جهله وبراءة مقاصده . فالناس يروون اشياء كثيرة خاطئة او عن نية سيئة .

وسرطان ما اتفق الاربعة على ان معظم الشائعات التي تتردد في المجتمع كاذبة او خبيثة وان ليس للنساء عشاق بقدر ما يذاع عنهم وان الرجال ليسو من الخفة والتحلل الخلقي بالدرجة التي تصورهم بها التقولات . والخلاصة ان ظواهر الاشياء اسوء كثيراً ولم يعد لدى

برتان ما يدعوه للاساة الى ميزاديو بعد حضور الزوج . فانتقل به الى الاحاديث التي يفضل خوضها وراح يمتدحه متظاهراً بالاعجاب به .
بينما خالط شعور الكونت بانه هو الرجل الذي يلقي الوفاق والسلام حيثما حل واني اقام .

ودخل خادمان بخطي خر ساء فوق الطنافس يحملان مائدة الشاي . ونهضت الكونتس لتقدمها الى ضيفها بعناية بالغة على الطريقة الروسية وقدمت كأساً لميزاديو وآخر لبرتان ثم عادت تقدم لهما صحفاً تحمل السندويش الدسم والحلويات المصنوعة على الطريقة النمساوية والانكليزية .

ودنا الكونت من مائدة متحركة تحمل زجاجات المشروبات والافداح وصب لنفسه كأساً تجرعها ثم توجه الى غرفة مجاورة اختفى فيها .

ووجد برتان نفسه من جديد امام هذا المزعج ميزاديو . وعاودته الرغبة في القائه خارجاً . . بينما كان هذا منصرفاً الى رواية قصص حدثت له اولسواه . وكان الرسام لا يفتأ ينظر الى الساعة التي بدأ عقرباها يدنوان من منتصف الليل . وادركت الكونتس ان عشيةها يحمل اليها ما يقوله . وبراعة سيدة الصالون التي تستطيع ان تفهم ضيوفها ، في ايه ساعة ، ودون ان تنبث بكلمة ما ، اذا كان عليهم

ان ينصرفوا او يقيموا ، بمجرد تلك البرودة والضجر اللذان تستطيع
اثارتها حولها كما لو كنت قد فتحت نافذة في مساء بارد .

واحس ميزاديو هذه البرودة تنتشر حوله وتجمد افكاره ،
وادرك ان خير ما يفعله هو الهوض والانصراف .

و كرجل يعرف اساليب اللياقة ، شاركه برنان حركته ،
فنهض الرجالان وسارا فبعثتهما الكونتس التي راحت تحدث برنان ثم
استوقفته امام الباب بينما كان الوصيف يساعد ميزاديو على ارتداء ممطفه
ووجد مراقب الفنون الجميلة نفسه منتظراً امام الباب الخارجي
امام الرصيف فاقام لحظات ثم قرر الانصراف وحيداً اذ ان مدام غيروا
كانت منهمكة في الحديث مع الرسام .

واغلق الباب خلفه . وقالت الكونتس لبرنان غنمى الدعة :

— ولكن .. لم تنصرف مبكراً هكذا ؟

واذ بهما بدخلان الصالون الصغير وما ان جلسا حتى قال برنان :

— يا الهي كم ساءني وجود هذا الحيوان ..

— ولم ؟

— لقد حرمني منك .

— آه . ليس كثيراً كما تتصور .

— هذا ممكن . ولكنه قد ازعجني .

— أو تفار ؟

— ليس من الغيرة في شيء أن يشمر الإنسان بثقل الآخرين .
وعاود الجلوس فوق المقعد الصغير وراح يداعب بأصابعه قماش
نوبها وهو يصف لها الحرارة التي أنزلت هذا اليوم في قلبه .

كانت تصفي اليه مأخوذة ، شديدة الالتهاب ، وقد راحت
تنخل شعره المبيض باناملها كأنها تسدي اليه بذلك شكرها . قال لها :
— كم أتمنى أن أحيا ابداً الى قربك .

وكان هذا الزوج النائم في غرفة مجاورة دون أن تساوره
الشكوك ، لا يبرح من فكره . وتابع :

— لا يوجد في الواقع سوى الزواج ليوحد وجودين ...

— وتتمت وصوتها يغص بالشفقة عليه وعلى نفسها :

— يا صديقتي المسكين !

والقى بخده الى ركبتها وراح يدنو اليها بحنو حزين ، مؤلم ،
واقل احتراماً منه غند ما كان يحول بينه وبينها ، يزاديو وابتهاوزوجها .
وقالت بابتسامة وهي ما زالت تداعب شعر برنات باناملها :
— يا الهي .. كم يبدو شعرك أبيض ! لقد اختفت آخر شعره
سوداء فيك .

— أني اعرف ذلك للأسف ... انه يسرع .. يسرع ...

وخشيت ان تحزنه :

صحيح ولكنك بدأ فوادك ببضان يوم كنت في شرح
شبابك . فقد عرفتك دائماً وشعرك ملوح وفلفل ...
— اجل . هذا صحيح .

ولمحر كل ما قد تتركه كلماتها من اثر مؤسف انحنى فوقه
وتناولت جبهته وراحت تطبع فوقها قبلاات بطيئة حانية متواصلة كأنها
لا تود لها انقضاء ... ثم نظر كل منهما في عيني الآخر باحثين عن
حبهما القديم ...

قال : — كم اود ان امضي يوماً كاملاً بالقرب منك ..
واحس هذه الرغبة المبهمة في الانصراف اليها تهزه هزاً عنيفاً..
كان منذ لحظة يمتقدان مجرد انصراف هؤلاء الناس وانفردهما
احدهما بالآخر يكفي لاطفاء ذلك الاوار الذي ما فتى بهذبته
منذ الصباح .. وها هو منفرد بها وما زالت حرارة قبلااتها فوق
جبهته ، وحرارة جسمها تصافح خده عبر ثوبها ... انه ما زال يشعر
بنفس الاضطراب .. بنفس الرغبة الشديدة في حب مجهول .. بعيد
النال ...

ويخيل اليه انهما لو انفردا في الغابة بعيدين عن هؤلاء الناس
الذين يحيطون بهما اذا لامتطاع اطفاء الغايل الذي يعمل في احشائه .

واجابته : - يا لك من طفل ! ولكننا نلتقي كل يوم تقريبا
ورجاها ان تسمى لمرافقته الى احدي الضواحي حيث يتغديان
كما سبق لهما ان فعلا اربع او خمس مرات .

وادهشتهما هذه الرغبة الصعبة التحقيق خاصة وابنتها قد عادت:
غير انها ستحاول مع ذلك . ولكن لا يمكن ان تناح لهما
الفرصة الا بعد سفر زوجها الى (رونس) بعد السبت القادم .

وقال : - وحتى ذلك التاريخ ، اين يمكن لي ان اراك ؟
— غدا مساء لدى آل كوريل . تعال ايضا الى هنا يوم
الخميس الساعة الثالثة اذا كان لديك الوقت كما اظن اننا سنتغدى الجمعة
لدى الدوقه .

— هذا احسن ونهض :

— الى اللقاء

— الى اللقاء يا صديقي .

وظال واقفا دون ان يعمد الى الخروج لانه لم يكن قد توصل
الى قول شي من كل ماجاء من اجله وبقيت افكاره متخمة باشياء كثيرة
لم يعبر عنها ، خاصة باشياء مبهمه ابت ان تنطلق من عقالها .

وردد : - الى اللقاء . . واخذ يدها :

— الى اللقاء يا صديقي

— احبك .

ورشقته باحدى ابتساماتها . . تلك الابتسامات التي تعان فيها
المرأة للرجل في لحظة واحدة كل ما يمكن ان تمنحه اياه .
واضطرب فؤاده ورد للمرة الثالثة : الى اللقاء .
وخرج .



كان يجئ للناظران كل ما في باريس من عربات ومركبات

حجت في هذا النهار الى (قصر الصناعة) .

فما ان آذنت الساعة التاسعة صباحا حتى توافدت من جميع الشوارع والجلادات ومن فوق جميع الجسور الى معرض الفنون الجميلة حيث دعا كل من في باريس من فنانين كل من في باريس من خلائق الحضور عرض ثلاثة الاف واربعماية لوحة .

كان خط طويل متراس من الناس يتزاحم بالمناكب حول الباب وكان ليس به شوق لمشاهدة معرض النحت فانصرف الى قاعات عرض الصور . ففي الماشي والمصاعد علقق لوحات من نوع خاص عملت لتزين مثل هذه الاماكن او لعل اللجنة لم تجرؤ على رفضها فعلقتها في هذا المكان .

وفي الغرفة المربعة الفسيحة كان غليان شديد . وكنت تستطيع تمييز الفنانين بسهولة فهم في نشاط مستمر تلهع اصواتهم وتبدر منهم

اشارات أمرة منسلطة . وكان بعضهم يحجر اصدقاءه بساكنهم ليقلت
انظارهم الى لوحات معينة ويشرح لهم نواحي الجمال فيها بلهجة الخبير .
كان المرء يرى من هؤلاء الفنانين كل ضرب : طوال بشعور
مسترسلة وقد ارتدوا قبعات لينة رمادية او سوداء باشكال غريبة لا
توصف كأنها الشرفات الواسعة بخفاف عريضة مهدلة تحفي سمات
وجوههم . ومنهم من كان قصيراً نشيطاً ذا ربطة سوداء كبيرة وقد
ادخل جسمه في ثياب غريبة الزي تعرف منها ان لا يسها من طبقة الفوضويين
ومنهم من كان ذا سميت وشارة ، من كبار الفنانين المشاهير
او من اعضاء الاكاديمية وقد زينت عرواتهم تلك الورد الحمراء
منها الضخم ومنها ما لا يرى الا بالمجهر تبعاً لمفهوم الاناقة لدى كل منهم
وفوق جدران الفرقة المربعة علقت اللوحات التي نالت الاستحسان
وشرف العرض في هذه القاعة . كانت تلك اللوحات بديعة الصنعة
تلقت انظار الداخل باطاراتها الجميلة اللامعة وبألوانها الجديدة الصارخة
وقد زادها (الفرنيش) لمعاناً تحت النور القوي الهابط عليها من عل .
وتصدر المكان لوحة تمثل رئيس الجمهورية تقابلها لوحة لجنرال
مثقل بالاشرطة الذهبية - متبوع بعمره ذات ريش نعام طويل ، مرتدياً
سروالاً احمر من صوف . تجاوزها صورة تمثل عرائس البحر عارية ،
واخرى تمثل مركبا يفرق وقد او شكت الامواج ان تبتله ونالشة

تصور شارعاً في مدينه شرقية ورابعة تربنا الشاعر دانتي وهو يهبط الى الجحيم .

وكانت القاعة غاصة بصور الفرسان ، ومشاهد الصيد في الغابات ، والنيران في المراعي ، وثمة لوحة تمثل سيدين من القرن الغابر يتبارزان في زاوية الشارع ... وغيرها .. وغيرها كثير .. وبالاختصار كان في تلك القاعة نماذج من كل ما عمله الرسامون في باريس ومن كل ما سيعملونه حتى نهاية الدنيا .

كان اوليفيه واقفا بين زملاء من اشهر الفنانين منهم اعضاء في المجلس الفني .. ومنهم في اللجنة التحكيمية ، وكان الجميع يتبادلون الآراء . ولم يكن برناب مرتاحاً للصورة التي تقدم بها الى العرض وبالرغم من التهاني التي انهالت عليه لم يكن واثقاً من نجاحه بها .
واندفع نحو الباب عند ما رأى الدوقة دي مورتان قادمة :
وسألته : - ألم تفضل الكونتس بعد ؟
- لم ارها .

- والسيد دي ميزاديو ؟

- ولا هو ايضا .

- لقد وعدني ان يكون هنا في العاشرة . فوق هذا السلم

ليقودني الى القاعات .

— أو تسمحين لي بأن أقوم مقامه ايها الدوقة ؟
 — كلا . كلا . ان لاصدقائك حاجة بك . وسنراك بعد مدة اذ
 اننا سننغدي سوية هذا اليوم .
 ووصل ميزاديو راكضاً . وكان قد تأخر قليلاً في قاعة النحت
 فراح يعتذر لاهت الانفاس .
 قال : — من هنا ايها الدوقة من هنا . اننا نبدأ من اليمين .
 واختفيا في لجة من الرؤوس . وبدأت الكونتس دي غيروا
 متأبطة ذراع ابنتها تبحث بعينها عن اوليفيه برتان .
 ولحهما فاسرع اليهما وحياهما .
 وقال : — يا الهي كم انما جميلتين ! حقاً ان نانيت قد ازدادت
 وسامة خلال ثمانية ايام ...
 ونظر اليها بعين فاحصة . وتابع :
 — ان تقاسيم وجهها اشد لطفاً ، واعمق تعبيراً ، وبشرتها اكثر
 رواءً ولعناً ..
 ليست الآن تلك البذية الصغيره بل تلك الباريسية الحسنة .
 ثم انتقل الى حدث اليوم الجلل فقال لهما : لنبدأ من اليمين ..
 ولنتحقق بالدوقة .
 وسألته الكونتس باللغة الاهتمام بهذا العرض كأنها من اصحابه

— ما هو رأيهم ؟

— صالون رائع . وراح يعدد لها اللوحات التي استحوزت على استحسانه .

وقالت له : — وانت ؟

— انهم يشنون على لوحتي . غير اني لست راضيا عنها .

— انت لا يرضيك اي شي ...

— كلا . احيانا .. اما اليوم ففي الواقع انى اشعر بانقباض

وباني على صواب في تشاؤمي .

— ولم ؟

— لست ادري :

— هيا لنرَ

وبلغا لوحته . كانت تمثل فلاحتين تستحمان في غدير . وكان امام

اللوحة جمع من الناس يتمتع بهما . . وسرَّت بها . وقالت بصوت خفيض

— انها رائعة . انها جلية . انك لم ترسم اجمل منها قط .

والنصق بها بهيام وقد احس في كل كلمة من كلماتها مهدئا

لا لآلامه ولبسما لجراح نفسه .

واقنع ان الحق ما قالت فعينها الذكيتان لا تخطئان . وناسى

انه منذ اثني عشر عاما كان يتهمها بانها لا تفهم من الفن سوى البهرج

والاناقة والنعمومة امثا الروح الفنية الحقة فبعيدة عن ادراكها . . .
ثم راحوا يطوفون في قاعة المعرض . . . متقلبين من قاعة الى
قاعة وقناطويلا وهو يريهما اللوحات ويشرح لهما نبذاً عنها . كان سعيداً
بينهما سعيداً بهما .

وسألته الكونتس فجأة :

— كم الساعة الآن؟

— الثانية عشرة والنصف .

— هيا . سريعا الى الغداء . لا ريب في ان الدوقة تنتظرنا لدى

ليدوين فقد كلفنتي باصطحابك اذا لم نلتقِ بها في القاعات . . .

كان المطعم في شبه جزيرة من الاشجار والحائل شبيها بخليئة
نحل ناشطة الحركة ، تعلو فيه ضجة اقداخ وصحاف ونداءات وتنساب
عبر النوافذ والابواب المفتوحة على مصاريحها . وكانت الموائد مزدهجة
وقد احاط بها جمع غفير من الآكلين

وكان الكل يشرب ويهرج ويقصف وقد اشعلت فيهم الخمرة
روح المرح والاغنياء التي كثيراً ما نعلمها شمس باريس الى القلوب . . .
وقادم خادم الى الجناح الذي احتجزته الدوقة واقامت فيه
تنتظرهم .

وما ان دخلوا حتى لمح برتان المركيز فاراندال بالقرب من

عمته ، منهمكا باسمها ، وقد مد يده لتناول مظلتى الكونتس وابنتها
وممطفيهما . وشعر برتان باستياء مفاجئ * وبرغبة في ان يقول اشياء
وقحة وغير مهذبة .

وشرحت الدوقة كيف التقت بان اخيها بعد ان ذهب ميزاديو
بصحبه وزير الفنون الجميلة . وثار نفس برتان لدى تخيله ان هذا
المر كيز القمي * سيتزوج آنيث وانه لم يحضر الا من اجلها وهو يعتبر
نفسه نصيبها المحتوم وقدرها المكتوب .. ثار ثورة من احس حقوقه
الشرعية المقدسة تنهب وتداس .

وجلس المر كيز بالقرب من الفتاة على المائدة وراح يهتم فيها
اهتمام الرجل الذي يمارس حقاً طبيعياً :

كانت نظراته طفيلية وبدت في عيني الرسام رقعة ومتطاولة
وابتساماته الناعمة الراضية وتصرفاته البسيطة التي لا تكلف فيها ..
كل ذلك اشعل ناراً بين حنايا برتان .

وكانت الدوقة والكونتس راضيتين عن تصرفات الشاب بل
كانّهما مستعدتان للدفاع عنه والدود عن حياض تصرفاته وكانتا تتبادلان
بين الفينة والاخرى نظرات استحسان ورضى ...

وما انتهت الوليمة حتى عاد الجميع الى صالات المرض فوجدوا
الازدحام فيها شديداً لدرجة خائفة ولم تمض دقائق خمس حتي كان اوليفيه

والكونتس قد افترقا عن الباقيين فارادا الالتحاق بهم الا
الكونتس قالت :

— السنا سعيدين بانفرادنا . دهم فنحن متفقون على ان نلتقي
الساعة الرابعة في المقصف .

— صحيح ؟

غير ان فكره لم يغادر آتيت . فهو يتصور التركيز يلاحقها
بغاراته السمجة المتأثقة .
وتتمت الكونتس :

— حسنا . اما زلت تحبني ؟

فاجاب بلهجة لا واعية :

— وكيف لا .

وراح يبحث بين الرؤس عن قبعة السيد دي فاراندال الرمادية .
وشعرت به مشدت الفكر فشأت حمله اليها . فعادت تقول :
— لبتك تعلم كم اعجبني لوحك هذا الموسم . انها خير ما انتجت .
انها اطروفتك الكبرى (١)

وابتسم وقد نسي قلقه على مصير اللوحة :

— حقاً ما تقولين ؟

Votre chef-D'oeuvre (١)

— اجل لقد اعجبتي فوق كل ما عرض .

— اما انا فلست مرتاحاً اليها .

وبكلمات رقيقة راحت تهدد كبرياه وهي تعلم ان ليس
افعل في الفنان من الاطراء والثناء .

واثرت فيه كلماتها نائراً طيباً فعاد يثرثر وهو لا يرى الاّهما
ولا يسمع سوى صوتها في هذا الحشد الكبير المزدحم .
وشاء ان يشكرها فدنا منها وهمس في اذنها :
= اني احس رغبة مجنونه في معانقتك .

وطفت عليها موجة حارة . ورفعت اليه عينها اللامعتين واعادت
سؤالها :

= او تحبني دائماً ؟

واجابها بنبرة حارة :

= اجل . انا احبك يا عزيزتي آني . .

= تعال كل مساء . فانا لا استطيع الخروج بوجود ابنتي

وما لمست فيه هذه البقطة المفاجئة حتى احست عواطفها
تتحرك . وهي لم تعد تخشى عليه اغراء الاخباريات بعد ان ابيض فوداه
الاّ انها ما زالت تخاف خوفاً جنونياً عند ما تفكر انه قد يعود الى
الزواج هرباً من وحدته وعيشه الفارغ البارد . وهذا الخوف لم يكن

حديثاً بالنسبة اليها . وهو ما زال يقوى ويتضاعف مع مرور الزمن حتى انها لتشفق من ان يقضي سهراته الطويلة بمفرده فيقوى في نفسه احساسه بالوحدة والفراغ . . ولم يكن عيسورها ان تحتجزه دائماً ، فعمدت الى دفعه الى الملاهي للترويح عن نفسه فهي تفضل ان تراه بين النساء في المجتمعات على ان تجده وحده يعاني مرارة الانزواء في مسكنه الخالي .

وعادت تقول : آه . كم انوق الى الاحتفاظ بك دائماً تمال الي كل مساء فانا لا اخرج مطلقاً . .

— اني اعدك . .

وطرق اذنيها صوت قريب من اذنها :

— امي ..

واجفلت واستدارت فاذا بها ازاء آنيت والدوقة والمركيز .
وقالت الدوقة : - الساعة الرابعة . وانا تعبئة جداً واود الانصراف ايضاً . فلم اعد احتمل . . .

وقبل ان يخرجوا - آلت الكونتس برتان :

— سنأتي هذا المساء ؟

— اجل .

وعاد برتان الى العسالة حيث التقى باصدقائه الفنانين ليتبادلا

أوجه النظر حول المعرض . ولم يشترك معهم بالحديث بل ظهر ضجرا متبرما تواقا الى الانصراف فهذه الموضوعات لم تعد تثير فيه اهتماما فهو يعرف كل ما سيقال . وحتى لوحته لم تعد تثير فيه ذلك القلق .

فالمرْكيز وآني لا يبرحان خاطره لحظة . وما وجه اهتمامه بهما ؟ اله عليهما حق ما ؟ ولم يحاول عرقلة مشروع زواجهما ؟ غير ان شيئا لم يكن ليحول دون اتزاعجه وهو يشاهد فارندال يتسم ويحدث آنيت كما بفعل الخطيب حيال خطيبته وقصد بيت الكونتس مساء ذلك اليوم فوجدها مع ابنتها تـابـمان حياكة اغطية الفقراء ، لم يستطع ان يكتم اراءه الخاصة في المـركـيز . بل قد وجه اليه انتقادا حادا حاول فيه كشف سخافته واناقة المتبرجة امام عيني آنيت .

وكان برنان جالسا في مقعد مريح فصالب ساقيه والقي برأسه الى الورااء بدعة وطمئينة وراح يتحدث الى المرأتين ...

ولحظ انه يعتمد اختيار كلماته وانتقاء تعابير شـأن من يتكلم في حضرة شخص يهمه جداً ان يظفر باعجابه . . .

وهو يأتي كما عرف ان المرأتين وحيدتان . فيظفر بساعات لم يتذوق اطيب منها طوال حياته . . . ساعات من الدعة والاسترسال في عذب الاحاديث ...

وكانت الكونتس تسر غاية السرور لانصراف برنان اليها

كل هذا الانصراف فكانت ترفض اكثر الدعوات لقضاء السهرات في المدينة او لحضور المراقص . كما كانت في بادئ الامر تتمسك الى الانفراد به فما ان تدق العاشرة حتى نوعز الى ابنتها بالانصراف الى سريرها . غير ان برنان لم يرضه هذا التصرف فقال للكونتس : امازلي تعاملينها كأنها طفل صغير شقي . وطلب لها ربيع ساعة ثم ساعة . . . فما ان تغادر الصالون حتى يكتشف ان نصف الفتنة قد اضمحلت وما أن تنصرف الفتاة حتى ينتقل برنان الى مقعده المنخفض المفضل ويجلس تحت اقدام الكونتس ويربح خده على ركبتيها بينما تعطيه احدي يديها فيحسان الحمى التي تمور في صدرهما آخذه بالانخفاض . .

ولم يغب عن غريزتها الانثوية ، مع الايام ، ان آتيت تجذبه اليها . . وضاعفت اهتمامها باحتجازه بينهما دائما . . وكانت تقوم امامه بدور الامام لتحمله على الشعور بانه بالنسبة لهذه الفتاة كآب يقدق عليها حنوه وعطفه . . فيزداد تعلقه بها وبييتها . وبالرغم من ان انوثتها ظلت طاغية مسيطرة الا ان ثقل العمر لم يخف عليها وراحت مدفوعة برغبة صارمة في ان تحتفظ بكل فتنتها وان تبقى كابنتها رشيقة ، راحت تمتنع عن المشروبات والمآكل الدسمة حتى ان نحافاتهما اضفت عليها هيئة فتاة هذراء . ولكن انخفاض خديها كان يتم عما تنكب في سبيل ذلك من حرمان . . . وبدأت بشرتها بالاسترخاء ومال لونها الى

الشحوب الامر الذي كان يظهر ابتها بالقرب منها شديدة الحيوية بالغة
الفتنة .. فعمدت الى الطرق الاصطناعية في تزيين وجهها كما تفعل
الممثلات ... فعدا وجهها فاتناً حقاً .. وجه امرأة تجيد التبرج بشكل
يسمح عليها فتنة مصنوعة وليكنها جذابة خلافة .

وكانت تتجنب الظهور في وضع النهار الذي يفضح اساليب
تبرجها وتفضل الانوار الاصطناعية التي تخفي ما في وجهها من جمال
مجلوب بتطريه ..

وكانت في الايام التي تشمر فيها انحطاطا في قواها واقترابا من
الكهولة تنزوي في حجرتها مدعية التوكل .. وما ان تحس نشاطا
وحوية حتى تعود الى تمثيل دور الاخت الكبرى .. مع ابتها فترتدى
اثوابا شبيهة باثواب ابتها وتزين كما تفعل الزوجات الشابات ، اما
انيت فكانت قد ادركت بغريزتها ما ترمي اليه امها من تشبه بها
فكانت تغذي فيها هذا الامل ولا تعدم مناسبة لتظهر لها كم هي جميلة
وفقية وان ليس بينهما فارق كبير .

ولشدة ما اعتاد اوليفيه رؤيتها سوية انتهى به الامر ان اصبح
يخلط بينها .. فكثيراً ما كان يتساءل وهو يصغي الى الفتاة دون
ان ينظر اليها : ايها تحدثه ؟ »

كم كان يستعذب هذه اللعبة فاذا ما كانوا منفردين في الصالون

طراز لويس الخامس عشر كان يغمض عينيه ويرجوها ان تخاطباه
الواحدة تلو الاخرى . ثم تعيدان السؤال ليحاول معرفة مخاطبته .
فكانتا تجتهدان في ان تقلدا الواحدة منها الاخرى في نبرة صوتها . ولشدة
تمرنهما على ذلك واتقانهما له تداخل الامر حتى على الخدم : فكانوا
يجيبون الام : نعم يا آنسة . ويخاطبون الابنة : اجل يا سيده . . كما
اختلف الامر على اوليفيه نفسه فكان اذا رأى احداها تعبر في اعماق
الصالون : يتساءل : اراى الام ام الابنة ؟ ومن هذا الشبه الطبيعي
والمصنوع ، الحقيقي والمتكلف ، خلقت في نفس الرسام وفي قلبه فكرة
ازدواج هاتين المخلوقتين الواحدة قديمة والاخرى جديدة ، الاولى
معروفة لديه اعمق المعرفة والثانية مجهولة اكبر جهل .

وأخيراً خيل اليه ان الجسمين قد اندجبا وشكلا جسماً واحداً
شاباً كما كانت معشوقته يوم عرفها في الايام الخوالي . وهكذا عاش
بين الاثنين ، موزعاً بينهما ، مضطرباً ، قلقاً ، يحمل للام حبه القديم
المستيقظ ، وللابنة حناناً غامضاً مبهماً

الكتاب الثاني

- ١ -

باريس في ٢٠ تموز (الساعة الحادية عشر مساء)

يا صديقي . لقد توفيت امي في دونسيير . اننا ذاهبون في
منتصف الليل . لا تأتِ لا تنالِ ندع احداً . تحسر هلي وفكر في* .
حبيبتيك آني

٢١ تموز . ظهرآ .

يا صديقتي المسكينة . لولم اكن قد اعتدت على اعتبار ارادتك
امراً للحققت بك رغماً عنك . اني افكر بك منذ امس بمرارة قاتلة .
فكرت في هذه الرحلة الصامتة التي قمت بها مع زوجك وابنتك في
مركبة ضئيلة النور سارت بكم نحو فقيدتكم . ثم تخيلتكم انتم الثلاثة
فوق النعش تبكون وآيت الصغيرة تذوب حشرات . وتخيلت
وصولكم الى المحطة والرحلة الهائلة في العربة ثم دخولكم الى القصر
يحيط بكم الخدم ثم اتجاهكم نحو الغرفة حيث ترقد الفقيدة . .

ورأيتك بعين خاطري تنحنين موقها وتطبعين على وجهها الناحل الجامد
قبلة .. فكرت في قلبك .. قلبك المسكين .. الذي املك نصفه ..
فكرت فيه كيف سحقته هذه الفجيرة .. فكان نصيبي فيها كنصيبك
اقبل عينيكَ الملتين بالدموع .

اوليفيه .

واستمر تبادل مثل هذه الرسائل العابقة بـ .. آني الحب الحقيقي الذي
صهرته هذه الآلام فاحالته حساسا بالغ الحساسية ، يضطرب الا لم كما
يضطرب للفرح كالطير احس مسكين الذابح فوق نحرة وكان هذا الا لم
المشترك صهر كل ما كان قد علق بنفس اوليفيه من برم وضجر فراح
يكشف لعشيقته عن عاطفة صادقة ماثبة هي نتيجة حب عاش اعواما
لم تزده الا قوة وحرارة واندفاها وتلقى منها رسالة تعلن فيها قرب
عودتها .. ولم يشمر ، كما كان يتوقع ، ان الايام قد خففت شيئا من
حزنها بعد ان مرت فترة على موت امها .. وكانت قد اعلنت له ان
زوجها سيصل باريس قريبا . وما ان استلم هذه الرسالة المعلقة عودتها
المتأخرة ، حتى شعر برغبة عنيفة للسير الى المحطة ثم يركب القطار
ليقصد رونسيير ، ثم تذكر ان السيد غيروا سيصل في الغد ، فراح
يرقب قدميه بصبر فارغ كما لو كانت هي التي ستصل .

لم يشعر حبا لغيروا كما شعر له في فترة الانتظار تلك

ولما رآه داخلًا في اليوم الثاني اندفع نحوه وبدأه بمدودتان

وهتف :

— آه يا صديقي العزيز كم أنا سعيد برؤيتك .

وبدا الزوج شديد الغبطة وخاصة لأنه عاد إلى باريس ذلك أن

الحياة في النور مندي لم تكن بهجة خلال الأسابيع الثلاثة الماضية .

وجلس الرجلان إلى مقعد صغير في زاوية المرسوم تحت سقف

من قماش شرقي وتناولوا أيديهما بحركة تودديه وراحا يجددان المصافحة

وسأله برتان : — والكونتس ؟ كيف هي ؟

— آه . ليست من ما يرام . كانت الصدمة قوية بالنسبة إليها

وهي لا تكاد تسترد روعها . وأفكاري مشغولة بها .

— ولكن لماذا لم تعد ؟

— لست أدري فقد استحال علي حملها على العودة .

— وما تعمل طوال يومها ؟

— بالمسكنة .. أنها تبكي مفكرة بامها . وهذا لا يلائمها وكان

يودي لو رضيت تغيير الهواء وعلى الأخص مغادرة المكان الذي يذكرها

بساعات أمها الأخيرة .

— وأنت ؟

— زهرة تفتتح وقد اعتورها بعض الذبول .

وَأدرك أوليفيه بعض السرور . وتابع يسأل .

— أو أحزنها ذلك كثيراً ؟

— أجل كثيراً . كثيراً ولكن . . . انت تعلم ان حزن الثامنة

عشر لا بدوم طويلاً . . .

وعاد غيروا يقول بعد فترة صمت :

— اين ستنعشى أيها العزيز ؟ ان بي لرغبة ملحة الى الاستغراق

والاصغاء الى الضجة ورؤية الحركة . .

ولكن ليس سوى قهوة (السفراء) في هذا الفصل . . .

وانصرفا وقد تعانقت ذراعاهما واتجها نحو الشانزليزه ، وكان

غيروا فرحاً فرح الباريسي الذي يعود الى المدينة ، فتبدو له بعد كل

غياب كأنها قد استعادت شبابها وامتلات بالمفاجئات ، وراح يسائل

الرسام عن اصغر التفاصيل و كان برنان يجيبه بعدم اكترات محاولاً

دائماً حمله على التحدث عن رونسبير كما يفعل المرء عند ما يقابل شخصاً

فادر شخصاً حبيباً ويود معرفة كل التفاصيل عن حياته اثناء الغياب

كان المساء يبدو ثقيلآ فوق المدينة . فالفصل صيف . وجلس الرجلان

في شرفة « قهوة السفراء » وراحا يتحدثان في المقاعد المصفوفة في الحديقة

تحتها او يشاهدان عن بعد الراقصات في مقصوراتهن تحمى الانوار

الكهربائية وهن يسوين هندامهن البارع وبين الفينة والاخرى كانت

تدخل سيدة يتبعها رجل يبحثان عن مائدة محجوزة . الرجل في ثياب
سود والمرأة تسحب خلفها ضبابا من عطر قوي ينتشر من ثوبها
ومن جسمها .

وتتم غيروا شديد الابتهاج : - كم افضل ان اكون هنا
وليس هناك .

واجاب برنان : امّا انا فافضل ان اكون هناك وليس هنا !
— دعنا من ذلك !

— اقسم لك . ان حر باريس لا يطاق هذا الصيف .
— ولكنها تظل دائما باريس ...

وظهر النائب كانه في احدى المواقف التي يندفع فيها المرء مع
عاطفته فيقول اشياء سخيفه مها كان ذا مقام رفيع . .
وكان بقربهما ثلاث غادات يتمشين برفقة ثلاثة شبان نحفاً
جدي المظهر فسأل غيروا عنهم . كما كان يسأل عن كل فتاة تمر بهم
او تدخل المقهى .

ثم تتم بنبرة فيها الكثير من الاسف :
— من حسن حظك انك مازلت عازبا . . مما يتيح لك ان ترى
وتفعل اشياء كثيره

اما اوليفيه فراح يشكو لغيروا ضجره ووحدته . وما ان انتهى

من الشكوى مدفوعاً بحاجته الى العزاء والى املاء فراغ حياته بامرأة
تبادل له الحب وتشاركه الحياة ، ما انتهى من ذلك حتى وافقه الكونت
على قوله معدداً ما للزواج من ميزات واندفع ببلاغته الخطابية يصف تلك
الحياة العائلية التي لم يذق طعمها الا المتزوجين ، واثني ثناء طيباً على
الكونتس فكان اوليفيه يوافق بهزات متتابعة من رأسه

كان سعيداً بان يسمع من يتحدث عنها . وشعر بغيرة لما يصف
زوجها من ضروب السادة تغدقها عليه . وانتهى بان تتم بلهجة مفتعلة
— اجل . انك لسيد وافر الحظ .

وعاد النائب الى الحديث بعد ان غمره اطراء جليسه بموجة
من افتخار :

— كم اود ان تعود . فهي تشغل افكاري حقاً . اسمع . تقول
انك ضجر في باريس فما عليك الا السفر الى رونسير والعودة بها . انها
تصني اليك . لانك صديقها المفضل .

بينما انا ... لست سوى زوجها ... كما تعلم ...

وطار اوليفيه سروراً لاقتراح للكونت :

— هذا جل ما ابتغني .. ولكن لا تعتقد ان ذلك قد

يسى بها ..

— كلاً ... طلقاً .. دعك يا عزيزي ..

اني اوافق اذن . سأسافر غداً بقطار الواحدة . امن الضروري
الابراق اليها ؟
— كلاً . دع ذلك لي . سأنبئها بذلك كي ترسل عربة نمود
بك من المحطة .

وكان قد فرغ من الطعام فصعدا بسوية الى الشارع وسارا منتهلين
ولكن لم تمض نصف ساعة حتى غادر الكونت اوليفيه زاعماً ان
لديه مشاغل هامة عاجلة كانت قد غابت عن ذاكرته .



جاءت الكونتس وابنتها الى المائدة وقد ارتدتا نياياً من
حرير اسود ، كانت القاعة فسيحة وقد زينت الجدران بصورتي جدي
المائلة احدهما يرتدي درعاً والآخر ثوباً ملتصقاً بجسده ، فالاول
ضابط في الحرس والثاني كولونيل في عهد حكومة الشعب وكانت
الصورتان في اطارين قديعين مذهبين الا ان تذهيبهما قد ادركه التلف
وكان خادمان يقومان بقضاء حاجات المرأتين يسيران بخطى مخنوقة ،
والذباب يطوف حول الثريا المعلقة فوق المائدة فيشكل نقطا سودا
كانها غيمة متحركة ذات ازير .

وقالت الكونتس : افتحوا النوافذ . اني احس رطوبة .
وفتحت النافذتان المريضتان العاليتان . ودخلت هبة من هواء
فاتر يحمل انفاسا حارة عابقة بارج المشب الحار تموج فيها ضجة بعيدة
آتية من الريف ، فامتزجت بهواء الغرفة الرطب المحبوس بين جدران
القصر السميك .

وقالت آنيث وهي تنفـس على رثيـها :

— ما احسن هذا

فاجابها السكونتس وقد سرحت ناظرهما في الجو الازرق

الفسيح :

— سنقوم بنزهة طويلة بعد الغداء . نستطيع ان نبلغ برفيل

سيراً على الاقدام بان نسير على شاطئ النهر لأن الحرارة تكون اخف
منها في السهل .

— اجل يا اماء وسنصحب جوليو معنا ليطارد الحجال .

— انت تعرفين ان اباك يمنع ذلك .

— وما ان ابي في باريس .. فانه لمن اشد دواعي السرور

رؤية جوليو في مطارده تلك هو ذا يهاش الابقار . يا الهي ما اغربه !
ودفعت كرسيا الى الوراء وانطلقت الى احدي النوافذ
وصاحت :

تشجع يا جوليو تشجع

كانت ثلاث بقرات ضخام تستريح فوق المرعى وقد شبت

من العشب الندي وخط بها الحذر فاستلقت على جوانبها تستريح .

وبالقرب منها كلب صيد رشيق ابيض واصهب بقوايب نابجاً نابجاً جنوباً

فيه مرح كثير وهو يحاول انهاض الحيوانات الثقيلة وهي لا تريد .

ومكثت آتيت فترة طويلة تراقب الكلب مقتبلة بجر كانه

الرشيقة وتوثبه النسيط وهي تهتف به مشجعة الاونه بعد الاخرى .
وفجأة رفعت يدها وظللت عينيها ونظرت بعيداً :
— هو ذا الموزع .. انه يحمل برقية ..

وفي الممر الضيق بين حقول القمح والشوفان بدا قيصر ازرق
كانه يطفو فوق السنابل سائراً بخطى متزنة .

وهتفت الكونتس : - يا الهى ... لا تجعله خبراً سيئاً ...
وارتجفت كأن جزعها لسماعها خبر موت امها بواسطة البرق
مازال فاعلاً في نفسها فهي لا تستطيع فض خاتم الورقة الزرقاء التي
قدمها اليها الموزع دون ان تشعر اناملها ترتجف وتضطرب وروحها
تتحفز وتوثب وقد حسبت ان من بين طيات هذه الورقة سبيرز لها
حزن غير منتظر .. يستدعي منها بكاءً مريراً ...

اما آنيث فكانت ، بفضل شبابه وتوثبها نحو الحياة ، اقل
جزعاً من امها ، فهي لا تنتظر ، تبعاً لنفسيتها الشابة ، الاً املاً
وسروراً من برقية يحملها موزع البريد .

وانقطعت الكونتس عن تناول طعامها واقامت تنتظر هذا
الرجل الذي يحمل كلمات قلائل قد تكون خنجراً جديداً يصمي قلبها.
واعترض القلق فؤادها . فما هو هذا الخبر العاجل المحمول على اجنحة

البرق؟ ومن؟ وعبرت خاطرها فكرة عن اوليفيه . اهو مريض؟
ام تراه قضي؟

وكان الدقائق العشر التي مكثتها منتظرة لا تنتهي . واخيراً
فضت البرقية وطارت انظارها اولا الى التوقيع فعرفت فيه اسم زوجها
وقرأت :

« اعلن لك ان صديقنا برتآن سيصل رونسيير بقطار الواحدة
ارسلي عربية الى المحطة . لك حيي »

— حسنا يا امي ؟

— انه السيد اوليفيه برتآن آت لزيارتنا .

— يا للحظ السعيد ! ومتى يصل ؟

— بعد فترة قصيرة .

— الساعة الرابعة ؟

— اجل

— حقا انه لطيف جداً ...

غير ان الكونتس شعبت ، فان قلقا مبهما نبت في نفسها منذ
مدة وراح ينمو نمواً مضطرباً وقد ادركت ان حضور الرسام
المفاجي 'يخبي' لها خطراً شديداً لم تكن قد فطنت اليه قبلاً .
وقالت لابنتها : ستذهبين للملاقاة مع العربية .

- وانت ؟ الا تأتين معي يا اماء ؟
- كلاً . سأنتظركما هنا
- ولم ؟ فقد بسؤه تصرفك هذا .
- لست على ما يرام
- كنت تبغين السير الى بر فيل منذ لحظات ...
- ضحيح غير ان الطعام قد ازعجني .
- حتى تلك الساعة ؟ كوني حالك قد تحسنت .
- كلا . سأوي الى غرفتي . اخطربني لدى وصولكما .
- اجل . يا اماء .

وبعد ان اصدرت امرها باعداد العربة لتكون جاهزه في الساعة المعينة كما امرت باعداد شقة للضيض ، ثم صعدت الى غرفتها واعتكفت فيها .

لقد مرت حياتها حتى هذه الساعة تقريبا دون هم حقيقي ما خلا حبها لاوليفيه وما تكبدت في سبيل الاحتفاظ به من عناء . وقد قيض لها النصر في كفاحها ذاك . وقد افعم قلبها بهذا الانتصار وبالثناء المستمر ، فكانت كسيدة ارسقراطية ، قد ظفرت بزواج غني ، وكان لا بد لها من حب لتتم سعادتها به ، فكان اوليفيه الحبيب المنشود ، مطيعه بذلك ميولها اكثر من طاعتها لنواهي الدين ، ذلك لتجارى الركب الاجتماعي المتحلل من مثل هذه المعتقدات ... وقيد اناحت

لها الاقدار الانزلاق في علاقتها الاثمة مع اوليفيه ولم تستطع بعد ذلك نكوصا ، بل على العكس ، راحت تنسب به تشبها مصرا غير انها شيئا فشيئا ، ويوما بعد يوم ، احست بقلق مبهم بداخل مشاعرها ، قلق كأنه ثقب لا يفتأ يتسع ، وجرح لا يعرف الاندمال . وادركت ان تقدم السن لا يمكن ان يقف شي بوجهه ، وبغريزة الانثى المستسلمة اطبقت عينيها وتركت نفسها تنزلق مع العمر على منحدر الحياة ...

وحافظت على ابتساماتها ، التي شابهها شي مصطنع في الايام الاخيرة ، فكانت عند ما تظهر في المجتمعات وبالقرب منها ابتها ذات الثمانية عشر ربيعا لا تحس بالحسد او الالم ، بل على العكس ، تشمر بالاعتزاز والفخر ، فابنتها المنفتحة على الحياة ولما تنضج بعد ، تضفي عليها هي معاني النضوج ودنو القطاف ... ولم تكن ابتها في رواء الصبا الرقيق الخلاب الا صورة لما كانت عليه امها قبل ان تبلغ من نضوج الجسم والعقل ما بلغت ...

وقد اعتقدت ان سعادتها قد اكتملت بهذه الشابة الصارخة الجمال يوم حانت بها فجميعتها بامها ... وفي الايام الاولى التي تلت الوفاة احست آني يأس لم يترك في قلبها مكانا لشي آخر ...

وذات يوم ، دخلت وصيفتها عليها صباحا وازاحت السجف ، وسألتها : كيف سيدتي اليوم ؟ اجابت بلهجة محطمة : لست على مايرام

واجابتها الوصيفة وهي تقدم لها الشاي : - حقاً ان مظهر
سيدتي محزن جداً . ان سيدتي تفعل حسناً اذا اعتنت بنفسها وزينت
وجهها »

وهبطت قولة الوصيفة على قلب الكونتس هبوط الخنجر .
وما ان انصرفت حتى نهضت آني الى امرأة الخزانة وراحت تتأمل
وجهها فيها .

وادركتها الدهشة لما رآته من معالم النحول في وجنتيها
المنخفضتين فاشد ما اثرت فيها هذه الايام الاليمة ايام الحزن الشديد
والبكاء المتواصل . حتى لقد بدا وجهها الذي طالما تأملت في كثير من
المراتي والتي تعرف كل تعابيرها وابتساماته وفنته ، بدا لها الآن
كوجه امرأة اخرى ...

واقامت مدة تستعرض جمالها بدقه متمسكة بشرة خديها ناظرة
الى اسنانها التي أخذ لونها بالاكمداد قليلاً ، وفتح الباب فجأة
فادركتها ارتعاشة واستدارت لتجد وصيفتها تقول لها : - لقد فات
سيدتي ان تأخذ الشاي .

ولحظت الخادم اضطراب سيدتها وخجلها فتابعته :
- لقد بكت سيدتي طويلاً . لا شيء كالبكاء يذيب الجسم
وينهك الصحة . انه يحيل الدماء ماء .

واضافت الكونتس بخزن :

— ولا تنسي العمر ايضا .

ففتفت الوصيفة : كلاً . كلاً يا سيدي . ليس هذا هو السبب !
فبقليل من الراحة تستعيدن صحتك وشبابك الذابل . وعلى سيدي
ان تنزه وان تحاذر البكاء .

وما فرغت الكونتس من ارتداء ثيابها حتى هبطت الى الحديقة
وقصدت الحائل التي كانت تحب الاعتناء بها فتجتني منها الاوراد ،
ثم تابعت سيرها بموازة النهر حتى آتت موعد العشاء . عندما نالت
الكونتس برقية زوجها معلنة قدوم اوليفيه احست رغبة في الهرب
فهي لم تكن تمنى هذه الزيارة من عشيقها وهي على مثل هذه الحالة بل
لو خيرت لفضلت ان يتأخر قدومه اسبوعين آخرين . فبقدورها
، خلال اسبوع ، وبزيد من العناية بنفسها ، ان تغير من هيئتها الكئيبة
تلك ومما زاد من سوء حالها انها تبدو بالقرب من ابنتها في وضوح النهار ،
وتحت شمس آت الساطعة كمجوز شمس . ولذا قررت فجأة عدم الذهاب
لاستقباله في المحطة بل في الصالون الظليل ... كان بها الى البكاء رغبة
ملحاح ...

ولكنها تمكنت من مقاومتها فما ان تشعر اهدائها مبللة حتى
تسارع الى مسحها بسرعة ثم تنهض وتمشي ، ثم تنظر الى الحديقة
او ترنو الى اسراب الغربان التي ترسم في السماء الزرقاء الفسيحة خطوطا

منحية طويلة فوق رؤوس الاشجار الباسقات .

ثم عادت تخطر امام مرآتها ، فتمسح دومة او تصاح شيئاً في
وجهها بقايل من المسحوق ، ثم تنظر الى الساعة مخمئة اي مرحلة من
الطريق يكونان قد قطعاه . . وسمعت فجأة فرقة سوط في البعد ،
فخفت الى النافذة ورأت العربية تدور حول الحديقة وقد انطلق جوادها
بسرعة كبيرة .

كان اوليفيه جالسا في اعماق العربية الى قرب آنيث وقد شرع
يلوح لها بمندبل ساعة رآها فردت تحيته ملوحة يديها الاثنتين ونزلت
لملاقاته وقد اخذ قلمها يحقق بشدة الا أنها كانت سفيذة . . . بل باللغة
السعادة اذ شمعت به قريباً منها تستطيع الانصراف اليه ومحدثته .

والتقيا في الفرقة الملحقة بالصالون . وتلقاها بذراعين مفتوحين

بحركة لا تقاوم ، وبصوت حار فيه شوق حقيقي :

— آه اينها الكونتيس المسكينة : اسمحين لي بان امانك ؟

واطبقت عينيها ، وانحنى ، والتصقت به مقدمة له خديها

ومحست له وهو يطعم قبلانه فوقهما : - احبك .

ودون ان يترك اوليفيه يديها رفع عينيها اليها وقال :

— كم هو كثيب وجهك ؟

واحسنت انها تنكاد تنهار... وتابع : - صحيح انك شاحبة
 قليلا... ولكن لا عليك فهذا شيء عابر...
 وشاءت ان تشكره فقالت : - آه يا صديقي العزيز...
 وسكنت لا تجد ما تقول .
 وكان قد استدار باحثا خلفه عن آنية التي كانت قد اخفت :
 - اليس غريباً ان ارى ابنتك في ثياب الحداد...
 وسأله الكونتس : - لم ؟
 وصرخ بحرارة غير عادية :
 - لم ؟ ولكنها هي اللوحة التي رسمتها لك . انها لوحتي ! انها
 أنت . التي كنت التقى بها لدى الدوقه ! الا تذكرين ذلك الباب الذي
 مررت به امام ناظري كما تمر السفينة امام مدفع البرج ! ادر كنتي
 آنذاك رغبة في البكاء . ان احدا لم يعرفك كما عرفتك ، ولو فعلوا
 لاصابهم مس . فانا قد تأملتك ، واحبينك ، ورسمتك ، كما لم يفعل احد
 من قبل ! آه... مثلاً... لقد ظننت انك شئتي مفاجأتي فارسلني
 آنية الى المحطة !! اجل ! اجل ! لقد فوجئت حتى كدت أجن !..
 ونادى : آنية... نأني...
 وجاءه صوت الفتاة من الخارج اذ كانت تقدم قطع السكر
 للجياد...

— ها انذا . ها انذا !

— تعالى . اذن . الى هنا ..

وجاءت تعدو :

— قفي بالقرب من امك .

ووقفت وراح يقارنهما وردد بشكل آلي : مدهش .. مدهش .
ولم يكن الشبه بينهما كاملاً كما كانت في باريس . فان هذا الهندام
الاسود قد اعطى للفتاة لمعاناّ اخذاً بينما كانت جذوة الام قد خبت
منذ امد غير قصير ... جذوة الشعر والبشرة التي كانت تلهب احاسيس
الرسام في الايام الخوالي .

ودلف مع الكونتس الى الصالون . وبدا شديد السرور بالغ
الغبطة . وقال :

— انها فكرة موفقة . فكرة حضوري .. ثم تابع :

— كلا ... انه زوجك الذي اوحاهما الي . كلفني باستصحابك
الى باريس . وانا ، اتملين ما اقترح - كلا طبعاً ؟ . اني اقترح ، عكس
ذلك ، ان تقيمي هنا فترة اخرى . ان باريس هائلة بحررها ، والريف
رائع بجماله . ما اجمل الجو يا الله ! وكان المساء قد جلبب الكون واغدق
على الحديقة طراوته ، وداعب اوراق الاشجار واطلق من الارض
رائحة لذينة بمنعشة ومخاراً شفافاً القى على الافق نقاباً خفيفاً في صفاء

البلور . وكانت البقرات الثلاث في الخارج ما تزال ترعى العشب
بنهم واربعة طواويس تحفق باجنحتها وهي تثب الى جذع شجرة
صنوبر اعتادت ان تنام فوقها تحت نوافذ القصر . . . وفي البعد كانت
تعلو اصوات كلاب تنبح في اعماق الريف ، ونداءات اصوات بشرية
تعكر صفو المساء وكان الرسام قد عرّى رأسه وراح يستنشق الهواء
ملى رثيته والى قربه الكونتس تنظر اليه . قال : - هذه هي السعادة .
ودنت منه وقالت : - ولكنها لا تدوم ابداً . . .

— لنغتنمها ساعة لنسبح

فابتسمت وقالت : - لم اعرف فيك حبك للريف قبل الآن .
— اني احبه الآن لانك فيه . لست اقوى على العيش في
مكان لست فيه . فعندما يكون العاشقان شابين ، يستطيعان ان يتحابا
مفترقين ، بالرسائل ، بتبادل العواطف . . ولعل مرد ذلك انها يشعران
بدفق الشباب في عروقهما وبنزوات الحياة تصطبغ بين اضلاعها . . .
او ربما كان لهما صبر اكبر على تحمل البعد . . . واما في مثل سني فالحب
اضحى عادة . . . عادة لرجل مقعد . . . بلسماً للروح التي لا تصفق الا
بجناح واحد وبالتالي لا تقوى على التحليق بعيداً مع الاماني المذاب . . .
لم يعد للقلب ذلك الوجد اللاهب . . وانما انانية بغيضة . .
هذا ومن ناحية اخرى فاني ادرك ان لم يعد لدى الوقت

الكافي لتبديده ...

وقالت وهي تأخذ يده : آه ... ايها الكهل ! ...

واعاد : - اجل ! اجل ! اني كهل . وكل شيء في يصرخ بذلك شعري . طباعي المتحولة . الكآبة التي تدهمني .. يا الهي . هذا شيء لم افطن اليه قبل الآن : الكآبة . فلو قيل لي وانا في الثلاثين انه سيأتي وقت احس الكآبة دون سبب واضح معقول . لما صدقت ذلك ... وهذا يدل علي ان قلبي ... قد اخذ يكتهل ...

واجابه بثقة عميقة : - امّا قلبي فما يزال في شرح شبابه . لم يتغير . بل .. لقد جدد شبابه .. فقد بلغ العشرين .. غير انه لم يتجاوز السادسة عشر ...

واستمر في مثل هذا الحديث فترة طويلة امام النافذة المفتوحة وقد امتزجت انفاسهما بانفاس الماء .. وكانا دانيين كما لم يكونا قبل ذلك قط ... وثار فيهما الحب .. في ساعة الشفق تلك .. كما ثور العواطف لدى ولادة النهار ...

ودخل خادم واعلن : - المائدة معدة يا سيدتي الكونتس .

فسألته : - أأحضرت ابنتي ؟

- الآنسة في غرفة المائدة .

وجلس الثلاثة الى المائدة . كانت النوافذ مغلقة . وثریتان

يست شمعات كل واحدة كانتا اذريان نورها فوق آيت التي بدا
وجهها الجميل في اطار مذهب من نور المصاييح المتزج بلعمان شعرها
الاصهب .. وكان برتان لا يفتأ يتأملها باسمك ... وقال : - ما اجهلها
في السواد يا الله ...

واستدار الى الكونتس وهو لا ينفك يتأمل الفتاة كما لو كان
يشكرها لما اتاحت له من متعة النظر الى ابنها ..

وكان القمر قد ارتفع فوق اشجار الحديقة عندما عادوا الى
الردهة . وكانت كتلة الاشجار المعتمة تبدو كجزيرة في قلب الريف
الشبيه بالبحر المغطى ببقاب من ضباب بهيد يطفو فوق السهول ...
قالت آيت : - هيا نقيم بنزهة يا امه

ووافقت الكونتس ..

- سأخذ جوليو .

- لا بأس .

وخرجوا . وسارت الفتاة في المقدمة تلهو مع الكلب . وعندما
دنوا من الحيلة سمعوا البقرات تنفخ كأنها احست دنو عدو فاستفاقت
مذعورة . وكان القمر تحت الاشجار البعيدة ، يذرذر اشعة ناعمة تسيل
حتى الارض قبل الاوراق وتبرقع الارض بنقط منيرة لاهمة . وكانت

آنيث وجوليو يمدوان كأن قلباها تشابها بافراغ والذشوة بهذا الليل
الهادي الساجي ...

كانت الفتاة تمر ، في البقع المنيرة بين الاشجار ، كأنها طيف في
رؤيا جميلة ، وكان الرسام يستوهم ذلك المشهد دهشاً بقوامها القاتم
ووجهها الصبيح . وتناول يد الكونتس عندما ابتعدت الفتاة وراح
يضعفها . واذا ما عبرا بقعة كثيفة الظلام تلمس شفيتها فكان رؤية
آنيث تثير فيه الشوق القديم الكامن ...

وبالغا اطراف المرج ... وظهرت لهم اشجار الحقول بعيدة
قائمة لا تكاد تميز . وكان الافق منيراً عبر ستائر الضباب الشفاف وفي
اعالي السماء سبحت غيوم رقيقة طويلة كأنها خيوط الفضة ... وكان
هدوء الليل يعم الكائنات ويسمع في صمته العميق النور مئات الاصوات
التي تم عن الحياة المستكنه في اظلام ذاك الليل ... اصوات اشبه في
دعيتها وهدوئها بالصمت العميق البعيد النور ...

وقالت الكونتس وكانت هي والرسام مفتردين :

— لماذا تنقضي مثل هذه اللحظات سرية هكذا ؟ الا يمكن
المرء ان يوقف عجلة الزمن ولو لوقت وجيز . . فليس لدينا الوقت
لتذوق اطايب هذه اللحظات العابرة على الاقل . . لقد انتهى كل شيء
ولثم اوليفيه يدها وقال : آه . . لا احب الخوض في الفلسفة

هذا المساء .. لنا الساعة التي نحن فيها . وتمت :

— انت لا تحبني كما احبك .

— آه .. مثلاً ...

وقاطعته : كلاً .. فانت تحب فيّ كما كنت تردد قبل العشاء
امرأة تشيع رغائب قلبك امرأة لم تسبب لك اي ارهاق ، امرأة القت
في حياتك بعض السعادة .. وانا ادرك هذا تمام الادراك . اني لمرتاحة
الضمير . واني لسعيدة لانني لم اقصر يوماً في واجبي تجاهك لقد
احببت وما زلت تحب فيّ كل ماتجده جذاباً ، اهتمامي بك ، اعجابي
بأعمالك ، وصرف همي لارضائك ، اشتياقي اليك واستسلامي الكامل
بين ذراعيك .. ولكن ليس شخصي الذي تحب انهم ! آه . اني
لا حس ذلك كما يحس المرء نياراً من الهواء البارد يلفحه . انت تحب
فيّ الف شيء : جمالي الآخذ بالنواء ، اخلاصي لك ، مرحي ، رأيي
المجتمع بي ، رأيي بك الذي احتفظت به ضئيلة في سويداء قلبي ..

ولكن ليس انا ! ليس شخصي فحسب ، الذي احببته وتحبه ! انهم !

وضحك ضحكة قصيرة ودية :

— كلاً ! انا لا افهم جيداً ما تعنين ! فانت توجهن لي طائفة

من لوم غير منتظرة .

آه يا الهي ! لقد شئت ان افهمك كيف احبك . اني ابحت

دون ان اهتدي الى شيء . عندما افكر فيك ، وكثيراً ما افعل ،
احس في اعماق دمي ، وفي صميم روحي ، رغبة لاتقاوم في امتلاكك
وميلاً لا يكبح لاعطائك من نفسي اكثر مما اعطيتك وددت لو
ضجيت بنفسي في سبيلك ، لأنه ، في الحب ، ليس اعذب من ان يهب
المرء كل شيء ، الروح ، والجسد ، والفكر وكل ما يملك ، وان
يكون دائماً على اهبة المخاطرة ليهب اكثر مما وهب . اني احبك حتى
لا أحب الالم في سبيلك . . احبك حتى لا أحب قلقي ، واضطراب
فكري ، وغيرتي ، والشقاء الذي يدهمني اذا ما رايتك فاتراً نحوى . . .
احب فيك الشخص الذي اكتشفته بنفسي ، احب شخصك الخاص
بي ، شخصك الذي لا يتبدل ، شخصك الذي لا يهرم ، شخصك الذي
لا اقوى على الانصراف عن حبه ، اذ اني عندما انظر اليه ، لا ترى
عيناي اللاه . . انه لمن الصعب ان يقول المرء مثل هذه الاشياء . .
فليس ثمة كلمات تقوى على التعبير عن مثل هذا الشعور . . .

و كان اوليفيه يردد بصوت خفيض مرات متتالية : - يا عزيزتي
يا عزيزتي . . . آني . . .

وعاد جوليو لاهثاً بعد ان عجز عن ادراك حجل وثب امامه .
وكانت آنيت في اعقابها لاهثة لشدة مار كضت .

— لم اعد اقوى على العدو . لقد تعبت . وانت ياسيدي الرمام

وتأبطت ذراع اوليفيه الطليقة . وعادوا ادراجهم . كانوا
يسرون وهو بينهما . . تحت الاشجار الباسقة القائمة . . ولاذوا
جميعاً بالصمت . كان يسير وقد سيطرنا عليه بسحر انوثتهما الطاغية
المنبتلة الى جسمه بعلامسته لجسميهما . ولم يرفع نظاره اليهما فقد اكتفى
بان يجدهما ملتصقتين به . . كاتنا تقودانه ، وتسيران به وهو سائر
امامهما ، مأخوذ بهما ، بالتي الى يمينه كما بالتي الى يساره دون ان يدرك
ايتها الى يمينه وايتها الى يساره ، ايتها كانت الام وايتها الابنة ،
واستسلم منطوعاً الى هذا الاحساس المتداخل المختلط . بل لقد سمى
ليميزهما في قلبه ، كيما يعجز عن تمييز احدهما عن الاخرى في فكره
او ليست امرأة واحدة هذه الام وهذه الابنة المتشابهتان ؟ وهذه
الفنأة ؟ الا يبدو انها وجدت فوق الارض خصيصاً لتحيي موات
حبه لامها ؟

وعندما فتح عينه لدى دخوله القصر خيل اليه انه عبر خلال
احلى سوبعات عمرة اطلاقاً . . انه تعرض لأغرب الاحاسيس واشدها
استمعاءً على الادراك . . وانه نعم بادق واعذب ما نعم به رجل دب
فوق سطح السكرة . . . كل ذلك نتيجة انطلاقه مع شذى الاغراء
العابق من تينك المراتين . . .

قال عندما وجد نفسه بينهما تحت نور الصباح : - يا لالمساء

الرائع !

وهتفت آنيث : - لا اشعر برغبة في النوم . فمن عادتي ان

اقضي الليل متنزهة عندما يكون الجو جميلا .

ورنت الكونتس الى الساعة : - انها الحادية عشر والنصف

يجب ان تأوي الى فراشك يا ولدي .

وافترقوا ومضى كل نحو غرفته . وكان اول من استسلم للرقاد

الفناة التي لم تكن تحس ميلاً اليه .

وفي الغد حضرت الوصيعة كالمادة تحمل الشاي لسيدتها

فوجدتها ما زال بين اليقظة والنوم . قالت لها :

— ان طالعة سيدتي قد تحسنت . — اتعقدين ؟

— آه . نعم . ان وجه سيدتي اشد صفاء .

ودون ان تنظر الى مرآتها وثقت مما قالته الخادم . كان قلبها

نشطاً وهو لم يعد يحب عالياً . لقد عادت اليها الحياة . ولم تكن دماؤها

تجري سريعة حارة في عروقها كما كانت ذلك المساء انما كانت تشيع

في جسمها راحة فآرة واثقة سعيدة .

وعندما انصرفت الخادم نهضت الى مرآتها ورأت ان ليلة

واحدة قد اعادتها سنوات الى الوراء . وابتسمت بمفكرة : « خلال

بضعة أيام ساصبح على ما يرام . لقد سرت بخطى واسعة .
غير انها اقامت امام طاولة الزينة فترة طويلة حيث استوت ،
فوق غطاء من المسلمين مطرز بالدانتلا ، في صفوف مستقيمة ، امام
مرآة جميلة من بلور انيق ، طائفة على تلك الادوات الصغيرة اللطيفة
ذوات المقابض العاجية وهي تحمل الاحرف الاولى من اسمها متوجة
بشعار العائلة .

وعند ما فرغت من زينتها هبطت اخيراً وهي على مثل اليقين
ان نظرنه الاولى اليها ستكون مرضية . وسالت أحد الخدم :
— ابن السيد برتان .

— ان السيد برتان في الحديقة يلعب الانسة التنس .
وسمعهما من بعيد يعدان الاصابات .

ورأت آيت تلعب وقد رفعت ثوبها الاسود حتى كشف
عن جزء من ساقها وكانت تندفع لتلقى الكرة وهي طائرة ، فتتحرف
ذات اليمين وذات اليسار وتعدو هنا وهناك وعيناها لامعتان وخداها
محمران ، نعمة لاهثة ، فقد ارهقها ملاعبها بأسلوبه المتقن .

اما اوليفيه فكان مرتدياً سروالاً قصيراً من الفلانلا وقيصاً
ابيض وقد غطى رأسه بقبعة عريضة الحافة ناصعة اللون ، وكان ينظر
الكرة ببرود مقدراً بدقة موقعها فيتلافها ويقذفها دون ان يتكلف

عناء في سبيل ذلك فهو يجيد هذه اللعبة اجادة محترف كشائه في كل
هواياته .

ولمحت آيت امها . فهتفت : - صباح الخير يا اماء . لحظة
واحدة وننتهي .

لقد اضاعت هذه اللحظة من عدم الانتباه الشوط عليها .
فقد مررت الكرة بالقرب منها ، سريعة منخفضة فست الارض
وخرجت من الدائرة . فصرخ برتان : (لقد رحت) وفوجئت الفتاة
واحتجت بانه استغل عدم انتباهها . بينما انطلق جوليو يعدو وراء
الكرة التي سقطت بعيداً كما يعدو وراء حجل سقط في الادغال .
وادركها فالتقطها بفمه بلطف وعاد بصبصاً بذيله .

وهنا حبي الرسام الكونتس ، ولكنه لشدة انشغاله باللعب
واهتمامه بكسب الشوط لم يمر وجهها المبالغ في زينته كبير اهتمام
ثم سأل : - اتسمحين ايها الكونتس ، اني اخاف ان ياخذني
برد فاصاب برشح .

- اجل . اجل .

واقعدت كومة من الشوفان المحصورد لتتيح للاعبين ان
يكملوا شوطها .

كانت تماسة خفيفة تمتصر قلبها وهي تنظر اليهما .

كانت ابنتها شديدة الاهتمام باللعب نشيطة تطلق صرخات لدى خسارتها او انتصارها فكانت تطارد الكرة ملوحة بمضربها وهي اشد ما تكون نشاطاً وجمالاً وبها .

كان برتاف يخاطب الكونتس صارخا من بعد : انها جميلة هكذا طرية كقلب الصباح .

نعم لقد كانت جميلة انها تستطيع المدو فتحمر وجنتاها وتغلي دماؤها وتنطلق خصلات شعرها مع النسيم انها تستطيع ان تعمل كل ما تريد لان كل شي يرضى عليها جمالا ورونقا .

وعاد الى اللامب بحماسة وكانت الكونتس لا تفتأ تنظر اليها حزينة مفكره ان اوليفيه لا شك بفضل لعبة الكرة تلك بما فيه من سرور صبياني واندفاع ونشاط على الجلوس اليها والانصراف الى سماعها . عند ما قرع الجرس معلنا ساعة الافطار شمعت كأن رنينه قد انقذها من افكارها ، كأنه ازاح عن صدرها حملا ثقيلا وقالت له لدى عودتهم الى القصر وهي تستند الى ذراعه : - عساك مسرورا فاجاب وفي صوته رنة شباب مستعاد :

لقد تسليت كما لو كنت طفلاً انه لمن اشد دواعي الغبطة ان يجد المرء نفسه ، او يظن ، انه استعاد شبابه . اجل اجل عند ما تموت الرغبة لدى المرء بالركض والوثب فعنى ذلك انه انتهى .

وعند ما فرغوا من تناول فطورهم عرضت عليهما الكونتس
ان يرافقاهما الى المقبرة التي لم تكن قد قصدها منذ قدوم اوليفيه
فتوجه ثلاثتهم عبر الغابة حتى بلغوها فركعت المرأة فوق القبر
وراحتا تصليان بحرارة وقد الصقت الكونتس منديها بعينيها خشية
ان تذرفا الدموع فذشوه الاصابع التي طالت بها وجهها ، كانت نصلي
والا لم يترك فؤادها فتصاعد صلاتها الى السماء التي بدت مفاقمة امام
رجائها . انها تعبد الله هذا الاله الذي القى الى الارض كل هذه
المخلوقات المسكينة لسبب واحد هو بذل العطف لهم كلما ذكروه .
ولم تسمفها الكلمات لتطلب منه كل ما تريد فهي تشمر شعوراً مبها انها
بحاجة الى مساعدته والاستمانة به لانها تنتظر احداثا واطواراً ستعود
عليها بالمرحى .

واما انيت فكانت مغمضة العينين منساقة مع اجلامها بعد
انتهائها من تردد بعض المصطلحات الدينية اذ انها لم تشأ ان تنهض
قبل امها .

وكان برنان ينظر اليهما وخيل اليه ان امامه لوحة خلافة اسف
كثيراً لانه لم يخرجها بالالوان . واثناء المودة راحوا يتكلمون من
الحياة البشرية مردين افكاراً مرة شاعرية وفلسفية منه ذلك النوع
الذي يساعد على نسج حديث بين رجال ونساء صهرتهم الالام فامتزجت

مشاعرهم وتوحدت في حيز الحزن ولم تكن انيت قد بلغت من النضوج
درجة تسمح لها بالخوض في مثل هذه الاحاديث فكانت لدي كل
خطوة تبعد عنها لتجني من جانب الطريق ازهاراً بريبة .

وادركت اوليفيه رغبة بالاحتفاظ بها قريبة منه فقد آلمه ان
يجدها تتركها في كل لحظة وقد احزنه عدم اكترائها بحديثه كما كترائها
بالوان الازهار انها ما تزال صغيرة ليس لها ما يحدوها الى الانصات لمثل
حديث الموت والحياة غير ان رغبته بالاحتفاظ بها دائية كانت اقوي من
ان تقاوم . فراح يتحدث لاجتذابها احاديث اشد مرحا موجهة اليها
الاسئلة محاولاً ابقاها حب الاستطلاع النسوي في نفسها غير ان ذلك
لم يجده نفعاً واغتم فرصة اقترابها منه فقبض على ذراعها وضغطها كي
لا تستطيع فكاً كما فاضطربت في يده ضاحكة باذلة كل جهدها في
الانفلات وبغريزة المستضعف امام عناد المرأة شاء ان يستثير انتباهها
فقال .

— الا قولي اي نوع من الازهار تفضلين كيما انظم لك منها
عقداً . فترددت مأخوذة :

— عقداً وكيف ذلك ؟

— من حجارة كريئة بلون الزهر المفضل من عقيق اذا
كنت تفضلين الشقيق او من لازورد اذا كنت تفضلين الترنجان

او من زمرد اذا كانت خضرة الاوراق هي التي تسحرك . واستنار
وجه آيت بفرح طاغ كما تستنير وجوه النساء اذا ما وعدن بالهدايا
والهبات وقالت ان ما افضل هو الترنجان انه غاية في اللطافة .

— فليكن فما ان نصل باريس حتى اشترى لك العقد الموعود .
وهكذا اقامت بقربه متعلقة به وقد اطربها تفكيرها في الحلية
ونخبها لها وسألته .

— او يستغرق عمل ذلك طويلاً .

فضحك وقد ادرك انه استحوذ على افكارها .

— لست ادري سنحت الصانع ما وسعنا ذلك .

وعبرت خاطرة في رأسها فجأة : ولكنني لن استطيع لبس الحلية
فانا كما ترى في حداد .

فتأبط ذراعها وجذبها : حسنًا تحتفظين بها حتى ينتهي حدادك
وتستطيعين خلال ذلك التمتع بها على انفراد .

وكان في المساء بينهما وقد احاطتا به احاطة الشهب بالقمر
ناظرتين اليه باعينهما الزرقاء المتشابهة ذات النقط السوداء فكان يحدثها
كلا بدورها . ولم تعد صورتا البنت والام تحتلطان في خاطره كالسابق
فان النور الساطع يكفى للتمييز بين زهرة بدأ يعتربها الذبول وزهرة لما
تفتتح جيداً لندى الصباح . والرغبة الوحيدة التي كانت تشور بين حناياه

هي تقبيل الواحدة والاخرى ود لو يقبل الابنة ليستعيد تلك الطراوة
التي كان قد عرفها فوق خديها في ايامها الخوالي ، ود لو يقبل الام
لانه مازال يحبها .

وعادت آنيث تجني الازهار . وراح يتمتع انظاره بها دون ان
يستدعيها كما فعل سابقاً راح ينظر اليها كما ينظر المرء الى الصباح
المبليج ، وكما يصفي الى نغم عذب متطاير . فهي تحيي فيه صور الماضي
ماضيه مع امها ، ذكرى صباه وحبه . لقد حطمت الايام واعادت
اليالي القهقري فرجعت بقلبه سنوات عشرين الى الوراء لقد مرزجت
يومه بغده وذكرياته بآماله . وراح يتسائل باحثا في اعماق ذاكرته
اكانت امها لدى اكتمال فنتها تتمتع بمثل هذا السحر الطاغي وهذا
السنا الجري الذي لا يقاوم . كلا كانت اقل رواء واكثر تهديبا .
فهي ابنة المدينة ثم سيدة المجتمع لم تملأ رثتها قط بهواء الحقول الطلق
لم تتمرغ ابدأ في حشائش المروج الندية انها جميلة بين الجدران المظلمة
بالسجف وليس تحت الشمس الساطعة في الريف الطليق الفسيح .

وانصرفت الكونتس الى كتابة بعض الرسائل بينما ذهبت
ابنتها الى غرفها فخرج الرسام يتمشى قليلا في الحديقة وقد اشمل سينكراً
وللقى يديه وراء ظهره . كان مضطرباً ولكنه سعيد ، سعيد ؟ ومما ؟
من كل شيء الهواء نقي والحياة رضية وهو يحس في نفسه خفة

كخفة الاطفال رغبة ، في الانطلاق ومطاردة الفراش المتواهب فوق
الحائل . وكان يتم بعض الاغاني الشائعة مردداً بين الفينة والاخرى
قول الشاعر كونيود: دعيني اتعبد في محراب عينيك . وقد ادرك في هذا
القول معنى عميقاً حنوناً لم يدركه قبل الان .

وتساءل فجأة كيف استطاع ان يحقق في نفسه هذا التطور
السريع فقد كان امس في باريس ضجراً مستاءً تأثر الاعصاب وهو
اليوم هاديء قانع كان ارادة علوية قد غيرت جوهر نفسه وقال لنفسه
ان الاله الصالح الذي فعل ذلك كان بمقدوره اعادة شبابي كما اعاد لي
مرحي وشفاء نفسي .

وبعد المشاء لم يخرجوا كما فعلوا امس فامضوا السهرة في
الردهة . وقالت الكونتس فجأة : - اعتقد ان لا بد لنا من السفر عاجلاً
فصرخ اوليفيه :

- لم يأن لك الحديث في مثل ذلك ! فما كنت راغبة في مغادره
رونسير عند ما لم اكن انا فيها وما ان جئت حتى رحلت تفكرين في
السفر . فاجابته :

- ولكن يا صديقي العزيز ليس بمقدورنا الافاقه الى
مالا نهاية له نحن الثلاثة .

... أنا لم أقصد القول الى ما لا نهاية انما عنيت بضعة ايام اخر .

فكم من المرات اقت لديكم الاسابيع الطوال ؟ .

— صحيح ولكن في ظروف اخرى فقد كان البيت مفتوح

الابواب لجميع الناس .

وتدخلت آنيث قائلة بصوت لطيف :

— ولكن يا اماء بضعة ايام اخرى يومين او ثلاثة . انه يعلمني

احب الناس وانا اتقدم سريماً وبدر كني الحزن اذا ما خسرت .

و كانت الكوكتس قد قررت في ذلك الصباح بالذات عديد

تلك الاقامة السحرية حتى الاحد القادم وها هي الآن تنقض قرارها

دون مبرر معقول . ان هذا اليوم الذي ظنته يوماً فجعاً بالسرور قد

ترك في اعماق نفسها شعوراً مريراً لم تستطع معه ان تقاوم رغبته في

ابعاد حبيبها عن ابنها . وعند ما خلت الى نفسها وقلبت الموقف

جيذا خرجت بنتيجة هي انها قد تسرعت وان ليس ثمة من داع لمثل

هذا الاضطراب .

وشمرت بحركة تحت نافذتها ولما نظرت وجدت اوليفيه ينزلة

تحت القصر فتسائلت لقد اخبرني انه سيأوي الى فراشه لاريب في

انه غير راغب في مرافقتي في زهرته هذه وهمت باغلاق النافذة لكي

لا تراه وتناديه ولكنه رفع عينيه اليها وناداهما : - اراك تحملين تحت

النجوم فاجابته وانت تفعل ذلك كما ارى — انما انا ادخن فقط .
ولم تستطع مقارمة رغبتها في سؤاله : - وكيف لم تخطرني بانك
ستخرج تنزه .

— الواقع اني وددت تدخين سيكار فحسب وها اني عائد .
— اذا عم مساء يا صديقي

— عمي مساء ايها الكونتس ورجعت فاقدمت كرسيتها
المنخفض وبكت وقضت ليلتها تلك وقد جفاها النوم محمومه يقض
مضجها كابوس مرعب . ولدى استيقاظها فتحت نوافذ غرفتها
بنفسها ودون ان تقرع الجرس لوصيفتها راحت تنامل نفسها بالمرآة
كانت تقاطيع وجهها مسترخية وجفونها مقورمة ولونها منخطفاً فالحزن
الذي حط عليها كان ساحقاً ان بها رغبة للعودة الى سريرها والاعلان
عن مرضها والاعتكاف في غرفتها حتى المساء .

غير ان فكرة السفر دهمتها فجأة فلم تستطع مجابته انها ترغب
السفر ولو باول قطار عليها ان تغادر هذه البقعة ذات الشمس الساطعة
شمس الحقول التي تكشف للانظار كل آثار الاحزان المنطمية
فوق الوجه واما في باريس فهي دائماً في ظل فالغرف ممتمة والستائر
كثيفة لا تسمح بدخول النور الا بحدود . وستعود الى الظهور في باريس
جميلة وقد يزيد هذا الشحوب فتنة في النور الضئيل اللطيف . وعبرت

صورة وجه ابنتها في مخيلتها بخديها الناضرين وشعرها المقتدر الى العناية
انها ريانة متدفقة النشاط فياضة الشباب خاصة عند ما تلعب النمس .
وادركت سبب اضطرابها المجهول الذي اعتصر روحها ايما اعتصار
ومع ذلك فهي لا تحس غيرة من ابنتها وكل ما تريده هو الا تظهر
بالقرب منها في وضوح النهار .

وقرعت الجرس وقبل ان تتناول الشاي انقمت اوامرها
بالاستعداد للرحيل فطيرت برفيات وحتى عشاءهم طلبته برفياً ووقفت
حساب البيت الريفى ووزعت تعليماتها الاخيرة ورتبت كل شيء في اقل
من ساعة . كانت فريسة لفاق وفراغ صبر متزايدين ساحقين .

وعندما هبطت من غرفتها احاط بها اوليفيه وآنيث وراحا دهشين
يسألانها عن سبب قرارها السريع . وادركا ان اينس لديها سبب وجيه
يبرر ما فعلت فتمتا غاضبتين مظهرين عدم رضاها لهذا الفراق المفاجيء
واستمرتا على مثل هذه الحال حتى افتراقهما في ساحة المحطة في باريس .
ومدت الكونتس يدها مودعة الرسام قائلة :

— اريدان تأتى غداً تتناول الطعام لدينا ؟ فاجابها مستاءً :

— بكل تأكيد سأتى . كما تريدن ولكن ما فعلتيه لم يكن

لطيفاً فقد كنا سعداء هناك نحن الثلاثة .

الكتاب الثالث



- ٣ -

وما وجدت الكونتس نفسها في العربة التي اقلتها من المحطة مع ابنتها حتى ادركها هدوء مفاجيء كذاك الهدوء الذي يعم الكون بعد عاصفة هوجاء . كانت تتنفس بسهولة اكثر ، متعرفة على البيوت التي عر بها فان بها لشوقاً الى باريس .. بل الى هدوءها واستكانة اعصابها احست انها قد انقذت نفسها . ولكن من اي شيء ؟ انها اطمئنت . ولكن ممّا ؟ ... وانها احست الراحة ولكن ما الذي كان يشقيها ؟ وسارت الى غرفتها تواء . وشعرت وهي تلجها انها اصبحت في مأمن .

وهبطت في ساعة الغداء . فاستقبلها زوجها الذي كان قد عاد منذ فترة . فعانقها بشوق وابتسم قائلاً :

— كنت واثقاً ان صديقنا برنان يوفق الى جابكنا معه . وهكذا

فانا لم اكن غيباً ساعة عرضت عليه القيام بهذه المهمة .
فاجابت آنيث بصوت مفعم هزءاً دون ان تضحك :
— لقد لاقى في سبيل ذلك عناء كبيراً . فامي كانت شديدة
التردد . »

ولم تقل الكونتس شيئاً . ولاذت بالصمت شبه حائقة .
وقصدت بعد الغداء بعض عيال الازياء فهي بحاجة الى اثواب
جديدة وانها لنجد متعة عظيمة في زيارة دور الازياء واختيار الثياب
الانيقة ، والاستسلام الى ابدى العائلات الانيقات ليختبرن لها ما يلائمها
من حديث الازياء .

ولدى عودتها وجدت بطاقة من الدوقة تعامها انها مرت فها
وجدتها وانها ستعود في المساء .
ووصل برتان في المساء للمشاء وهتف لدى وقوع انظاره عليها
— انك رائعة هذه المساء .

فتمشت فيها موجه سعادة حاره لدى سماعها قوله .
وطالب الكونت الى برتان ان يلاعبه البليار بعد العشاء فانتقلوا .
الى الغرفة الخاصة حيث تناولوا قهوتهم .
وكا ما يرا لان منهمكين باللعب عندما اعلن قدوم الدوقة .
كما حضر كوريل وزوجته . وبعد اداء واجب التعزية وذرف الدموع

وتبادل عبارات الترفيه ، انصرف الجميع الى احاديث عادية متنوعة .
ووصل ميزاديو كذلك حريصا ان يكون اول القادمين لتعزية آل
غيروا وقد عرف بقدمهم . ودخل فقدم لهم « احر عبارات تعازيه »
وتناول اوليفيه ذراع الصبية وقادها حتى اوقفها تحت صورة
امها متيحاً للحضور تأمل الشبه الغريب بينهما وهي مرتدية السواد كما
بدت امها في الصورة . وقد ادهش الجميع هذا الشبه الغريب وراح كل
يبدى ملاحظاته باعجاب . حتى ان الكونتس تضايقت غاية التضايق
من ذلك ، وعظم لديها مثل هذا الامر ، فصاحت بهم : اصمتوا ! لقد
فهمنا ان ابنتي تشبهني .

وكان برتان يتحدث اليها عندما اعلنوا عن قدوم المركيز
دي فارندال . وما رآه برتان داخلا حتى اغتم فرصة انصراف الجميع
اليه وانزاق عبر باب قريب واختفى وهو يتمتم : هيا يا . فهما هو ذا
الحيوان الضخم يصل .

وبحثت الكونتس عن حبيبها بعد ان تلقت تعازي القادم
الجديد فما وجدته . فسألت :

— ماذا ؟ ارحل رسامنا الكبير ؟

فاجاب زوجها : .. اعتقد انه رحل . فقد شاهدته ينسل على
الطريقة الانكليزية .

فمجبت لتصرفه ، وادركها حزن ، غير أنها ما لبثت ان
انصرفت تحدث الدوقة .

ولم تطل السهرة بالجمع بل سرعان ما انصرفوا .
وعندما وجدت الكونتس نفسها مستلقية في سريرها عاودها
كل اضطرابها ، وقلقها ، كما كانت في الريف تماماً . وربما ازداد
شمورها بتقدمها بالسن وضوحاً بعد عودتها الى باريس .

لقد ادركت ، هذا المساء ، وللمرة الاولى ، انه اصبح في صالونها
من يتربع في المقام الاول فيتلقى الاعجاب دونها ، وتغدق عليه النعوت
التي حرمت منها هي ... انها ابنتها ... لقد ادركت ذلك جيداً ..
ادركت ان ابنتها قد استوت على عرش الجمال والفتنة الذي خلعت عنه
هي ... خلعها السن . والسن هو الذي اجلس فتاتها مكانها كذلك
فلم يغب عن فكرها ان كل العيون اتجهت الى فتاتها معجبة ، متمتعة
بالصبا الريان والشباب الفض وان كل الاسنة قد دارت في حلوقها
معبرة عن اعجابها ، واقتنائها بجمال الصبية ذات العشرين .. امّا هي
هي .. فقد هبطت عليها غمامة النسيان .. فعاشت ساعاتها تلك في
الظل ... بعيدة عن نور المديح والثناء والاعجاب .. فشق ذلك
عليها ايما مشقة .. فقد اعتادت على سماع تلك الموسيقى التي تخلب لب
النساء في كل زمان ومكان .. الثناء ...

وجاء برثان لزيارتها في اليوم التالي ودخل قائلاً بمرح :
— ها انذا . دائماً انا ... ولا احد سواي ... أنت

مشغولة باصر ما ؟ ..

— كلاً . ولماذا ؟

— وآنت ؟

— ولا آنت

— او تستطيعان اذا الحضور الى منزلي حوالي الرابعة ؟

— اجل .. ولكن باي خصوص ؟

— اني ارسـم لوحـتي « الاحلام » التي حدثتك عنها وبودي لو
تسمحين لآنت بالوقوف امامي فترة قصيرة . ان ذلك يؤدي لي بدأ
مشكورة . وان ساعة واحدة تكفيني اليوم . او تريدن ؟

وترددت الكونتس ضجرة دون سبب معلوم . ومع ذلك

اجابت :

— لا بأس يا صديقي . سنكون لديك الساعة الرابعة .

— اشكرك انك عنوان الرقة والدمانة .

وبعد ذلك خرجت الكونتس ماشية لتكمل بعض مشترياتهما

ولدى عبورها امام كنيسة سانت اوغسطان ادر كتبها رغبة ملحة في
دخولها لتصلي قليلاً . فدفعت الباب ودخلت .

أنها متدينة شأن معظم الباريسيات . أنها تؤمن بالله دون أي شك . أنها لا تفهم وجود هذا الكون دون خالق أبدعه . ولكنها تخلط ، كما يفعل معظم الناس ، بين القدره الخالقة وبين المادة المخلوقة التي ندر كها بالحواس ، فهي لا تستطيع تخيل الله في غير الصورة التي صورها الدين له أي أنها تعطيه شخصاً مادياً يفكر ويحب وينفض وينفض ويصفح ويحب التمجيد والتقديس . كانت تعتقد بذلك اعتقاداً مبهماً دون أن تعنى بالتفكير عما يكون عليه مثل هذا الخالق الغريب لو صح ما زعمت .

غير أنها تعتقد بوجوده اعتقاداً تاماً لا تشوبه شائبة ما وهي تخافه خوفاً مبهماً كذلك .

ولقد كانت رئيسة لجمعية دينية عديدة ، وهي لا تذكر أنها أهملت الذهاب إلى الكنيسة أحداً واحداً كما أنها لم تنفض عن التصديق على الفقراء قط

وكثيراً ما كانت تصلي مدفوعة بواجبها كفعل الجندي القائم بالحراسة امام باب الجنرال ٠٠٠ وربما صلت أحياناً إذ يكون قلبها حزينا أو عندما كانت تخشى هجران أوليفيه . غير أنها لم تبسح يوماً بسر أئرها امام السماء فهي تعامل الله بنفس الأسلوب الخبيث الذي تعامل به زوجها . وهي تطلب منه عوناً دون أن تعنى بإعلامه السبب .

وها هي الآن وقد دخلت هذه الكنيسة صدفة قد تارث
فيها رغبة أكيدة في الصلاة . من أجل نفسها وليس من أجل الآخرين
فهي بحاجة الى مساعدة من مكان ما . وليس امامها سوى الله ..
فلتأده كما ينادي المرء الطبيب ساعة اشتداد العلة .. واستمرت في
ركوعها فترة طويلة والهدوء الخيم على المعبد يجلبها .. وتنبهت من
استغراقها فتناولت ساعتها ونظرت اليها فادركت ان الرابعة باتت
قريبة فنهضت عجل واثقة من ان اوليفيه لا بد مقيم بانتظارهما الان.
ووجدناه في مرصمه يضع الخطوط الاولى للوحته « الاحلام »
وهو يريد مطابقة لما شاهده في حديقة مونسو عندما كان يتنزه مع
آنيث : فتاة فقيرة تحلم وفوق ركبتيها كتاب مفتوح . وتردد كثيراً
بين تصويرها جميلة او قبيحة . فاذا اخرجها قبيحة استطاع ان يضيئ
عليها الوف المعاني . واما اذا كانت جميلة فتأتي افدر على الاغرام واثارة
الفطنة واستدراار الاعجاب .

غير ان الرغبة في اتخاذ صديقته الصغيرة نموذجاً للوحته جعله
يقرر فسكون « الحاملة » جميلة وستصبح قادرة على تحقيق الحلم
الشاعري الذي يشع من عينيها فاما لو كانت جميلة فلا ريب ان حالمها
محكوم عليه بالاضحلال .

وما ان دخلت المراتان حتى استقبلها اوليفيه فاركاً يديه قال .

— حسناً يا آنسة ناني سنشتغل اذاً .

وظهرت الكونتس مهمومة. وجلست فوق المقعد وراحت
تراتب اوليفيه وقد وضع في النور كرسيًا من القش الاخضر ثم فتح
مكتبته ليختار منها كتابا وسألها بعد تردد :

— ماذا تقرأ ابتك ؟

— الكتاب الذي تريده اعطها احد كتب فيكتور هيكو .

— اسطورة القرون ؟

لا بأس وتابع موجهًا كلامه الى آنيث : اسمعي يا صغيرتي
اجلسي فوق هذا الكرسي وخذي دبوان الشعر هذا افجي الصفحة..
الصفحة ٣٢٦ حيث تجدين قطعة عنوانها البؤساء . استوعبها كما
يستوعب الشارب الحمر الجيد هكذا وثيداً كلمة واكري لنفسك
الانطلاق مع الشاعر حتى يبلغ بك التأثر مبلغه ثم اطبعي الكتاب
وارفعي عينيك وفكري واحلمي ... واكون انا خلال ذلك قد
اعدت ادوات العمل .

وذهب الى زاوية يمد الفراشى ويفرع على قطعة خشبيه من
اناييب صغيرة خيوطاً من الالوان كان يستدير من وقت لاخرو يتأمل
الفتاة المستغرقة في القراءة . وكانت قد انتهت من دراسة القطعة
وراحت تنظر امامها فدنا منها فابصر في عينيها دمعين لامعين انفلتتا

وسالنا فوق خديها فانتفض احدي تلك الانتفاضات التي تخرج
الرجل عن طوره وتتم موجهها كلامه للكوننس :
— يا الهي كم هي جميلة ! ولكنه بهت امام وجه الكوننس
الشاحب المفضن .

كانت عيناها الكبيرتان مليئتين بنوع من الرعب وهي تناملها
فدنا منها وقد استبد به القلق وسائها :

— اريد ان اكلمك. ونهضت وقالت لا نيت بسرعة :
— انتظري دقيقة يا ولدي لي كلمة اقولها للسيد برتان ثم سارت
سريعة الى الصالون الصغير المجاور . وتبعها والافكار تضيح في رأسه
وهو لا يفقه لموقفها معنى وما ان انفردت به حتى تناولت راحتيه وقالت
بلهجة بالغة الاضطراب :

— ارجوك يا اوليفيه ان لا تصور ابنتي . فتمتم مضطرباً :
— ولكن لماذا ؟ فاجابت بصوت سريع النبرات .
— لماذا ؟ لماذا ؟ انه يسأل ؟ اذن فانت لا تشعر بشيء آه اما انا
فقد حدثت بذلك انا وحدي التي اكتشفت الامر هذه اللحظة ...
لا استطيع ان اصرح لك بشيء الان ... لا شيء ... اذهب وعد
بابنتي قل لها اني اشعر بالمرحاضة واطلب لنا عربة ثم تعال بعد ساعة
لزيارتني وساقابلك على انفراد !

— ولكن ما بك ؟

وبدت له تكاد تسقط تحت إحدى ثورات الأعصاب .
— دعني لا أريد أن أقول شيئاً هنا هيا وجي بفتاتي وادعوني
لنا عربة .

وصدع بامرها فعاد الى الرسم فوجد آتيت ما تزال منصرفة
الى القراءة وقد غمرت قلبها موجة من التعاسة من جراء القصة
الشاعرية المحزنة ، فقال لها اوليفيه :

— ان امك ليست على ما يرام فقد شعرت بالم مفاجيء هيا اليها
وساجيئوها بشيء من الاثير ثم خرج وعاد بزجاجة من غرفته .
ووجدهما قد تماثقتا باكيتين فانتظر بعض الوقت وقد دهمه
نأثر قوي لدى رؤية دموعها ممتزجة وتكلم اخيراً ...
— الا تشعرين بنقدم فاجابت الكونتس نعم قليلاً ليس في الامر
خطر اطلبت لنا عربة ؟

— نعم وستكون هنا بعد لحظات — شكرأ يا صديقي ليس
بي شيء ولعل الحزن الذي تعرضت له منذ مدة هو الذي سبب ذلك .
واعلن الخادم ان العربة معدة .

واستندت الكونتس الى صديقها شاحبة متسارعة النبض
حتى الباب .

وعندما انفرد بنفسه تساءل . . ولكن ما بها وما هذه النوبة
وراح يفتش عن الحقيقة دون الوصول الى شيء واخيراً استنار فكره . . .
اعلمها تصورت اني اغازل ابتها ولكن ابعقل ذلك ؟ انه لامر فظيع
واحتم غيظاً ولم يرضه ان تجرؤ الكونتس على اتهامه بمثل هذه المهمة
الحقيرة بمثل هذا الفعل الدنيء وقرر ان سيكون جوابه حاسماً
وسيعلمن ثورته .

وخرج مبكراً ليلتحق بها وقد فرغ صبره للاطلاع على
حقيقة الامر وكان طوال الطريق يهيم الاقوال والعبارات التي
ستشكل دفاعه عن نفسه .

ووجدها فوق كرسيها الطويل ووجهها متألم بالغ الألم . فقال
لها بنبرة جافة :

— حسناً ياسيدي العزيزة هلا تكرمتي بشرح الدور الغريب
الذي مثله منذ ساعة . فاجابت بصوت عظيم . . .
— ماذا ؟ اما فهمت حتى الآن ؟

— كلا ولك ان تثقي

— حسناً يا اوليفيه ابحث جيداً في قلبك

— في قلبي ؟

— اجل في امواق قلبك .

— انا لا افهم هلاً افصحتم .
 — ابحت جيداً في اعماق قلبك فقد تجد فيه شيئاً بشكل
 خطراً عليك وعلي .
 — اكرر لك انني لا افهم شيئاً . لقد حدثت ان ثمة شيئاً
 في خيالك اما ضميري فلم اعثر فيه على اي شيء .
 — انا لم اعن ضميرك انما عنيت قلبك
 — انا لم اتعلم حل الالغاز ارجوك ان تتحدثني بوضوح .
 ورفعت يديها بهدوء وتناولت راحتي الرسام ثم راحت تقول
 وكان كل كلمة تمزق احشاءها تمزيقاً .
 — حذار يا صديقي انك توشك ان تصرع بسهام عيني آنيث .
 وجذب راحتيه بشدة وراح يقرعها ويلومها باندفاع البري .
 الذي يمحو وصمة مخجلة الصقت به . وتركته يتكلم طويلاً محتفظة
 بكل هدوئها واثقة من كل ما ذهبت اليه ثم عادت تقول ...
 — والسكني لا اشك فيك يا صديقي . انك تجهل العاصفة التي
 توشك ان تهب في اعماقك كما كنت اجهل ذاك انا في هذا الصباح
 انك تخاطبني كما لو كنت اتهمك باغراء آنيث . كلا ، كلا فانا اعرف
 كم انت نبيل كم انت اهل للاحترام والثقة . والسكني ارجوك بل
 اتضرع اليك ان تنظر في اعماق قلبك وتقول لي هل هذا الشهور

الذي بدأ بعتلج في صدرك بالرغم منك لا يحمل لابنتي شيئاً
غير الصداقة .

و غضب من قولها فقد انارته اكثر فاكثر ثم راح يؤكد
لها نبل عاطفته مكرراً على مسامعها الجمل التي اعدّها وهو قادم اليها .
وانتظرتة حتى فرغ ثم راحت تقول دون غضب او اضطراب
ولكن بشحوب خفيف ...

— انا اعرف يا اوليفيه صدق ما تقول ولقد فكرت كما تفكر
وانا واثقة من اني لست مخدوعة ، اصغ الي وفكر بها اقول وتفهم
جيداً ما ارمي اليه .. ان ابنتي تشبهني كثيراً انها صورة واضحة تمثاني
يوم كنت شابة ، يوم بدأت تحبني ولهذا السبب سمجد نفسك هاتئنا .
وصرخ بمنف .. اذن انت تجرئين على صفعي بمثل هذه التهمة
مستندة على استنتاج سخيف .. هو يحبني ، ابنتي تشبهني ، اذن
سيحبها .

ولاحظ وجه الكونتس بتغضن اكثر فاكثر فتابع بصوت
اكثر لطفاً ..

— ولكن يا عزيزتي آني اذا كانت هذه الفتاة تعجبني فلاها
صورة عنك . فانت انت وحدك التي احب عندما انظر اليها .
— صحيح وهذا بالضبط ما جعلني اتالم . اخاف بشدة ان

شعورك لم يتبلور بعد ولا بد له ان يفعل بعد وقت ما .

-- آني أو كد لك انك جننت .

-- أريد ادلة -- اجل

— كم رجوتك ان تأتي الى رونسير منذ ثلاث سنوات فلم

تستجب لي قط . غير انك لم تتردد عندما عرفت ان آيت فيها .

-- آه ؟ مثلاً ! انت تلوميني لاني حضرت كي لا أتركك

وحدك وقد عرفت انك مريضة بعد وفاة امك .

— فليكن فان أمسك بذلك ولكن ما رأيك بهذا . . ان

رغبتك في مقابلة آيت بالغة لديك شأواً بعيداً حتى انك لم تستطع

تمضية يوم دون ان تراها فدعوتنا لزيارتك مبرراً ذلك بانك تريد
تصويرها .

— ولماذا لم تقترضي ان دعوتي لكما صادرة عن رغبتني في

رؤيتك انت ؟

— انك تناقض نفسك بنفسك محاولاً اقناعي ولكنك ان

تخدعني اسمع ايضاً لماذا غادرت البيت فجأة اول امس عندما حضر

السيد فاراندال الا تعرفه ؟

فتردد وقد اخذ على حين غرة واشتد اضطرابه وقد جرده

اتهامها هذا من سلاحه .

— لست ادري بالضبط ... كنت تعباً ... ومن ثم
فلا تكن صريحاً ان هذا الاحق يشير اعصابي .
— ومتى كان ذلك ؟ — دائماً

— معذرة فقد سمعتك تمتدحه . كان بمجيبك في الماضي كن
صريحاً كل الصراحة يا اوليفيه .

وفكر لحظات كأنه يفتش عن الكلمات وقال . .
— نعم من المعقول ان يحلمني حيي لك على ان احب كل انسابك
ولا بدني رأبي بهذا الابله ولم يكن يشير في اي اهتمام لو اقتصرت
معرفتي به على لقاء بين وقت وآخر ولا غرو ان اغضب اذ وجدته
بكثرة التردد عليكم .

— ولكن بيت ابنتي لن يكون بيتي . الا يكفي ذلك ؟ انا
اعرف نبل قلبك . واني لوائقة من انك ستفكر طويلاً بكل ما قلته
لك . وعندما تقتل الموضوع تفكيراً ستجد انني على حق . انني
ارشدتك الى خطر داهم فاعطيتك الوقت الكافي لتجنبه فحذار
حذار . لتتكم بموضوع آخر تريد ؟

فلم يمانع وبدا شديد الاستياء وهو لا يعرف تماماً فيما يفكر
وقد كان في الواقع بحاجة الى التفكير وبمدرع ساعة من احاديث عادية
نهض وانصرف ...

وبلغ اوليفيه بيته بخطى وثيدة ، وقد بلغ منه الاضطراب كل مبلغ كما لو كان اطلع على سرّ عائلي مشين . وحاول سبر اغوار قلبه وتحقق من ميوله التي جاءت يد غريبة فقالت صفحاتها واقلت الى النور بسطورها ... انه لا يعتقد ، في الواقع ، ان ما ذهبت اليه الكونتس حقيقة او شبه حقيقة فهو لا يعرف في نفسه حياً لا آيت . فالكونتس وقد اعمتها غيرتها العاصفة ، لم تستطع الا الاشارة الى خطر لم يحدث بعد ولكنه ممكن الحدوث . ولكن ... يمكن ان يصبح هذا الحدس يقيناً غداً او بعد غداً او في غضون شهر ١٢ هذا هو السؤال الدقيق الذي حاول برتان ان يجد له الجواب الشافي . ومما لارب فيه ان هذه الفتاة تثير في أعماق برتان حنواً وحسداً غريزيين .. غير ان هذه العواطف الغريزية من الشدة والتداخل في نفس الرجل حتى ليصعب تمييز الخطير منها عما لا ينطوي على اي خطر ... ان ما يجذبه الى هذه الفتاة لا يعدو كونه احد تلك الميول الغامضة البريئة التي تشكل جزءاً

من مجموع ميول المرء نحو الخير والحق والجمال . ان ما فيها من ريق
الشباب ونفحة الصبا يجذب عينيه كفنان ورجل . وشبهها العظيم
بامها في صباها يوقظ في قلبه حبه القديم الذي غفا او كاد يغفو ، بفعل
السن ، في اعماق الاوعية . انها بقضة حب ؟ اجل ! هذه هي الحقيقة
كل الحقيقة ! واستنار عقله عند ما خطرت فيه هذه الخاطرة . لقد
استيقظ بعد سنوات طوال وكل ما فعلته هذه الصبية يختصر
في انها نفخت فيه ناراً او شكت ان تحب تحت الرماد .. رماد الزمن
انه يحب الام ولا شك . غير ان حبه لها قد نماظم لدى وقوع عينيه على
هذه النسخة الجديدة منها .. هذه الفتاة التي تمثلها اصدق تمثيل يوم عاقلها
قلبه وتلخص ما خلاص اليه بهذا التحليل الفلسفي :

« لا يحب المرء الا مرة واحدة . اما القلب فلا يعدم فترات
يحقق فيها المخلوق آخر غير الحبيب ، لانه ما ان يلتقي شخصان حتى
يحدث بينهما مدّ وجزر قد تنجم عنه الصداقة ، او حب الامتلاك ،
او احدى تلك العواطف العابرة الموقنة ، اما الحب الحقيقي فلا يحدث
من جراء ذلك ابداً . اما الحب الحقيقي هذا فلا يولد الا اذ كان
الشخصان قد خلق احدهما الآخر فيشعر الواحد ازاء الآخر بجواذب
لا تحصى : روحية ومادية ... فالحيبة ليست السيدة فلانة ، وليس

الحبيب السيد فلان ، انها امرأة وانه رجل ، مخلوقان لا اسم لهما ، قد خرجا من « الطبيعة » ليسمى كل منهما الى اللقاء بالآخر والاتحاد به والفناء فيه فان الطبيعة تخلق في الشخص المحبوب شيئا سحرياً يجذب من المحبوب عذيه وقلبه وشفتيه وافكاره وكل ما فيه من حواس وخواطر . فاذا احب رجل امرأة فانما يحب فيها مجموعة الصفات البشرية التي تشكل الجاذب الذي يعمد بنا عن كل شخص آخر ويدنينا من الحبيب دون سواه .

وكانت الكونتس بالنسبة اليه ذلك الشخص الجذاب ، المحبوب غير ان ابنتها تشبهها جسدياً ، فليس ما يمنع ان يعمل هذا الجاذب فيه عمله ، فيميل اليها بقلبه ولكن دون ان يندفع في ذلك المزالق الخطر... لقد احب امرأة حتي العبادة ! ثم جاءت امرأة ثانية ، من لحم حبيبته ودمها ، بشبه غريب بينهما . افيستطيع ان يقف ازاء الثانية دون ان يندفع عليها طرفاً من وجدده القديم وحبه الخلابي المستيقظ . وماذا في مثل هذا العمل ؟ واين الخطر فيه ؟ فالامر لا يتعدى متعة النظر في هذا (الماضي المنبعث) . غير ان غريزته لم تحنه ، ولم تفضل الطريق . فهو لم يحمل للفنأة مطلقاً اي ميل غريزي ! ومع ذلك فها الكونتس تنهيه بغيرته من المركيز . اصحيح هذا ؟ وعاد يتفحص ضميره ذاك التفحص الصارم فخرج هذه المرة بهذه النتيجة : لاريب في انه يحمل

غيره من المراكز . ولكن الا نشعر بالغيرة من اي رجل يغازل اية امرأة امام ناظرينا او لا نحس شيئا مثل هذا حتى في المسارح او قراءة الروايات ؟ فكل من يملك امرأة يبدو لنا مزاحما . فاهو الا ذكر متغلب مكثف فحسد الذكور الآخرين له امر طبيعي . ولندع هذا التحليل الفيزيولوجي . فقد خلاص الى انه يحمل للفتاة حباً مستوحيا من حبها لامها . افليس طبيعيا ان يغار عليها . اليس طبيعيا ان يحمل لزوجها المستقبل شيئا من الكره الحيواني ؟ .

وادرسته غصة مريرة اذ فكر ان علاقته بالام سيشوبها الكثير من الشك والقلق فان ايه كلمة يتلفظ بها او حركة يأتي بها قد تحمل في اعين الام معانيا كثيرة . وقصد مسكنه ، واقام مسدة يدخن ويلوك مثل هذه الافكار . وعبثا حاول العمل . فكان يده وعينه قد نسينا الرسم كما لو لم يكن قد اشتغل به قط . واحس ضجراً ومللاً فكان الساعات لا تمشي ولا تتقدم فيما سيشغل وقته حتى يا زف وقت الغداء فيقصد النادي . وينهض يزرع المرسم بخطى قصيرة حائرة . ثم عاد يجلس زاعماً انه يستطيع قطع الوقت بالمطالعة ، وكان كتاب (اساطير القرون) ما زال فوق المقعد فتناوله وقرأ صفحتين من الشعر دون ان يفقه للكلمات معنى . ولم يجد افضل من اخذ حمام ساخن يهدى اعصابه ويقتل الوقت به . وبعد الفراغ منه قصد النادي

فتلقاه رفاقه باذرع ممدودة والاسئلة تزدحم فوق شفاههم . فقد مضت
مدة طويلة لم يظهر فيها بينهم . فاجاب باقتضاب :
— اني عائد من الريف .

وكان الغداء مثله في سائر الايام . كثير الضجيج ، محترم الجدل
بين الرفاق . وراح برتان يكثر من الكلام للترفيه عن نفسه والابتعاد
بفكره عن الموضوع الذي يرهقه . ووجده الرفاق غريبا فقد اعتادوا
منه الاتزان والاقبال من الكلام .

وما ان فرغ من تناول قهوته وشوط البليار حتى انصرف
متجهاً نحو (الايودروم) ثم غير رأيه واتجه نحو الملعب الجديد ودون
اي مبرر استدار عائداً ووجد نفسه يسير في شارع (مالرب) ويدنو من
مسكن الكونتس غيروا . . . « ستجد زيارتي غريبة ولا ريب هذا
المساء » غير انه عاد وفكر ان ليس من المستغرب عودته لاستطلاع
احوالها مرة ثانية . ووجدها وحيدة مع آنيث في الصالون الصغير وقد
انصرفنا الى حياكة اغطية الفقراء .

وقالت ببساطة عندما رآته واخلاً .

— اهذا انت يا صديقي .

— اجل ان افكاري مشغولة عليك وهما قد جثت

لأراك فكيف انت .

لأبأس اشكرك وسألته بعد لحظات بلهجة معنوية : وانت .
فراح يضحك بانطلاق مجيها : انا على احسن حال أن مخاوفك
لم يكن لها اي مبرر .

فانقطعت عن حياكتها ونظرت اليه نظرة حادة فيها رجاء
وفيها شكوك .

فقال : اني اروي لك الواقع .

— حسناً

قالتها بابتسامة مفتعبة وجلس للمرة الاولى شعر بانزعاج
يدهمه في هذا البيت كأن شللاً قد اصاب تفكيره كما حدث معه تماماً
عند ما حاول ان يشتغل في رسمه .

وقالت الكونتس لابنتها .. تابعي عمك يا بنيتي فهذا لا يزعجه
وسأل : وماذا تعمل ؟

— انها تحيك صوفاً .

وبعد فترة صمت نهضت آتيت الى البيانو فقبمها بناظريه دون
ان يقصد كما اعتاد ان يفعل . واحس بامها تراقبها فانتفض واستدار برأسه
كأنه لمح شيئاً في زاوية الصالون . وتناولت الكونتس علبة صغيرة
مذهبة وكان قد اهداها اليها وفتحها وقدمت له لفافه ..

دخن يا صديقى فانا احب ان اراك تدخن عندما نكون

سوية .

واطاعها وبدأت آتيت العزف وكانت المقطوعة قدمة خفيفة
وعذبة من تلك القطع التي اوحيت الى الفنان في مساء جميل مقرر من
امسية الربيع وسأل اوليفيه لمن هذه المقطوعة فاجابت الكونتس انها
(لشومان) ليست مشهورة ولكنها جميلة .

وكان بوده ان يتأمل آتيت وهي تعزف ولكنه لم يجزؤ فهو
يدرك ان انظار الام المراقبة لا تفارقه . وعندما انتهت آتيت من
العزف نهضت الكونتس واخذت مكانها وراحت تعزف قطعة حزينة
متغيرة كأنها نداء مفجع متواصل .

ولم يصغ اوليفيه للعزف لانه كان مشغولا بتأمل آتيت التي
عادت وجلست قبالة .

كان ينظر اليها دون ان يفكر ويتشوق المحروم من شيء قد
اعتاده وقالت الكونتس أعجبتك المقطوعة .

فهنف وكأنه يستيقظ .. رائمة مدهشة ولمن هي .

— اولا تعرف — كلا

— كيف ؟ انت لا تعرف لمن هذه المقطوعة .

— أو كد لك انى لا اعرف .

— انها (لشوبرت) فقال بلهجة اقتناع عميقة ..
— هذا لا يدهشني فهي رائعة انك تحسنين ضمنا باعادتها .
ومادت الكونتس تعزف بينما انصرف هو الى تأمل آيت
دون اجمال الاصغاء الى القطعة . متمتعا بالذتين في آن واحد
وانصرف مبكراً فقد شعر بهذا الشلل الذي اصاب فكره
ولسانه في آن واحد .

وما وجد نفسه في الشارع حتى ادركته رغبة في التطواف
دونما هدف معين فسار ويداه وراء ظهره وراح يستعيد ذكريات
نزهته مع آيت في الحديقة فقصد تلك الحديقة والقى بنفسه فوق احد
المقاعد وراح يعب النسيم المعطر باربع الازهار كما لو كان مرافقاً عاشقاً
ونهض فجأة وقد فرغ صبره من سيطرة هذه الذكريات عليه
وهو يتمتم ..

— انه لامر مخجل وتصرف صبياني هذا الذي بدر مني .
وعاد الى بيته بالغ الاضطراب وجفاه النوم كأن الحمى تنهش
جسده . وكانت ليلته مخيفة فهو لا يفتأ يتقلب في فراشه ملتصقاً بالنوم
ولكنه بدا صعب المتال فنهض واشعل النور وتناول كتاباً قرأ فيه
صفحات دون ان يدرك لها معنى فاستبدله بكتاب آخر (بلزك)
المؤلف المفضل لديه ولم تكن النتيجة خيراً فعاد يستبدله بكتاب آخر

(لفيكتور هيكو) ثم بثالث (للامرين) ولكن دون جدوى وعاد يضطجع في سريره وكانت الساعة تدق الثالثة وهو يتم لنفسه .. يالي من كهل مفتون .

ولم يقصد الكونتس في غده وقد قرر بحزم ان لا يزورها قبل يومين . كان قلقا مضطربا لا يقوى على العمل يحمل معه كتابته اني ذهب سواء في نزهاته او زياراته او في بيته فان انشغاله بهاتين المرأتين يكاد يحطمه .

ولما كان قد عزم على عدم زيارتهما لم يجد تعزيتة الا بالتفكير بهما وكان يستخلص من تفكيره الطويل .. أأحمل لآنيث غير الانعطاف واخنو ثم يعود بفتش في اعماق قلبه باحثا منقبعا دون ان يعثر على شيء فيخاطب نفسه قائلاً .. كلا انا لا احب هذه الصغيرة اني ضحية الشبه بينها وبين امها .

وعاد يستعيد ذكرياته في رونسير جقا لقد كان سعيداً الى قربها واذا كان يتبع تلك الذكريات قفز الى ذاكرته وعده لها بالهدية فور عودتهم الى باريس . وتبخرت كل قراراته بمقاطعتها ودون ان يقاوم وجد نفسه مرتديا فيعته متجها نحو منزلها مفكراً بالسرور الذي سيجلبه لها . واخبره الخادم ان السيدة قد خرجت وليس في البيت سوى الأنسة فقال اوليفيه اخطرها اني جئت لزيارتها . وعبر الى

الصالون بخطى خفيفة كأنه يتمشى لم يحس به احد وسرعان ما ظهرت
آنيث ..

— عم مساءً يا اسناذي .

قالتا بشيء من الوقار فراح يضحك وهو يضغط يدها وجلس
بالقرب منها ..

— احزرى ما الذي جاء بي ؟ فاجابت بعد تمكير لحظات
— است ادري .

— لاصطحبكما الى الصائغ لاختاري الحلية الزرقاء التي وعدتك
بها في رونسير .

وشع وجه الفتاة بسعادة طاغية وقالت ولكن امي قد خرجت
ولن تلبث ان تعود سنتظرها اليس كذلك ؟

— اجل اذا كانت لن تتأخر طويلا .

— اتعني انك تضجربوجودي انك تعاملني كما لو كنت ما
ازال طفله .

— كلا ليس كما تعتقدين .

واحس رغبة في ملاطفتها والظفر باعجامها كما لو كان شابا يتصدى
لفئاته اول مرة مستخدما كل مواهبه لخلق لبها والسيطرة على عواطفها
ووجد الاقوال والتعابير طيبة متلاحقة فراح يحدثها بطلاقة بينما كانت
هي تجيبه بشيء من الخبث وبكل ما فيها من نعومة ورقة وكان يخاطبها

بصيفة الجمع فأنطلقت تضحك وتقول لمأذا لا تخاطبني بصيفة المفرد
اتحسب نفسك امام امي ؟ فتخرج خداه وتتمم .

— كثيراً ما وجهت الي أمك هذه الملاحظة . وفتح باب فتهنت
الفتاة هذه امي فاضطرب اوليفيه كما لو كان قد ضبط مرتكباً امرأ إداً
وراح يفسر لها وجوده ثم قال لذي عربة فيها بنا ووصلوا محل الجوهري
في لحظات وجلست الكونتس وابنتها ثم راح الجوهري يعرض عليهما
انواع الحلى ونشر امامهم قطع اللازورد ليختاروا منها اربعاً وطال بالمراةين
تقليبها ثم تناولتاها بعناية وفحصتاها بانتباه صبور وبعد ان اختارتا اربعاً
منها كان عليهما انتقاء ثلاث قطع من الزمرد لصنع الاوراق ثم حبة
صغيرة من الماس لتثبت في الوسط كأنها نقطة ندى وقال اوليفيه
مستطراً لسروره مخاطباً الكونتس . . اريدن ان تجلي لي السرور
باختبارك خاتمين ؟ .

— لي انا ؟ .

— اجل واحد لك وآخر لأنيت اسمحي لي ان اقدم لك هذه
الهديّة الصغيرة تذكاراً لليومين الذين قضيناها في رونسير . ورفضت
فالح ونسب جدل بينهما انتهى بعد لاخي بانتصاره واشترى لهما الخاتمين
وبعد فراغها من هذه المهمة المحيية نهض اوليفيه مفعماً سعادة وقال
سأترك لكما عربتي وسأطلق ماشياً اشاغلها مرة غير ان آيت رجعت

امها ان تعودا ماشيتين في ذلك الطقس الجميل فقبيلات الكونتس
وشكرت برنان وانطلقت في الشارع مع ابنتها وسارتا صامتين بمض
الوقت وقد سيطر عليهما الفرح بالهدايا التي قدمت لهما ثم راحتا يتحدثان
عن الحلبي التي شاهدتاها وقالت الكونتس . اشعر بنفسي تعباً فلنأخذ
عربة يا ولدي .

فسالتها آنيث مضطربة .. ماذا بك يا امه .
— لا شي* انت تعرفين انه منذ موت جدتك كثيراً ما اشعر
بتعب مفاجي* .



ان الافكار الثابتة التي تسيطر على العقول فعل الامراض المستعصية التي تغزو الاجسام . فاذا ما حلت في نفس ما حرمتها لذة تذوق الحياة وابتدت عنها حرية التفكير تفكيراً سليماً منطقياً . وهذا ما كانت عليه الكونتس ، فهي ابن حانت واني اقامت لا تنفك تفكر كما فكرت اذ عادت مع ابنتها بعد ان غادرها اوليفيه : ابعل الا يقارن اوليفيه بينها وبفاضل اذ يرى الواحدة الى جانب الاخرى ؟ انه لا بد فاعل ولو رغماً عنه . وهي تقرأ في عينيه دائماً مثل هذه المقارنة والمفاضلة . . . وهكذا راحت تعذبها فكرة غريبة : لا بد لها من الاختفاء . . عليها الا تظهر بالقرب من ابنتها ابداً . . . انها تتالم المآ متواصلاً ممزقاً . . وحتى عند ما تكون في بيتها مع ضيوفها ، وتجسد ان اعينهم تبحث عن ابنتها دون انقطاع . . ونبئت في ذهنها فكرة ملحة لا ترحم : يجب ابعاد آنت عن البيت ! عليها اخراجها منه باي ثمن . . كما يسمى المرء لابعاد ضيف ثقيل وقع مبرم

وراحت تعمل لتحقيق فكرتها الهائلة تلك بدقة ودراية علمها تتوصل الى الاحتفاظ ، رغم كل شيء ، بالرجل الذي تحب .

ولم يكن حدادها الجديد ليسمع لها بالتعجيل بإبرام زواج آنيث من المركيز ، فكانت تخشى ، خلال فترة الانتظار تلك ان يجد جديد يعرف تنفيذ الفكرة . ولذا راحت بدراية واتزان تعمل جاهدة لاثارة العطف في قواد ابتها على المركيز .

وكانت خطتها محكمه الوضع . فهي تريد الاحتفاظ بالرجلين اوليفيه لها والمركيز لابتها . ولذا عمدت الى اجتذاب الواحد والآخر دون ان تجعلها يلتقيان لديها .

ولما كان اوليفيه في هذه الايام منصرفا الى عمله فهو لا يخرج الا مساء لقضاء السهرة بين صحبه ، كانت كثيرا ما تدعو المركيز للعداء . فكان هذا الاخير يأتي دائما يحمل اخبارا عن المجتمع الباريسي فينثرها امام المرأتين بحديثه اللبق . وقد توصل الى اجتذاب اذني آنيث لما يقول . وانتهى بهما الامر الى نشوء صداقة ، او صحبة ، بينهما نتجت عن ذوقين متشابهين وميول واحدة كحب الخيول والاعجاب بالاناقة والحياة الاجتماعية الباريسية الرفيعة .

وما ان ينصرف من زيارتهم حتى يبدأ الأب والام في اطرائه

وامتداحه بأسلوب خفي . قائلين عنه كل قول محمود لنفهم قائلها ان
عليها ان تقول كلمتها في الزواج منه .

ولم يطل بها الامر . فسرعان ما ادركت مقاصدهما .
وخلصت الى التفكير ان فكرة الزواج من هذا الشاب الجميل الانيق
فكرة صائبة ، فهو ، فضلا عما يقدم لها من متع عديدة ، يستطيع ان
تخرج بصحبته كل صباح راكبين جوادين كريمين ...

ووجدنا نفسيهما خطيبين ذات صباح ... وتم ذلك ببساطة
متناهية فتصافحا وتبادلا ابتسامة .. ثم راحا يتحدثان عن هذا الزواج
كما لو كان شيئاً مقرراً مفروغاً منه منذ امد طويل . وبدأ المركز تقديم
هداياهم . وبدأت الدوقة تعامل آنيث كما لو كانت ابنتها الحقيقية .

لقد تم كل ذلك وارم ونفذ في ساعات النهار الهادئة وكان
نتيجة طبيعيه لتلك العلاقة الحميمة بين آل غيروا والدوقة ، أما المركز
فكان كثير المشاغل ، غديد الواجبات ، فلم يكن كل ذلك يتيح له
المجيء لقضاء السهرات الا نادراً .

واما الامسية فكانت لاوليفيه . فهو يأتي بشكل منتظم
لتناول العشاء لدى اصدقائه مرة كل اسبوع . وكثيراً ما يحضر دون
سابق انذار فيطلب كأساً من الشاي بين العاشرة ومنتصف الليل .
وما ان يدخل حتى تروح الكونتس تنفضه محاولة ادراك ما

يعتلج في صدره ، وتنتهي دائماً الى التفكير : انه لا يقبل إلا بحبها اذا
ما رآها الى قربي ..

وهو ايضاً كان يقدم الهدايا . فما ينقضي اسبوع دون ان
يحمل اليها شيئين احدهما للام والآخر للفتاة . فكانت الكونتس اذ
تفتح العلب التي تحتوي عادة ادوات زينة ، لا تملك نفسها من الاكتئاب .
اقد مرّ الرسام ، في الماضي ، بمثل هذه الحال ، فكان كثيراً
ما يدخل حاملاً بيده هديته ، ثم انقطع عن ذلك مدة ، وها هو يعود
اليها ، ترى امن اجلها بفعل ذلك ؟ لم تكن لتشك في حقيقة الامر ابدًا
انه لا يفعل ذلك من اجلها هي ا وكان يبدو تعباً ، نحيلاً ، فلم تشك في
انه يتألم . وراحت تقارن مواقفه بمواقف المريكز الذي سحر آنيث
قد حرك عوامل حبها هو الآخر . غير ان حالهما لم تكن واحدة .
فالسيد دي فارندال كان هائماً . اما اوليفيه فهو مفرم فقط . هذا ما
كانت تظنه عندما تجد اوليفيه في اوقات عذابه وشقائه ، فما ان يعود
الى نفسه حتى تفكر انها قد تكون مخدوعة .

و كثيراً ما شعرت ان عليها ان تطلب منه عندما يكونان على
انفراد ، ان يفتح لها قلبه ، فيصرح لها بكل شيء ، دون ان يخفي عنها
اقل خلجة ، فخير الف مرة ان تبكي حبها وهي واثقة من زواله من
ان تميش في مثل هذه الريبة القائلة وهي تظن ان حباً آخر يعظم وينمو

في فؤاد من تحب ...

هذا الفؤاد الذي يفوق تعلقها به تعلقها بحياتها . هذا الفؤاد
الذي رعته ، وادفأته ، وحركت نبضاته بحبها وحنوها خلال اثني
عشر عاماً ، والذي زعمت لنفسها انها امتلكته امتلاكاً ابدياً .. هذا
الفؤاد .. تجده بين ليلة وضحاها ، وقد فرّ من انامها خصوصاً
لقدر مخنوم !!

فما جدوى الحب ، الحب الاعظم الذي حملته لاوليفيه ، الحب
الذي جعلها تنهيه طائمه مختارة كل ما تملك دون اي تحفظ ، ما جدوى
هذا الحب اذا كانت رؤية وجه آخر كافية لاذابته وتبخره حتى ليغدو
وجه الحبيب بين يوم وليلة غريباً بعيداً .

غريب ! ايعقل ان يصبح اوليفيه غريباً عنها هي آني اولكنها
ما زالت تخاطبه بنفس اللهجة ، وبذات التعابير ... غير انه لا يغرب
عن بالها ان ثمة اشياء تعترض بينهما فتفصل روحيهما وتبعد بين قلوبهما .
وما تراها هذه الاشياء ؟ اشياء لا توصف ، ولا تنقطع ، ولا تقاوم ..
انها لا شيء .. وهذا اللاشيء مع ذلك يشكل حاجزاً يبدو متكاملاً
يوماً بعد يوم ...

انه يعتمد عنها ، يعتمد عليها يوماً فيوماً . وكل نظرة يلقها على
آنيّت تزيد شقة البعد اتساعاً . وهو لم يكن يدرك تمام الادراك التفاعل

الحادث في قلبه ، او انه لم يشأ ادراك ذلك فلم يكن صريحاً مع نفسه
حياتها وحيال آتيت .

واقصر همه في الايام الاخيرة على السهرات التي يقضيها بين
هاتين المرأتين وقد انصرفتا عن المجتمع ، بسبب حدادهما ، فخلصتا اليه .
وكان يلتقي لديهما بالوجوه المعتادة : ميزاديو وآل كوريل حتى ليخيل
اليه انه معهما وحده في هذه الدنيا . ولم يكن يلتقي بالدوقة والمركيز
فهما قلما يحضرا ليلاً فقد خصصا النهار لحضورهما . وخيل الى برتان
انه نسي وجودهما او ان موعد الزواج قد ارجي * الى اجل غير مسمى .
ولم تكن انيت لتتحدث امامه عن خطيبها ابداً ، او كانت
تفعل ذلك مدفوعة بشعور غريزي ام بشي * من ذلك الحدس النسائي
الذي يجعل القلب يتفتح على عوالم مجهولة من العقل ؟

ومرّت الاسابيع تلو الاسابيع دون ان يطرأ اي تغيير على
هذه الحياة الرتيبة حتى جاء الخريف . وجاء معه افتتاح المجلس النيابي
وما جر ذلك من تقلبات في الجو السياسي . ويوم افتتاح البرلمان
دعى الكونت دي غيروا الدوقة والمركيز وآتيت بعد الغداء لحضور
حفلة الافتتاح . ولم تشأ الكونتس مرافقتهم رغبة منها في الانفراد في
بيتها باحزانها المتزايدة يوماً اثر يوم .

وبعد ان فرغوا من تناول الطعام خرجوا الى الصالون الكبير

لارتشاف القهوة . وراح الكونت يتحدث عن حفله الافتتاح وما قد يجز ذلك من نشاط في الحياة السياسية العامة التي تشكل بالنسبة اليه متعة كبرى . وكانت القهوة قد قدمت ونشرت في جو الصالون اريحها العطر عندما قرع الباب ودخل اوايفيه برتان .

وتردد في الدخول وقد ادهشه ما وقعت عليه نظاره ، وقد داخله شعور الرجل الذي يدخل بيته فيجد نفسه امام خيانه زوجية سافرة !.. وشعر بالغضب بكاء يحمد انفاسه ... واحس ، في هذه اللحظة ، انه يحب آنيث ... وكل ما اخفي عنه ، وكل ما اخفاه هو عن نفسه ، برز امامه الى النور واضحا بينما عندما شاهد المركيز جالسا قرب آنيث كخطيب قرب خطيبته .. ودخل وقد اعتراه اضطراب عنيف هز كيانه هزاً .. ولم يسأل عن سبب اخفاء امر هذا الزوج عنه ، لم يسأله لانه ادرك ذلك دون حاجة الى سؤال . والتقت عيناه القاسيتان بعيني الكونتس فتضرجت وجنتاها .. لقد تفاهما .

وصمت الجميع بعد جلوسه كأن حضوره شل تفكيرهم . ثم انتقلت الدوقة الى قربه راحت تجاذبه اطراف الحديث فكان يجيبها باقتضاب وبنبرة بدت غريبة حائقة .

وكان لا يفتأ يحيل نظاره في هؤلاء القوم الذين عادوا يتحدثون

وهو يردد بينه وبين نفسه : « لقد خدعوني . سيدفعون ثمن ذلك غالباً » .

والتفت الكونت الى الساعة وهتف : آه لقد آن وقت الذهاب .
ثم استدار الى الرسام وقال له : اتا ذاهبون لحضور حفلة
افتتاح المجلس النيابي . ان زوجتي باقية في البيت . فاذا شئت مرافقتنا
كان ذلك من دواعي غبطتنا .

فاجاب اوليفيه بخفاف : كلا شكراً . ان مجاسكم لا يغريني .
ودنت منه آتيت وقالت بلهجة مرحة : — ولكن تعال معنا
يا استاذي مما لا ريب فيه انك ستسلينا اكثر مما سيفعل هؤلاء
النواب المحترمون .

— كلا . حقاً ؟ ولكنكم تعرفون كيف تتسلون من دوني .
واذكرت انه غاضب ومستاء فالت عليه بدافع من اللياقة .
ولكن .. تعال يا سيدي الرسام ، فانت تعرف ان ليس لي عنك غناء .
وانفلتت من بين شفتيه كلمات لم يستطع لها امساكاً او تخفيفاً
من حديثها :

— بخ ! انك تستطيعين الاستغناء عني مثلك مثل بقية الناس .
ونساءك بشيء من الاندهاش : — آه . لقد عاد يخاطبني
بصيغة الجمع .

وانفجرت شفتاه عن ابتسامة مقنصبة من تلك الابتسامات
التي تنم عن آلام مبرحة تعتمل في نفسه الممذبة .
وعاد يقول بشيء من الهدوء : - عليّ ان اعتاد مخاطبتك
باحترام ...

— ولماذا ؟

— لانك ستزوجين قريباً . وقد لا يروق لزوجك ، كائناً
من كان ، ان يسمع لهجة رفع الكلفة هذه .
وتدخلت الكونتس قائلة :

— لم يحن بعد الوقت لمثل هذا القول . غير اني لا اعتقد
ان زوج آيت سيكون من الخشونة بحيث يسيؤه ان يسمع هذه
اللهجة العائلية من صديق قديم .
وصاح الكونت :

— هيا . هيا . ستتأخر ..

وتبعه اللذين سيرافقونه . فودعوا الرسام والكونتس وخرجوا .
هاهما على انفراد . هو وهي . واقفان وراء الباب المغلق .
قالت برقة اجلس يا صديقي .

فاجاب بنصف : كلا شكراً . اني ذاهب انا الآخر .
وتتمت ضارعة : آآ .. ولكن .. لماذا !

— لأن هذا الوقت ليس لي على ما يبدو . أني اعتذر اليك

لجبي* في غير ساعتي

— ما بك يا اوليفيه ؟

— لا شي* . انما انا آسف لازعاجكم في ساعات صفوكم .

وتناولت يده : — ماذا تقصد ؟ انها ساعة انصرفهم اذ انهم
سيحصرّون حفلة افتتاح الندوة النيابية . وانا لن ارافقهم . فانت ،
بجيتك في هذه الساعة ، كأنك الهمت ذلك الهاماً ... فانا كما ترى
وحيدة ...

ولاك بعض الكلمات : — ملهاً ... اجل ملها ...

وتناولت راحتيه الاثنتين ونظرت في اعماق عينيه وتمتمت

بصوت خفيض :

— اعترف امامي انك تحبها .

وسحب راحتيه من كفها وقد افلت سيطرته على اعصابه :

— انك مجنونة بفكرناك هذه .

وقبضت ذراعه وضغطت بكفها فوق زنده وقالت بالهجة

كلها ضراعة ورجاء :

— اوليفيه ! اعترف ! اعترف يا اوليفيه* كم اود ان اسمع

الحقيقة من فمك اني واثقة . واثقة ولكن احب ان اسمعك تقول

ذلك .. أنت لا تدرك مبلغ العذاب الذي يمزق حياتي .
وهز كتفيه وقال : - ماذا تريد مني عمله اذا كنت قد
فقدت كل ادراكك واصبت بحس من جنون ؟
وجرته نحو الصالون البعيد حيث لا يسمعون احد . وجرته
من سترته وهي تنسبث به حتى بلغت به مقعداً مستديراً فالتقت به
فوقه وجلست بقربه :

- اويلفيه ! يا صديقي الوحيد ! ارجوك . انزعرك اليك . قل
انك تحبها . انا اعرف انك تحبها ، احس هذا الحب في كل ما تقول
في كل ما تفعل . اكاد اموت .. ولكن اريد ان اسمع ذلك من فمك .
وراح يتخبط محاولاً النخلص من بين ذراعيها . فتداعت فوق
الارض على ركبتها ، وجثت تحت قدميه وراحت بصوت مخنوق
تقول : - آه يا صديقي . يا صديقي الوحيد ، احبها حقاً ! ؟
وصرخ محاولاً انهاضها : - كلا .. كلا ... افسم لك ان كلا...
ومدت راحتها الى فمه والصقتها به لتسكته وتمت : - آه ..
لا تكذب ! لشد ما تؤلني ...

وتركت رأسها تسقط فوق ركبتى هذا الرجل وراحت في
نشيج مر ..

ولم ير الا عنقها ، كتلة من شعر تخلله عدد كبير من الشعر

الايئـض ... وعبرت بكـيانه هـزه عـنيفـة من الشـفـقـة .. ومـوجـة هـائلـة
من الـأـلم .

وقبـض باصـابعه علـى شعـرها الكـثـيف ورفـع اليه وجـهها الشـاحـب
بـعينـها الشـاخـصـتين والدمـوع تـجـري مـنـها مـدـراراً ... والقـى بـشـفـتيـه
علـى عـينـها الدامـعتـين .. يقـبل الواحـدة تـلو الاخرى مـردداً :
— آني .. يا عـزـيـزتي .. يا عـزـيـزتي آني ...

وحاولت ان تبتسم ، بصوت طفل مخنوق بالآلم قالت : — آه
يا صديقـي قل انـك ما تـزال تـحـبني .. ولو قليلاً ...
وعاد يقبلها : اجل ! انـي احـبـك يا عـزـيـزتي آني ..
ونهضت وعادت تجالس الى قـربه وتأخذ بيـده بكـفيـها ، وبصوت
مـشـيع بالحنـو راحـت تقول :

— ها قد مـضى زـمن طـويل ونـحن متـحـابان .. ابعـقل ان يـنتـهي
كل شـيء يـفـنـا بـمـثل هـذه السـرعة !

وسألها وهو يجذبها الى صدره : — ولما ذا تريدين ان يـنتـهي كل
شـيء هـكـذا سـريـعاً ؟

— لا ! انـي قد اكـتـهـلت . ولأن آنيـت تشبـهني يـوم كـنت في
رـبـق الشـباب . يـوم عـرقتـي واحـببتـي .

وكان عليه هـذه المـرة ان يـمد يـده لـيسـكت فـها المـألم قائلـاً :

— مرة أخرى ! ارجوك . لا تسكمني في هذا الموضوع . اقسم
لك انك واهمة ...

ورددت : — على ان تظل تحبني ولو قليلاً . انا ..

واعاد : — اجل اني احبك .

واقاما مدة طويلة لا يبتذان ، ايديهما متعانقة ونفساهما مفعمتان
شعوراً طاغياً مريراً ...

واخيراً قطعت جبل الصمت قائلة : — آه لن يكون ما تبقى
لي من حياتي سعيداً ..

— ساجتهد في اغداق السعادة على الايام الباقية .

وكان ظل قائم يفعم الجو ، كظل سماء غائمة بعد انقضاء ساعة
الشفق . وتكاثف هذا الظل حتى غلف الكون في مساء الخريف ذاك .
وتعالت دقات ساعة .. فقالت : لقد طال بنا المكوث هنا .
وقد آن لهم ان يعودوا . فعليك ان تذهب فنحن لسنا في حالة طبيعية
لما نحن فيه من اضطراب .

ونهض . وكما كان يفعل في الماضي ، طبع على ثمرها نصف
المفتوح قبلة حارة ثم عبرا الصالونين متعانقي الاذرع كما لو كانا زوجين
— وداعاً يا صديقي — وداعاً يا صديقتي .

واغلق الباب خلفه .

وهبط السلم وسار في شارع المادلين . وراح يمشي دون وجهة معينة . واحس ساقيه تحذلانه . وقلبه خافقا حاراً كأن في صدره جهرة متقدة لاهبة . واستمر في سيره وقتاً طويلاً جداً . ثلاث ساعات او اربع ... وأخيراً لم يعد له من القوة ما يساعده على نقل قدميه فعاد الى بيته ليفكر :

انه يحب هذه الفتاة .. الى لقد احبها منذ نزهتهما في حديقة مونسو .. يوم ادرك ان صوتها يحمل اليه اريج حب لم تكن قد خبت جذوته تماماً في فؤاده .

وما تراه فاعلاً ؟ وما تراه يستطيع فعله ؟ فما ان تزوج حتى يجتنب لقاءها . هذا كل شيء . وبانتظار ذلك سيتابع زيارته للمنزل كي لا يجلب الشكوك اذا فعل غير ما اعتاده ، وسيستمر في اخفائه سره عن كل مخلوق .

وتعشى وحده كما لم يفعل من قبل ، وامر خادمه ان يشعل له المدفأة لأن الليل كان مثلجاً كما امر ان تشعل الثريا الكبرى في ممرمه لانه كان يخشى الظلام يا للشعور الغريب الخفيف ! يا للالام النفسية والجسمية التي اجتاحتها !

وراح يستعرض شريط حياته : ان كل ما يراه في بيته يذكره بحياته كلها كغبان وكرجل . هذه اللوحات التي تذكره بنجاحه في

مضمار الفن .. وهذه الاشياء التي تذكره بحبه امرأة واحدة طوال
حياته .. تلك الحياة القصيرة المليئة بالفراغ ...

غير ان حبا آخر تسرب الى سويداء قلبه رغماً عنه . وامسوطن
ثمة ولم يعد بمقدوره اقتلاع جذوره . حب . آخر ؟ ! كلاً انه حبه الاول
حبه للمرأة الوحيدة . ولكن جاء محملاً فوق وجه جديد فتى ...

انه يحبها ! لم يعد مجال للنكران او للدفاع .. يحبها ؟ وهي ؟
انحبه ؟ لاريب في انها ابعد ما تكون عن مثل هذه الفِكر . هي ؟
ولكنها ستزوج قريباً . وادرك ان لا حول له ولا قوة .. فهو مقيد
مسير ، مشدود بسلاسل غلاظ كتملك الكلاب المربوطة الى بيوتها .
وحاول ان يفرق آلامه بذكريات حبه الماضي . باوقات اللذة
والانطلاق يوم كانت حبيبته شابه حسناء .. وجه امها الفتى . الواقع
ان الام قد اختفت الى الابد تاركة مكانها لابنتها ... اختفت من قلبه
لتحل فيه آنيث بشعرها اللامع وابتسامتها الهازنه وعيهاها الساحر ...
لقد امتلكنه هذه الفتاة كما تملك الامواج سفينة غارقة !

وشاء ان يتخلص من هذه التخيلات المريرة فقصد غرفته
وفتح درجاً رقدت فيه كل رسائل عشيقته اليه كما يرقد الجسد في
نعشه .. ومد اصابعه خلال الرسائل المصفرة التي تنطوي على قصة
حب . قصة حياة قلبين ..

وحاول ان يقرأ بعضها فاستخرج من اعماق الجرار قبضة من
اقدم الرسائل وراح يقلبها والد كريات تتوالب من بين طياتها مزدهجة
متدافعة فتحرك اعماق شعوره فهذه الرسالة نصف له فيها كيف
بكيت تحت قدميه يوماً لأن الفيرة قد ادركتها وهذه اخرى تصور
خلجات قلبها وقد فتحت له على مصراعيه يقرأ فيه عواطف حبها كما
في كتاب مفتوح . وغيرها وغيرها كثير وكلها نصف مرحلة من
مراحل ذلك الحب الذي عمر طويلاً . . . ووجد ، لشدة دهشته ، ان
كل هذا الحب القديم قد اختمر في اعماق قلبه مكتسباً حيوية جديدة
كأن نفساً جديداً حاراً قد جرى فيه ، وخلال كل ذلك يبرز وجه
آنيت ، واضحاً صريحاً . . . لقد احب الام ، فاستعبده حبه ، وها هو
يجد نفسه امام حب الابنة مستعبداً بل رقيقاً قناً . . . وحاول ان يدرك
كيف ولماذا سيطرت عايه الصغيرة مثل هذه السيطرة ؟ كيف قبض
لها امتلاك ناصية عواطفه بائسامة بريئة وبخطرات خصلات شعرها
المتطاير . . . آه ان ابتسامات هذه البنية وخصلات شعرها الشقراء
لتنفذه الى الجثو على ركبتيه وتمفير جبهته في الرغام . . .

انه لما يدق على الافهام كيف ان وجه امرأة يفعل فينا فعل الدم
الزعاف ؟ سما كأننا نعب منه باعيننا . . فاذا بنا نتمل ، بل نجف ، وربما
اندقمنا في سكرنا وجنوننا حتى الموت . . .

وكان اوليفيه قد عاد يزرع غرفته ، وكان الليل قد تقدم ،
وناره قد خبا اوارها ، فاوى الى سريره واستمر في افكاره المؤلمة تلك
حتى انبثاق الصباح ...

ونهض مبكراً دون ان يعرف لذلك دافعا ، فما تراه فاعلاً ؟
كان متردداً ، مضطرباً ، كريشة في مهب ربح زرع . وراح بفكر
بطريقة يروح فيها عن نفسه ويهدى نائر اعصابه ، وتذكر ان رفاقه
في النادي يجتمعون في مثل هذا اليوم من كل اسبوع ليقصدوا المسبح
حيث يتناولون غداهم بعد الاستحمام . وسرعان ما ارتدى ثيابه وخرج
آملاً ان السباحة قد تخفف من تور اعصابه وتقلل من ثورة نفسه .
وما ان وضع قدمه خارجاً حتى احس برداً شديداً ينفذ حتى
عظامه ، هذا البرد الذي يأتي ليطرد ما قد يكون تبقى من اثار الصيف
في الطبيعة ، وعلى طول الشارع كانت الاوراق المصفرة ، تنتثر فوق
الارصفة كأنها مطر غدير مدرار . وكان هذا السيل من موات
الاوراق قد كسا الارصفة بطبقة صفراء كثيفة تخش تحت الاقدام
خشيشاً ثم تحملها هبات الريح فتسير بها كأنها موجة طاغية من فناء
واضمحلال ...

كان هذا اليوم من تلك الايام التي تحدد نهاية فصل وبداية

فصل آخر . . من تلك الايام التي تحمل معانياً فريدة في كتابها
ونارتها لكوا من الاحزان ...

وبلغ الحمام فاسرع يخلع ثيابه ويرتدي لباس الاستحمام ثم قاده
خادم زنجي متين البنيان الى غرفة الاستحمام حيث تهب نفحات ساخنة
من انجرة المياه الحارة المتدفقة . واول من التقى به من صحبه كان
الكونت دي لاندا فبادره هذا الاخير قائلاً : - اسمعت صباحاً يا رتان
ونصافحاً . ثم تابع لاندا : - ان الطقس بارد . والاستحمام طيب
- اجل . انه رائع .

- الم ترَ روكديان ؟ انه هناك . ها هو آت :
وكان روكديان يتجه نحوهما وقد لمح الرسام .
وجلسوا حول مائدة رخامية وراحوا يتحدثون كأنهم
في صالون

وفي كل لحظة كان يصل احد الرفاق فيجيب الثلاثة او يدنو
ليصافحهم .

وهتف روكديان فجأة : - انظر . هو ذا دي فاراندال .
وكان المركزيز يتقدم ويداه الى خاصرنيه ، سائراً بثقة رجل
لا يزعجه شيء .

وتم لاندا : - انه لاعب سيف ماهر ! هذا غلام !

وعاد روكديان يقول : اصحيح انه سيتزوج ابنة اصدقائك .
فاجاب برتان : - اظن ذلك .

وايكن هذا السؤال ، في مثل هذا الموقف ، وامام هذا
الرجل ، قد ولد في قلب اوليفيه انقباضاً شديداً ونورة وبأساً . فقد
برزت امامه الحقيقة السافرة القبيحة المنتظرة . حتى لقد راح يقاوم في
نفسه رغبة حيوانية في ان ينسب على المراكيز . ثم نهض قائلاً : - اني
احسن تمباً وسأخذ حمامي سريعاً .

ومر بهم خادم مغربي فناداه برتان :

— ألسنت مشغولة يا احمد ؟

— كلا ايها السيد برتان

فهض وتبعه متحاشياً الاستحمام بفارندال الذي كان يقوم بجولة
حول باحة الحمام .

ولم يبق في غرفة الاستحمام اكثر من ربع ساعة . ووجد نفسه
مرة اخرى في الشارع تحت الاوراق الصفراء المتطايرة . وفكر
برتان : ماذا سيحدث لي ؟ ما تراني فاعلا ؟ الى اين اقصد ؟ . وعاد
ادراجه الى البيت دون ان يخرج بنتيجة ما . وافت انظاره كشك لبيع
الصحف ، فابتاع سبع جرائد او ثمانية آمل أن يجد فيها ما يشغله عن
نفسه ساعات .

وقال لخادمه : سأتعدى هنا .

وصعد الى مرسمه .

والسكنة ادرك لدى جلوسه انه ان يستطيع بقاء فهو يحس في جسده سميحاً هائلاً كأنه حيوان مسعور .

ولم تقو الصحف على الترويح عنه دقيقة واحدة . فكان مايقراء لا يتجاوز نظاره لينفذ الى عقله . وكان يطالع مقالاً دون ان يحاول فهمه . ووجد نفسه ينتفض بعنف لدى وقوع عينه على كلمة (غيروا) . . . وكان المقال يتحدث عن حفلة افتتاح الندوة النيابية حيث القى النائب غيروا خطبة .

وكان هذه الانتفاضة قد ايقظت عقله الغافي فقرأ ان الموسيقي الكبير موتتروزي سيقدم في نهاية كانون الاول حفلة موسيقية رائعة اذ انه قد غادر باريس منذ ستة اعوام لاقى خلالها في معظم عواصم اوروبا واميركا نجاحاً منقطع النظير . فضلاً عن انه سيكون مصحوباً بالمغنية الشهيرة السويدية هيلسون والتي لم تكن باريس قد سمعت شذوها منذ خمسة اعوام .

والتمعت في عقل اوليفيه فكرة : يجب ان يوفر لآنيث متعة حضور هذا الحفل الفريد . واجفل اذ تذكر ان الحداد قد يشكل حاجزاً صعباً اقتحامه في سبيل تحقيق فكرته . وبالرغم من ذلك لم

يدركة يأس . ثمة طريقة واحدة وهي ان يحجز مقصورة فوق المسرح مباشرة حيث لا يتاح لاحد رؤيتهم بوضوح . واذا لم نشأ الكونتس الحضور فسيصحب آنت و اباهما والدوقة . وفي هذه الحالة لا بد للمركيز من الحضور .

وادركه التردد وفكر طويلاً ..

مما لا ريب فيه ان الزواج قد قرر بل ربما حدد مواعده . فلم يغب عنه تسرع الكونتس في ذلك . فهي تبغي اعطاء ابنتها لفارنزال باسرع وقت ، استطاع . وهو ، برنان ، لن يستطيع شيئاً . هو لا يستطيع منع او تعديل ، او ارجاء ، ذلك الحدث المخيف ...

ولما كان لا بد مما ليس منه بد ، ليس من الافضل ان يكبت عواطفه ، ويخفي آلامه ؟

سيدعو المركيز اذا . اوليس من الافضل ، وهو لا يستطيع شيئاً في سبيل الحلولة دون الزواج ، ان يحتفظ لنفسه بصداقة الزوج العتيذ كما يتاح له باب ينفذ منه الى البيت ، بيت حبيبة آنت !

وما ان تناول فطوره حتى اسرع الى الاوبرا ليستوثق من موعد الحفلة وليحجز منذ الآن احدى المقصورات الخفية . وقد فعل . ثم اسرع الى بيت آل غيروا .

وسرعان ما استقبلته الكونتس وكانت ما تزال تحت تأثير
فيض عواطفها مساء اليوم السابق .

وبادرت قائلة : - انه لطيف منك حضورك اليوم .

فقال : - اني احمل اليك شيئاً ما .

- وما هو ؟

- بطاقة لحفلة المغنية هيلسون والمازف العالمي موتروزي .

- آه يا صديقي ، انه لأمر محزن انسيت حدادي .

- ان حدادك قد عمّر اربعة اشهر .

- اؤكد لك انه ليس بمقدوري ...

- وآنت ؟ فكري ان مناسبة كهذه لا تسنح كل يوم .

- وبصحبة من ستذهب آنت ؟

- مع ابيها والدوقة التي سأدعوها . وأميل الى دعوة الماركيز

كذلك .

ورنت اليه باعماق عينها بينما داخلتها رغبة غنيفة في عناقه كادت

ان تنتقل الى شفقتها . ورددت وهي لا تكاد نعي ما سمعت اذناها :

- الماركيز ؟

- اجل .

ووافقت فوراً على كل هذه الترتيبات .

وعاد يقول باللهجة عدم اكتر اثار .
 — هل حددتم موعد الزواج ؟
 — كلاً . يا الله . بل اجل . تقريباً . ولدبنا من الاسباب ما
 بجعلنا نمجل موعده . انذكر متى كننا قررناه قبل وفاة والدتي ؟
 — اجل . ولكن الى اي تاريخ ؟
 — اول كانون . واني لا اعتذر منك اذ اتنا لم نخطر بك بذلك
 قبل الآف .
 ودخلت آنيث . واحس قلبه يثب بين حناياه . وحدجها
 بنظرة تقطر مرارة . يمثل تلك النظرة التي تعبر عن حب مرزقه سياط
 الغيره واشتخت فيه . وقال لها :
 — آني احمك اليك شيئاً . .
 — اراك عدت الى لهجنتك الجديدة معي . .
 فاجاب بصوت ذي نبرة عطف ابوي :
 — اسمعي يا صغيرتي . لقد احاطتني امك علم بالحدث المنتظر
 الذي تهيبون . وأؤكد لك ان مخاطبتني لك يمثل هذه اللهجة امر
 مفروغ منه بعد زواجك . فلا اعتد عليه منذ الآن .
 فهزت كنفها بحر كة استياء . بينما لزمّت الكونتس الصمت
 وسألته آنيث : وماذا تحمل ؟

فأخبرها بالاحتفال والدعوة التي عزم عليها . فاستطارت فـرحا
وقد استخفها الطرب للدرجة ان وثبت بخفة الاطفال الى كتفه
وطبعت على وجنتيه قبالتين .

وشمر اعصابه تسكاد تحذله تحت وطأة قبل هذا الثغر الندي ذي

الارج الفواح ...

وانتفضت الكوننيس وقالت :

— اتعلمين ان اباك ينتظرك .

— اجل . وها اني ذاهبة .

وانطأقت وهي تلقي الى الرسام قبلاً من اطراف اصابعها ...

وما اختفت حتى سأل اوليفيه :

— هل سيسافران .

— اجل . ولثلاثة اشهر .

وتتم رغما عنه : — حسنا بفعلا .

— وسنعود نبحن الى حياتنا الاولى ...

فعاد يتمم : — اظن ذلك .

تد وليس معني ذلك ان تهملني بانتظار ذلك .

— كلاً يا صديقتي .

ان نصرفه امس عندما بكت بين يديه ، ومجيئه لدعوة المراكز

هذا اليوم ، اعاد للكوننيس شيئاً من الامل الداوي ...

ولم يطل بها الامر كثيراً ، فقد عادت تقرأ على وجه عшиقها
آلامه المبرحة ، بكثير من الفيرة المرة . . وهي لا تستطيع التعمي عن
شيء . فذلك اوضح من ان تغاضى عنه عين . وكل ما وقعت عينها
على آتيت ادركت انها لن تستطيع شيئاً في سبيل وقف ذلك التيار
الجارف العنيف ...

وبداً كل شيء يحط عليها ليسحق شبابها سحقاً . كره السنين
وهذا السواد الغارقة فيه . لا شك في ان فتنها الطاغية التي كانت كافية
لتسوق اليها الظفر بحبيبتها دائماً قد ادر كها الاضمحلال ...
وها هي تلمس ان كل الاشياء المحببة التي تضي على الحياة
معاني الجدة والاستمرار والرواء ، ان كل هذه الاشياء تفر منها فراراً
لسبب واحد . هو ان الهرم او شك ان ينقلها الى زوايا النسيان والاهمال
لقد انتهت كل شيء بالنسبة اليها ... وبالزغم من كل ذلك فهي ما تزال
تشم في قلبها عواطف شابة خضلة العود او امرأة فتية ونابة الى الحياة
لم يهرم فيها سوى جسمها . بشرتها التمدسة تفضنت . هذا الغطاء
الحريري الذي كان يغلف عظامها ها قد تخلق كما يتخلق غطاء الاثاث
فوق الخشب . امّا قلبها . . قلبها فازال خفافاً نشيطاً مندفعاً حباً وحنواً
وحرارة ...

ولكنة ما عذبت هذه الافكار نفسها .. انقلبت الى الم جسماني
حقيقي ينخر جسدها ويهد كيانه هدأ مروعاً ...

لهم يكن يتردد في باريس سوى اسمين : اياما هلسن ومونتروزي
وبقدر ما كان المرء يدنو من الاوبرا بقدر ما كان هذان الاسمان
يصكان مسامحه . بينما كانت اعلانات ضخمة تحمل اسم الفنانين منشورة
على اعمدة الاوبرا وفي زاوية كل شارع .

وكنت تشاهد على جانبي الشارع المفضي الى الاوبرا ذات البناء
الضخم الحرس الجمهوري فوق جباذهم ينظمون حركة السير والوف
العربات قد تقاطرت من جميع نواحي باريس تطل منها ، خلال النوافذ
المفتوحة ، رؤوس غارقة بفاخر الثياب . ثم كانت كل عربة تتوقف
امام المدخل الرئيسي ليهبط ركبها ثم يتلمهم لدهليز الواسع المفضي
الى الصالات الفساح .

وعلى طول الدرج الفخم كان سيل لا ينقطع من سيدات غارقات
في الفراء ورجال في ثياب السمرة السوداء ..

وفي اللوج الواقع فوق المسرح كانت تجلس الدوقة وآنيث

والكونت والمركينز وبرتان وقد لحق بهم ميزاديو . وكانت الضجة
تعلو من وراء الستار المسدل ، ضجة عميقة مبهمة تم عن اشخاص في
نشاط دائب . وكانت الانظار متجهة الى ذلك الستار كأنها تحاول
اختراقه والنفاذ الى ما وراءه .

ان الستار سيرفع عن رواية (فوستا)
وراح ميزاديو يحدّثهم عن الحفلة التي اقيمت قبل ذلك في
(التياتر ليريك) وما لاقت من نجاح منقطع النظير .
وكانت آنيث تصغي اليه بنهم صدياني بينا ترشق خطيبها ،
ذلك الذي سيدصبح زوجها ، بين الفينة والاخرى بنظرة تقطر حنواً...
انها تحبه الآن ، تحبه كما تحب القلوب الساذجة ، تحبه لأنها تجد فيه
كل آمال غدها المأمول ...

ان أولى نشوات الحياة ، ورغبتها العنيفة في ان تنال السعادة
كانتا محرّكان قلبها بالحنو والانتظار .. انتظار ولوج باب الحياة السري
امّا اوليفيه فكان واقفاً في المقصورة ينظر كل ما يجري ، ويدرك
كل هذه البواعث . لقد هبط درجات سلم الحب المكبوت وقد بلغ
هبوطه الى ذلك الاتون الذي يصهر القلب البشري كما تصهر نار حامية
لحمًا يشوى فوقها . كان ينظر الى الخطيبين نظرة فيها غيرة مريرة
وفيها ضراعة متخاذلة ...

وقرع المسرع ثلاثاً .. وارتفع الستار عن الفرقة الموسيقية ،
وبعد فترة قصيرة من ضمت عميق رفع العازفون اقواسهم وتماوجت
في الجو انغام بالغة الروعه نفذت من السامعين حتى الاعماق ...
وجلس اوليفيه في طرف اللوج ، وقد عضه اللام والحزن كما
لو كانت جراح قلبه قد نكأ بها هذه الالحان البالغة حد الروعة والجمال
وكان الجمهور يصفي الى العزف الفريد بانتباه صارم ، وتذوق
صادق . وراح اوليفيه يصفي كما يصفي الجميع وكان لكثرة ما استمع
الي هذه الاوبرا قد حفظها عن ظهر قلب ومع ذلك انطلق يصيح
باسمعه واجداً فيها كل مرة متعة جديدة . لقد قرأ هذه المسرحية
الشعرية قبل اليوم ، وتذوق فيها فن (غوته) وتلك الافكار التي حاول
وضعها في قلب بطلة (فوستا) .. ولم يكن قد تأثر بها قبل الآن ...
اماً هذه المرة فخيّل اليه ان الاقوال والانغام تمس من قلبه وترأسديد
الحساسية .. ذلك انه تصور نفسه ، هذا المساء ، انه هو الآخر (فوستا)
كانت آتيت منحنية قليلاً على مسند المقصورة منصرفة بكل قوتها
و كانت تمتمات اعجاب قد بدأت تنفلت من شفاه السامعين ذلك ان
صوت مونتروزي كان ابلغ وقمًا منه في جميع الاوقات ...
وانغمض برنان عينيه . فمنذ شهرين اصبح لا يرى شيئاً ولا
يسمع بشيء الا ويقارن حالاً بين احساسات الاشخاص واحساساته

ويجد دائماً شهما غريباً بين عذاب الآخرين وعذابه الذي يصلى بناره
منذ عرف قلبه هذا الحب الغريب ... حب شخص مزدوج ..
الام والابنة .

وها هو الآن يصفي بجماع نفسه الى صدى تضرع فوستا وقد
برزت فكرة الموت في اعماق نفسه . تلك الفكرة التي تقوى دون سواها
على وضع حد نهائي لكل ما ينتابه من آلام ممزقة ، وكل ما يحسه من
بؤس في حبه الشقي .

وتطلع صوب آتيت هيكلمها الدقيق فوجدها مستندة الى مقعدها
ومن ورائها خطيبها بتأملها كذلك . وادرك انه شاخ ، وانتهى ! فما
تراه ينتظر ؟ ما تراه بأمل ؟ اما بقي له حق في ان يترجى شيئاً .. لقد
قلبت له الحياة ظهر المجن ، فالقت به من حلق .. كأنه موظف احيل .
فجأة على التقاعد فلم يعد له ما يعمل .. يا للعذاب المريع ! .

وعصف التصفيق يهز جدران الصالة الكبرى . لقد انتهى
موتروزي ، وكان انتصاره رائعا . وبرزت من وراء الستار المغنية
(لا باربير) ولم يكن اوليفيه قد ضمها من قبل ، فاستفاق من استرساله
مع احلامه المريرة وصفت اذنه جملة يقولها فوستا (لابلت) : اريد
كنزاً يضم كل اطاييب الحياة ومسراتها ، اريد الشباب ! واعاد اوليفيه
هذه العبارة بين استانه . وانشدها بالم بالغ في اعماق نفسه ، وكانت

عيناه عالقتان بعنق آنيث الابيض الاتع ، فادر كته كل معاني تلك
العبارة المرة المريعة .

وهبط الستار وعاد فارثقع وقد ضجت الصالة بالتصفيق ،
إيتاح لقائد الفرقة تحية الجمهور ، وكانت آنيث والدوقة تصفقان بحرارة
وقد استمرتاً بعد انتهاء كل المصفيين ، وكأن جر كتهما هذه قد لغت
انظار مونتروزي الذي حياهما تحية خاصة . قالت آنيث :

— لقد رأنا فهتفت الدوقة :

— ياله من فنان عظيم !

وراحوا يتحدثون عنه ، لاريب في ان نجاحه يفوق مواهبه .
ولكن مما لاريب فيه انه قد لاقى في كل العواصم نجاحاً
— لم يسبق له مثيل حتى لقد كانت النساء يشمرن بقلوبهن
تنفطر لدى وقوع انظارهن عليه . وعقبت الدوقة .
— ومن ناحية ثانية .. كيف يمكن مقاومة سحر صوته
الطاغي .

وحق اوليفيه ، ولم يدرك كيف يمكن الاعجاب بمنثل هذا
العرض المردلنموزج من البشر لايتغير . فإين الفن . والعبقرية في إعادة
مشهد واحد سنين عديدة ؟

واجابته الدوقة : — لاريب في انك تحس حسداً منه . انكم انتم

الرسامين تحقدون على الممثلين لأنهم يفوقونكم نجاحاً . ثم استدارت
نحو آيت وقالت :

— الا قولي ، انت التي ستدخلين الحياة قريباً ، ان لك عيدين
بريئين ونظرة ما تزال طاهرة ، قولي الم بعجبك هذا الفنان ؟
فاجابت آيت بصوت مقتنع : - وكيف لا . اني اجد عظمياً
جداً .

وقرعت الضربات الثلاث معلنة بدء الفصل الثاني :
وكان دور هيلسن رائعاً حقاً : فان صوتها قد تحسن كثيراً
واكتسبت ، لطول المران ، نعومة رائعة جعلتها تستحق تلك الشهرة
الطائرة التي لا تعاد لها الا شهرة بسمارك ودي ليسبس من عظماء الاحياء .
وانطلق فوستا اليها وخاطبها بمبارات عابقة بالاغراء :
الا تسمحين لي ابتها الآنسة الجميلة
ان اقدم لك ذراعي ، لا سير في الطريق
وما ان اجابته مرغريت الجميلة الشقراء الرشيقة ، والتي تقوم
بدورها هيلسن : ،

كلا يا سيدي ، فانا لست آنسة ولست جميلة
ولست بحاجة الى يد تقدم الي . .

ما انت اجابته بهذا القول حتى عاد التصفيق يكاد يقوض
اركان الصالة ...

ولما هبط الستار كان الهتاف يعلو والتصفيق يتزايد حتى ان
آنيث انطلقت تصفق بحرارة جعلت برنان يكاد يجذبها ليمنعها عن
ممايمة التصفيق . كان قلبه مفعماً بالمر جديد . فلأذ بالصمت خلال فترة
الاستراحة . وكان الفصل الثالث والآخر .

وظل برنان حتى نهاية التمثيل لا ئذا بالصمت المطبق ، وقد
انشبت تلك الافكار برانها في سويداء فؤاده .

وما هذات ضجة الاستحسان والاعجاب حتى قدم ذراعه للدوقة
بينما تناول المريكيز ذراع آنيث وهبط الجميع السلم بيناء وارج من رجال
ونساء . وصعد الكونت والدوقة والمريكيز وآنيث الى عربتهم بعدان
ودعوا برنان الذي بقي هو وميزاديو في باحة الاوبرا

وشعر فجأة نحو ميزاديو بمثل ما يشعر الغريب اذا التقى باحد
ابناء وطنه . فهذا هو الرجل الوحيد الذي يستطيع ان يحدثه عنها .
وتناول ذراعه وقال : - الطقس جميل . فما رأيك بنزهة قبل النوم .
- لا بأس .

وانطلقا نحو المادلين . كان الف موضوع في رأس ميزاديو .
فراح يحدث صديقه بها بطلاقة واندفاع .

وكان ميزاديو ما يزال في انطلاقه بالحديث عن التمثيلية والحفلة الموسيقية عندما سأله برتان :

— لقد كانت آنت رائعة هذا المساء ؟

— اجل كانت بالغة حد الفتنة .

وتابع الرسام كي لا يتبحر لرفيقه استعادة الحديث المقطوع :

— انها اجمل مما كانت عليه امها .

فاجابه ميزاديو بلهجة غير ارادية : — أجل . أجل . أجل .

وتابع برتان : — سيكون لها بعد زواجها صالون كأحسن

صالونات باريس .

وكانت هذه الملاحظة كافية لاجتذاب انتباه ميزاديو الرجل

الاجتماعي ومراقب الفنون الجميلة : فاندفع يصف لرفيقه مر كز الماركيز

دي فاردنال في المجتمع الباريسي .

واصغى اليه برتان وهو يتخيل آنت في صالون مشمشع الانوار

بين جسد من رجال معجبين ونساء جميلات وهذه الرؤيا ايضا اوقدت

في قلبه جذوة الغيرة .

وكانا قد بلغا شارع مالرب ومرت اببيت غيروا ورفع الرسام

عينيه فرأى النوافذ تبعث منها الاضواء وادركه شك في ان الدوقه

وابن اخيها يتناولان المشاء لدى آل غيروا . وعصف في اعماقه غضب

جملة بغلي كالمرجل . . . ولما بلغا بيت برتان . قال برتان : ادخل .
— كلاًّ شكراً . الوقت متأخر . اريد ان آوي الى فراشي .

— تعال نقضي نصف ساعة اخري في الترتبة .

— كلاًّ . الواقع ان الليل قد تقدم .

كانت فكرة بقاءه وحيداً بعد هذه الصدمات العاطفية التي منى
بها تربيته وتبعث فيه قشعريرة . انه يريد احداً يبعد الوحشة عنه . وعاد
يقول لرفيقه :

— اصعد . اريد ان اقدم لك لوحة . تعال انتخب مايعجبك .
وادرك ميزاديو ان الفرصة سانحة للظفر باحدى لوحات
الفنان الكبير فلم يشأن يضيع السانحة . وهو بصفته مراقب الفنون
الجميلة ، قد اقتنى مجموعة بدبعة لا بأس بان تضاف اليها احدى لوحات
برتان .

— حسناً اني اتبعك .

وقدم لهما الخادم الذي استيقظ شيئاً من شراب ثم جاء برتان .
بلوحات عدة عرضها على ميزاديو على مختار ما يعجبه منها . وبعد مفاصلة
طويلة اختار اخيراً لوحة تمثل فتيات صغيرات يرتفن فوق الحبل وشاء
ان ينصرف حال حصوله على الهدية . . . وقال برتان

— سأرسلها اليك

— كلاً أفضل ان احصل عليها هذا المساء لآتمتع بها قبل ان ارقد
ولم بقو شي على امساكه . وها هو الرسام يجسد نفسه من
جديد جيس هذا البنت العابق بذكرياته المريرة .

ودخل خادمه في الصباح يحمل اليه الشاي وبعض الصحف
اليومية فوجده ما زال في مقعده . فسأل :

— لعل سيدي على خير ما يرام ؟

— لا شي . انها وعكة بسيطة .

— الا يعني سيدي شيئاً ؟

— كلاً . كيف الطقس ؟

— انه ممطر يا سيدي .

— حسناً هذا يكفى .

فوضع الرجل الشاي والصحف على الطاولة الصغيرة وخرج .

وتناول اوليفيه صحيفة (الفيغارو) . وكان في رأس الصفحة

الاولى مقال بعنوان « الرسم المصري »

ولم يكن المقال سوى مدح وتقريظ لثلاثة اواربعة من الرسامين

المحدثين الذي لم تكن لهم سوى موهبة تشبه موهبة (الدهانين) ومع

ذلك زعموا انهم يحدثون في عالم الرسم ثورة جديدة .

وككل الرسامين الكبار ، غضب اوليفيه ، لدى قراءتها

مثل هذا المديح ويفدق على هؤلاء القادمين الجدد الذين يزعمون
خلق مدرسة جديدة لمصر جديد ..

وتضاعف غضبه عندما لمح في مكان آخر من المقال جملة كان
وقعها عليه كوقع الثبل في غلس الظلام :

« لقد غدا فن أوليفية برنان فناً قديماً لا يوافق الذوق
المصري ... »

كان دائماً رماً بالنقد ، شديد السرور بالتقريظ . غير انه شعر
هذه المرة ، في اعماق ضميره ، بوخذ مريع لهذا التحدي السافر . فقد
اعتاد ، ايام مجده ، ان يتلقى حرق البخور امامه بغبطة فائقة تنسيه بمض
الغمرات التي توجه اليه . اما اليوم ، فها طبقة جديدة من الفنانين تبرز
الى الوجود ، وها الثناء ينهمر عليها انهاراً ، اما هو ، الفنان الشيخ فلم
يعد من يذكره الا ليمرض بعقريته وفنه ...

لقد وجد نفسه في فيلق من بحار الفنانين المحدثين الذين لا
يعترفون له بسبقه وبلو كعبه . وهذا ما جملة يتمذب عذاباً اليماً لم
يكن ليحسه لو هاجموه هجوماً سافراً .

لم تكن الطعنات ابداً لتخن كبرياهه كفنان كما تفعل الآن .
وعاد يقرأ المقال ويستوعب كل كلمة فيه واستخلص منه ان الكاتب
حاول القاءه مع غيره من كبار الفنانين في سلة المهملات ... ونهض

وهو يقضم شفثيه غيظاً ويردد :

« اصحبح ان فن اوليفيه برنان لم يعد من ذوق العصر ؟
ان هذا الشيء مؤلم حقاً . افلا يكفيه اخفاقه في حبه كرجل ،
حتى يأتي من ينمى اليه قلبه ، فكره ، عصارة روحه ... لقد اسقط
في يده . .

وبقي حتى الساعة الثانية في كرسيه ، وقد مند نحو المدفأة
سافيه ، وقد فقد كل قوة فلا يستطيع حراكاً ...
وتحركت فيه الرغبة في الترويح عن نفسه ، رغبة في ضغط ايد
مخلصة ، والنظر في عيون موالية ، وسماع كلمات مشفقة ، وهددة
صوت حنون . فنهض وذهب ، كما اعتاد ان يفعل ، قاصداً الكوننيس .
ودخل فوجد آنيث واقفة وقد ادارت الى الباب ظهرها
وراحت تكتب بسرعة عنواناً على ظرف ، وكانت فوق طاولة ، بالقرب
منها جريدة « الفينارو » . ووقع نظر برنان على الصحيفة في نفس الوقت
فتسمر في مكانه لا يتقدم . واستدارت اليه ، منبشلة ، مضطربة الفكر
وقالت معذرة :

— غم . سناء يا سيدي الرسام . انك تعذرني فاني ساركك .
ان الخياطة بحاجة الي في الطابق الاعلى . انت تدرك اهمية الخياطة ليلة
العرس . سارسل اليك بامي ، التي تستطيع ان تحادثك كفنن واذا

ما احتجت اليها ناديتها الي . وانطلقت راكضة ...

ان هذا الانطلاق المفاجئ ، دون كلمة وداد او نظرة حنو منها .. هي التي يحبها ... يحبها بجنون .. هذا العمل تركه بالغ الاضطراب ... وعادت عينة تقع من جديد على « الفيلارو » وفكر : لقد قرأته ! انهم يمزقون بي ، انهم يستهينون بفي ! لم اعد بالنسبة اليها شيئاً مذكوراً !

وتقدم خطوتين نحو الصحيفة كما يتقدم الرء نحو رجل يريد صفعه ثم عاد يقول لنفسه : لعلها لم تقرأه . انها شديدة الانشغال هذا اليوم . ولا بد ان يتحدثوا بالموضوع هذا المساء بعد العشاء وستحس غبة في قراءة المقال .

وبحركة آلية ، دون اي تفكير ، تناول الصحيفة واغلقها وطواها واخفاها في جيبه بحذر كحذر السارق . ودخلت الكونتس وما رآته مصفر الوجه لاهث الانفاس حتى ادركت انه يتألم ألماً بالماً .

وتقدمت نحوه ، تقدمت بكل نفسها الممزقة هي الاخرى . وبكل جسدها المعضب ايضاً . والقت يديها على كتفيه ونظرت في اعماق عينيه وقالت : آه كم انت بئيس !
ولم ينكر هذه المرة وتتم العبرات تحتق صوته ...

— أجل . أجل . أجل .

وشمرت به بكاء ينتحت . فسارت به الى زاوية الصالون
الاشد اظلاما واجامته وجلست فمكانا فوق كرسيين متقاربين
وراء ستار من حرير قديم . جلسا وزاء هذا الجدار الحريري المطرز
بالوشى في ظلال يوم ممطر من ايام الشتاء .

وعادت تقول نائرة الاعصاب موجهة اليه اللوم :

— يا اوليفيه المسكين ! كم تنال !

والقى برأسه الابيض فوق كتف حبيبته :

— اكثر مما تستطيعين التصور .

فتمتت حزينة : — آه . اعرف ذلك . لقد ادركت كل شيء

لقد رافقت ماطفتك تنبت وتنمو ثم تكبر .

فلجاب ، وكأنها توجه اليه اتهاماً : — ليس ذلك ذنبي يا آني !

— اعرف جيداً . انا لا الوملك انت .

وبلطف دنت بوجهها من وجهه وطبعت قبلة على احدى عينيه

فوجدت فيها دمة مرّة ..

وانتفضت كأنها تذوقت قطرة بأس محرقة وراحت تردد

مرات متتابعة : — آه يا صديقي المسكين .. يا صديقي المسكين .

ثم اضافت بعد لحظة صمت : - انه ذنب قلوبنا الذين لم يهرما...
اني احس ايضاً في قلبي حرارة وشباباً...
وحاولت ان تسكام فلم تفلح لأن العبرات كانت تحتقها .
وكانت تصغي الى اختلاج صدره فوق صدرها...
ثم حاودتها انانية الحب التي كانت منذ امد طويل تنهش صدرها
نهشاً وبلهجة جارحة ناجمة عن الم هائل :
- يا الهي . كم تحبها !

واعترف مرة اخرى : - اجل . ان حبي لهم اعظيم !
وفكرت لحظة ثم قالت : - انك لم تحبني انا مثل هذا الحب ابداً
ولم ينكر لأنه كان يجتاز احدى تلك الساعات التي لا يخفي
فيها المرء شيئاً من الحقيقة وتتم :
- كلاً . فقد كنت آنذاك صغير السن .
ودهشت : - صغير السن ؟ وكيف ذلك ؟
- لأن الحياة كانت هينة لينة . ففي مثل سننا يحب المرء حبه
العنيف الميؤس .

وسأله : - ايشبه ما تحسه نحوها ما كنت تشمر به نحوي ؟
- نعم . ولا . ومع ذلك فيكاد الامر لا يختلف . لقد احببتك
كما يستطيع رجل ان يحب امرأه . اما هي فاجبها كما احببتك لاني احبك

فيها ! غير ان حبي لها قوي عنيف لا يقاوم . انه جارف مخرب . انه اقوى من الموت . انها قد امتلكتني كما تملك النار بيتاً يحترق ...
وشمرت بشفتها تجف تحت وهج الغيرة اللاهبة .. وقالت بصوت معزٍ :

— يا صديقي المسكين .. لن تمر ايام فلانسل حتى تزوج ونعطي في سبيلها المخطوط . ولا رب في انك ستشفى سريعاً اذ انك لن تراها بعد ذلك ابداً ...

وهز رأسه وقال : — آه . اني رجل مضيع ... مضيع
— ولكن لا . لا . ستمرا شهر ثلاثة دون ان تراها . الا يكفي ذلك لتنساها . الم تكفك ثلاثة اشهر لتحبها اكثر مما احببتني خلال اثني عشر عاماً !

وحينئذ تضرع اليها وهو يكاد يذوب وجداً : آني لانهجريني انت الاخرى !

- وما استطيع ان اعمل في سبيلك .
- لا تتركيني وحيداً .
- سأزورك قدر ما تشاء .
- كلا احفظني بي لديك قدر ما تستطيعين .
- انكون قريباً منها .

- وقريباً منك .
- يجب ألا تقع انظارك عليها قبل زواجها .
- آه ! يا آني .
- او اقل ما يمكن .
- او استطيع البقاء هنا هذا المساء ؟
- كلاً . ليس على مثل الحال التي انت فيها . يجب ان تروح
عن نفسك . اذهب الى النادي . اقصد المسرح . . اذهب انى تشاء
شرط ألا تبقى هنا .
- ارجوك .
- كلاً يا اوليفيه . هذا مستحيل . ومن ثم سيقعشى عندنا
اناس وجودهم سيؤك .
- الدوقة ؟ و . . ؟
- اجل .
- الم امض سهرة امس معهم ؟
- دعنا من ذلك . ان نفسك على حال غير حسنة هذا اليوم ؟
- اعدك ان اكون هادئاً .
- كلاً هذا مستحيل .
- اذن انا ذاهب .

— ما الذى يجعل رحيلك هكذا ؟
— انى بحاجة الى المشي .
— اصبت . امشِ كثيراً ، حتى يرهقك التعب فتنام جيداً .
ونهمض : — وداعاً يا آنى .
— وداعاً يا صديقي العزيز . سأمر بك غداً صباحاً . اريد
ان ارتكب حماقة كبيرة كما كنت افعل في الماضي اذ اتغدى هنا ظهراً
ثم آتيك لا تغدى معك في الواحدة والربع ؟
— اجل . كم اتنى ذلك . انك صديقتى .
— ذلك انى احبك .
— وانا كذلك احبك .
— آه . دعنا من هذا .
— وداعاً يا آنى .
— وداعاً يا صديقي العزيز . الى الغد .
— وداعاً .
وقبل يديها الواحدة تلو الاخرى . ثم قبل عنقها واخيراً زاوية
شفتيها . ورافقته حتى الباب وقبل ان يخرج تناولها بين يديه وجذبها
الى صدره بكل قوة واطبق بشفتيه فوق جبينها وراح يمدق عليها القبل
كانه يحب كل ما تبقى من حبه الماضي ..

وانطلق سريماً .. دون ان يلوي على شيء ...
وما وجدت نفسها وحيدة حتى القت بحسدها فوق مقعد
وراحت تنشج . ولو لم تأتِ آتيت فجأة تستدعيها لبقيت هكذا حتى
هبوط الليل .

ولبتاح للكونتس تجفيف دموعها المنسكبة اجابت ابنتها :
— عليّ ان اكتب رسالة قصيرة يا ولدي . سأنبئك بمد لحظة
وحتى المساء انصرفت لاعداد (جهاز) ابنتها .
وكانت الدوقة وابن اخيها على مائدة آل غيروا ذلك المساء .
وما كادوا يجلسون الى المائدة حتى ادخل رئيس الخدم ثلاث
اضمامات كبيرة من ازاخير جميلة .

وتساءلت الدوقة مندهشة : — يا الهي . ما هذا ؟
وهفت آتيت : يا الهي كم هي جميلة ! فن ترى ارسلها اليها ؟
فاجابت امها : — انه اوليفيه برنان ولا ريب .
فمنذ ذهابه ما انفكت تفكر فيه فقد بدا لها شديد الانقباض
واضح التعاسة ، ولمست شدة آلامه ، وبالغ حزنه . وادركت انها
تحبه كثيراً . . حباً حانياً ، كاملاً حتى لقد سحق قلبها باحساسه المؤلم
ووجدوا في كل اضمامة بطاقة من الرسام تحمل لواحدة اسم
الدوقة والثانية اسم الكونتس والثالثة اسم آتيت وقد كتبت بالقلم
الرصاص .

وسألت الدوقة : اترأه مريضاً صديقكم برتان ؟ لقد لاحظت
امس ان هيئته متغيرة جداً .
فاجابت الكونتس : اجل . ان افكاري مشغولة عليه بالرغم انه
لا يشكو .

واجاب زوجها : انه مثلنا عشي الى الشيخوخة . واغلب ظني
ان العازبين يسقطون فجأة . ان سقطاتهم اسرع من سقطات سوام
انه قد تغير في الواقع كثيراً .
وتنهدت الكونتس قائلة : اجل . اجل .

واقطع فارنديل عن الهمس في اذن خطيبته وقال لقد نشرت صحيفة
الفيغارو مقالاً قبيحاً بحق برتان .

ان كل هجوم او انتقاض من قيمته الفنية ، كان كافياً
لاخراج الكونتس عن طورها . قالت :
— ان الرجال العظام امثال برتان قلما يهتمون بمثل هذه
الصفائر ...

وعقب غيروا دهشاً : مقال يسيء الى برتان ؟ ولكن لم
اقرأه في اي صفحة ؟

وشرح المركيز : — في الصفحة الاولى . في اعلاها . تحت
هذا العنوان « الرسم المصري »

وانقطعت دهشة النائب : حقاً انالم افراءه لانه يبحث
في الرسم .

وابتسم الجميع . فهم يعرفون حق المعرفة ان كل مايخرج عن
نطاق السياسة والزراعة قلما يثير في النائب المحترم اي اهتمام .

ثم تشعب الحديث حتى نهاية العشاء . وانتقلو الى الصالون
لتناول القهوة . وكانت الكوننس غائبة الانباه فهي تفكر بما عسى
برتان ان يفعل . اين هو الآن ؟ اين تناول عشاءه ؟ اين ينتقل في هذه
اللحظة بفؤاده الدامي الجراح ؟ ودهمها ندم كوى جسدها كياً
لسماحها له بالذهاب دون ان تحاول امساكه . وتخيّلة يطوف في
الشوارع حزيناً شريداً وحيداً هارياً من احزانه .

ولم تنبث بكلمه حتى ذهاب الدوقة وابن اخيها . ثم اوت
الى سريرها وسيطاط الالم لانتفك تنخن قلبها فتمزقه شر ممزق . ولم
تجد الى الرقاد سبيلاً مفكرة فيه مفتوحة العينين .

وكان وقت طويل قد انقضي عندما خيل اليها ان جرس الباب
بقرع . وانتفضت بشده وجلست في سريرها واجفة . وعاد جرس
الباب يدق في قلب الليل .

وقفزت خارج السرير وبكل قوتها راحت تضغط الزر الكهربائي
الذي يوقظ وصيفتها . وحملت شمعة مشعله واسرعت الى المشى .

ونادت عبر الباب : — من تراه هناك ؟

فاجابها صوت مجهول : — اني احمل رسالة .

— رسالة ؟ ومن ؟ من طيب . — اي طيب ؟

— لست ادري . بسبب حادث .

ودون تردد فتحت الباب . ووجدت نفسها امام سائق عربية

ذى قبعة من مشمع . وقدم اليها رسالة يحملها بيده وقرأت عليها :

« عاجل جداً حضرة الكونت دي غيروا .

كان الخط مجهولاً . وقالت للرجل : ادخل يا صديقي .

اجلس . وانتظر قليلاً .

ووفقت امام غرفة زوجها ووجيب قلبها يملو دون ان تجرؤ على

قرع بابه . واخيراً قرعت الخشب بأسفل الشمعدان ولم يسمع الكونت

اذ كان غارقاً في سباته . وفرغ صبرها فراحت تضرب الباب بقدمها

واجابها بصوت كله نماس : من هناك . كم الساعة الآن ؟

— انا . اني احمل اليك رسالة عاجلة جداً . بخصوص حادث

وعاد بقول من خلف الباب : تريشي . اني انهض . سأتيك ولم تمض

دقيقة حتي خرج بردائه المنزلي . وفي نفس الوقت خف خادمان كان

رنين الجرس قد ايقظهما . وكانا مذعورين وقد شاهدا في غرفة

المائدة رجلاً غريباً ينتظر جالساً فوق كرسي .

وتناول الكونت الرسالة وراح يقلبها بين يديه وهو يتمم :

ما هذا ؟ اني لم احزر !

وقالت بعصية : ولكن ... اقرأها .

ومزق الغلاف وفتح الورقة واطلق صرخة استفهام ثم نظر الى زوجته بعينين خائفتين . فقالت :

— يا الهي . ماهو الخبر المشؤوم ؟

وعاد يتمم وهو لا يكاد يقوى على النطق لشدة ما عتراه من انفعال :

— آه يا المصيبة . يا المصيبة ! لقد سقط برتان تحت احدى

المربات ...

وندت عنها صرخة هائلة : — امات ! ؟

— كلاً . كلاً . انظري بنفسك .

ونزعت الرسالة من بين يديه وراحت تقرأ :

سيدى لقد حدثت مصيبة كبرى . ان صديقنا الرسام الكبير

اوليفيه برتان قد سقط تحت عجلات عربة وقد مرت عجلة فوقه

ولن نستطيع الآن ابداء الرأي فيما ينتج عن مثل هذا الحادث . فهو

قد لا يكون خطراً كما قد يكون قاضياً . ان السيد برتان يرجوك كما

يرجو سيدتي الكونتس دى غيروا ان تأتي لرؤيته الساعة .

وآمل ان سيدتي الكونتس وانت لن تنقاسا عن تلبية هذه الرغبة

الصادرة عن صديقنا المشترك الذي قد حافظ انفاسه قبل انبلاج الصباح .

الدكتور دي ريفلي

وتطلعت الكونتس الى زوجها بعينين كبيرتين ثابتتي النظرة ،
مليئتتين بالرعب ، وفجأة اضطربت كما لو مسها تيار كهربائي فعاودتها
شجاعتهما غزل تلك السرعة والقوة التي تستعيد المرأة فيها شجاعتهما عندما
تدلهن الخطوب .

واستدارت الى وصيفتها وقالت : - هيا سريعاً . اريد ان

ارتدي ملابسني .

وسألتها الوصيصة : ماذا ترغب السيدة بارتدائه ؟

- اي شيء الذي تريدنه . وتابعت : - جاك كن على استعداد

خلال خمس دقائق .

ومررت بالسائق الغريب فسألته : اممك عربتك .

- نعم ياسيدي - حسناً سنأخذها .

ثم انطلقت نحو غرفتها .

وبحركات مجنونة راحت ترندي ملابسها كما اتفق . ووقفت

لحظة أمام مرآتها فرفعت شعرها وتركته دون اية عناية .

وكانت تنظر الى وجهها الشاحب وعينها المكسرتي الاهداب

في المرأة ، دون ان تفكر في ذلك هذه المرة .

وما اقلت بمطفها فرق كنفها حتى وثبت الى غرفة زوجها
الذي لم يكن قد استعد تماماً فاهابت به : - عجل . فكر انه يمكن
ان يقضي في اية لحظة .

وتبعها الكونت مذعوراً وهو يتعثر لدى كل خطوة فوق
السلم المظلم وهو يسعى الى تلمس الدرجات متفادياً السقوط . وقطعاً
المسافة بصمت مطبق وكانت الكونتس ترتجف بشدة واسنانها
تصطك وهي تشخص الى مصابيح الغاز المغلفة بالضباب والمطر .
ووجدوا باب مسكن الرسام مفتوحاً وغرفة البوابة منارة وفارغة .
واستقبلهما على رأس الدرج الطبيب دي ريفيلي ، وحيى الكونتس
بأنحاء عريضة وصافح الكونت .

وسألته لاهثة كأن صعود الدرج قد استنفذ كل قواها : - حسناً
يادكتور ؟

- حسناً ياسيدي . آمل ان الإصابة اقل خطراً مما خيل اليّ
اول الامر .

وصرخت : - لن يموت ؟

- كلا . او على الاقل لا اعتقد ذلك .

- اواثق انت ؟

- كلا . اما اقصد فقط اني كبير الامل بذلك . اذاني امام حالة

لا تتعدى كونها إصابة خارجية قد لا تتبعها اشتراكات داخلية .

-- ماذا تعني بالاشتراكات ؟

-- اعني تمزقاً داخلياً .

-- وكيف عرفت ان ليس ثمة تمزقاً .

-- افترض ذلك افتراضاً .

-- واذا كان تمزق ؟

-- سيكون الامر خطيراً ...

-- فقد تقتله ؟ ...

-- اجل . -- سريعاً ؟ -- سريعاً . في بضع دقائق او

حتى في بضع ثوان . ولكن لنطمئن سيدتي فسيدشفي خلال اسبوعين .

كانت تصغي بانتباه عميق لثلاث ففوتها شيء من التفصيلات

وتابعت تسأل :

-- وأي تمزيق يمكن ان يحدث له ؟

-- تمزق في الكبد مثلاً .

-- سيكون بالغ الخطر ...

-- اجل ... ولكن مما يدهش ان تحدث له اشتراكات الان

لندخل عليه . فان رؤيتك تفيد انه ينتظرك بفراغ صبر .

ان اول مشاهدته لدى دخولها الغرفة هو رأسه الواهي بوجهه

الشاحب فوق وسادة بيضاء . وكانت بضع شمعات وزور المدفأة ينير
الغرفة فترسم ظلالاً على الجدران . ولحت الكونتس عيني تنظر ان
اليها لدى دخولها ،

ووجدت كل شجاعتها ، وكل قوة ارادتها بل كل ما فيها من
قوى تنهار فجأة . وتمتمت بين شفقتها : يا الهي . ومشت نحوه والهلع
يهز كيانها هزاً .

وحاولت ان تبسم لتشجعه فكانت تكشيرتها خيفة . وما
اصبحت بقرب السرير حتى ألقت يديها فوق يدي اوليفيه الممدودتين
الى قرب جسمه وعادت تتمم : - آه يا صديقي المسكين .
واجابها بصوت منخفض دون ان يحرك رأسه : . . ليس
بي شي .

وراحت تأمله وقد اضاع صوابها هذا التغير الذي اعتراه كان
بالغ الشحوب حتى ان كان دماؤه قد نرفت كلها . وكان خداه منخفضين
داخل وجهه وعيناه غارتين في محجريهما كأنهما قد سحبتا بخيط
من الداخل .

ولمح الرعب الذي حل بصديقته فتهد وقال .
- ها اناذا في حالة حسنة . فسألته : . . كيف حدث
ذلك ؟ وبذل جهوداً جادة ليتوصل الى الكلام وكانت انتفاضات

عصبية تجتاز وجهه بين فترة واخرى :.. لم انتبه الى ما حولي ... كنت افكر باشياء اخرى ... باشياء كثيرة اخرى آه نعم ومرت عربية مسرعة فدهمتني واجتازت عجلتها فوق بطني ... كانت تصفى اليه متخيلة الحادث وقد نار فيها الرعب :.. وهل نرفت منك دماء .

— كلا اني فقط مرضوض ... محطم . وعادت تسأل . . وفي

اي مكان حدث ذلك

فاجاب بصوت خفيض .. لست ادري في مكان بعيد جداً .
وقدم لها الطبيب مقعداً انحطت عليه بجسدها بينما ظل زوجها واقفاً عند قدمي السرير مردداً بين اسنانه .. آه يا صديقي المسكين
يا صديقي المسكين ياله من حادث تعيس !

كان في الواقع يحس حزناً عميقاً لانه كان يحب اوليفيه كثيراً .
وعادت الكونتيس تقول : ولكن اين حدث ذلك فاجابها الطبيب
لا ادري ار بالاحرى لم افهم . والارجح ان ذلك حدث في ضواحي
باريس فقد اخبرني سائق العربّة الذي التقطه انه حمله الى صيدلية في
تلك الضاحية ثم جاءوا به الى الساعة التاسعة .

ثم انحنى فوق اوليفيه .. اصبح ان الحادث وقع في الضواحي
واغمض برتّان عينيه كما انه يتذكر ثم غمغم .. لست ادري .
— ولكن اين كنت ذاهباً .

.. لا اناذكرك كنت اسير دون وجهة .

ولم تستطع الكونتس امساك زفرة ندت عنها ثم بعد شبه
اختناق اخرجت مندبها وغطت عينها وراحت تبكي بكاءً مرّاً .

اقد عرفت لقد حدثت ! ان شيئاً خيفاً عظماً سقط فوق
قلبها . الندم لعدم تشبهاً ببقاء او ليفيه عندها لطردها اياه ، للاقائها
به في الشارع حيث سقط وهو سكران بحمى الحزن تحت هذه العربة
وقال بصوته الذي غدا دون جرس .. لا تبكي ان ذلك يعزقي .

وبقوة ارادة انقطعت عن الشئج وكشفت عيني ثبتهما عليه
دون ان يختلج وجهها حيث كانت الدموع تسيل ببطء .

وتبادلا النظر وهما جامدان وابديهما متعاقبة فوق غطاء السرير
كان الواحد منها ينظر الى الآخر كأنه ليس في الغرفة سواهما
وكانت نظراتهما تنقل الى قلوبهما شعوراً اشقى من شعور البشر .

وقد بعثا بسرعة وبصمت رهيب كل ذكرياتهما ، كل حبهما
المحطم كلما شعرا به سوية ، كلما وحد ومزج حياتهما ، في تلك الفترة
الطويلة التي عاشها حبهما .

و كانت انظارهما ما تزال متبادلة واحسناً حاجة ملحة للافضاء
بالف شيء حميم حزين كان لابد لهما من اخراجها الى النور . شعرا ان
عليهما باي ثمن ان يبعدا هذين الرجلين الواقفين في الغرفة . عليهما ايجاد

طريقة او حيلة لاتمام ذلك والمرأة هي دائماً ينبوع لا ينضب لاستنباط الحيل . وراحت تفكر بطريقة مجدية وعيناها لا تفارقان عيني اوليفيه كان زوجها يتحدث مع الطبيب بصوت خفيض . يدور حديثهما عن العناية الواجب تأمينها لاوليفيه .

واستدارت وقالت للطبيب هل جئت بمن يسهر عليه .
— كلا وافضل ان ارسل ممرضة لتستطيع مراقبة حالته الصحية
— ارسل ممرضاً وممرضة فالعناية يجب ان تكون بالغة او
تستطيع ان تأتي بها الميلة بالذات اذ لا اعتقد انك ستبقى هنا حتى
الصباح ؟

— في الواقع انه يجب ان اعود فانا هنا منذ الساعة الرابعة تقريبا
— وترسل لنا الممرضين .
— ذلك امر صعب في قاب الليل وعلى كل حال سحاول
— يجب ان تحاول .

— قد يمدان بذلك ولمكن آراهما يحضران .
— ان زوجي سيرافقك وسيأتي بهما ان طوعاً او كرهاً .
— ولكن استطيع البقاء هنا وحيدة يا سيدتي .
— انا ؟ قالت بشبه صراح واحتجاج ثم عرضت واقع الحال بلهجة
آمرة لم يجزوا احد على الرد عليها .

نهضت بعد خروج الرجلين وبها لهفة الى خلو الجو . واصغت
الى الباب وهو ينطبق خلفهما ثم سمعت ضجيج عجلات العربى وهى
تنطلق فى الشارع ومكث الخادم والطاهة فى الغرفة الثانية بانتظار
الوامر وعادت تدنو من السرير ثم تلقي بيديها على طرفي الوسادة
حول الرأس الحبيب وتحولتا لامل وجهه ثم سالته وقد دنت بشفتيها
من وجهه حتى احس لفح انفاسها . . لقد القيت بنفسك تحت العربى
فاجاب محاولاً دائماً ان يتسم . . كلاً انما هي التي القت بنفسها فوقى
- ليس صحيحاً انك انت الذي فعلت ذلك .

وبعد لحظات خيم فيها الصمت عادت تقول . . آه باعزيزي
اوليفيه قل اني تركتك تذهب، اني لم اتشبث بك .
فاجابها باقتناع . . سيحدث لي ذلك اليوم او غداً .
وتبادلا نظرة اخرى محزنة ان يذكر كما اسرار تفكيرهما . وعاد
يقول لم اتصور اني سأعيش باللام المبرح !
تمتمت . . انك تتألم كثيراً ؟ .

— اجل

وانحنفت فوقه وغمرت جبهته وعينييه وخديه بقبل بطيئة خفيفة
رقيقة . لقد لمست باطراف شفتيها كما يقبل الاطفال امهاتهم . واستمر
ذلك طويلاً طويلاً . وقد تركت خلال هذه الفترة سيلاً من القبل

بنهمر عليه فيخفف آلامه وقد بدا ذلك فوق وجهه الذي استعاد شيئاً
من هدوئه .

ثم قال .

— آني ؟ فانقطعت عن تقبيله لتصفني اليه : .. ماذا يا صديقي
— انعمدني وعداً ؟
— اني اعدك بكل ما تريد .

اذا لم امت حتى انبلاج الفجر اقسم لي ان تصحني معك آتيت
مرة واحدة مرة واحدة فحسب كم اريد الا اللفظ انقاسي قبل ان
اراهما ... فيكرري اني غداً في مثل هذه الساعة سأكون قد اطبقت
جفني ولن يعود بامكاني ان ارى شيئاً لا انت ولا هي .
واسكته وقلها يتعرق .

— صه صه اني اعدك باه .. بها .
— او تقسمين .

— اقسم لك يا صديقي بشرط ان نسكت وان لا نقول شيئاً
انك تسبب لي المأهائلاً وعاد يقول .

— اذا لم يكن لدينا سوى لحظات فلائيل نعيشها سوية فليس
لنا ان نضيعها . لطالما احببتك . وتهدت قائلة .. وانا لشد ما احبك
دائماً ! . وقال ايضا .. لم اشعر قط بالسعادة لولاك . ان الايام الاخيرة

فقط ما كانت قاسية ... وليس ذلك بسببك يا آني المسكينة ...
كم نكون الحياة نعيسة وكم يكون الموت صعباً ... صه يا اوليفيه
ارجوك ...

— كم كنت اكون رجلاً سعيداً لو لم ترزقي بابتك !
— صه ... يا الهي ! صه .
وبدا كأنه يحلم اكثر منه يتحدث .
— آه ان الذي خلق هذا الوجود وهؤلاء الناس كان اعمى
او خبيثاً ...
— اوليفيه ارجوك ... اذا كنت تحبني فاصمت ... لا
تسكلم قط .

وراح يتأملها وهي منحية فوقه شاحبة هي الاخرى وعالها
سمات الاموات ، وضمت .
وعادت تجلس فوق المقعد مقابلة سريريه متناولة يده المسترخية
فوق غطاء السرير ..

والآن اني امنعك من الكلام لا تتحرك ابداً ففكر في كما
فيك . وعادا يتبادلان النظرات جامدين وقد اتصل احدهما بالآخر
بتلامسهما باليدين . وكانت تضغط بلطف اليد المحمومة التي تقبض عليها
بحبيبة نداه بين الفينة والاخرى . وقال فجأة كأنه يستيقظ من حلم

وبانتفاضة رعب شديد .. - رسائلك؟ وسألته : ماذا؟ رسائلتي ؟
- لو ادر كني الموت دون ان اتلفها . وصرخت وماذا بها
او تهتم الان بان احداً قد يجدها ويقرأها اني لا اهتم بذلك ! واجاب
اما انا فلا اريد انهضي يا آني وافتحي الدرج الاخير في خزانتي الدرج
الكبير فهناك تجد بينها كلها . خذها واطرحها في النار ولم تتحرك فعاد
يقول ارجوك يا آني فاذا لم تصدعي بما اقول سيبقي لي اضطرابا
واثرني اعصابي فكري انها قد تقع بيد احد الناس ، كاتب العدل او
احد الخدم او بيدي زوجك ... انا لا اريد .

وهضت مترددة : كلا هذا بالغ القسوة هذا فظيع . يحيل
الي انك ستحرق قلبينا .

وعاد يرجوها وادركت ان لامندوحة عن الاستجابة لرغبته
وعادت بالرسائل فاستندار برأسه فوق الوسادة يشاهدها وعاد يقول
احرقها سريعا واخذت الرسائل بين راحتيها واحتفظت بها لحظة . ان
هذه الرسائل هي عصير روحها وسويداء قلبها وعاد اوليفيه يردد احرقها
احرقها يا آني . وبحركة واحدة من يديها الاثنتين القت حزمه
الرسائل في المدفأة فشبث فيها النار والتهمتها التهاماً واستندارت
الكونتس وعلى ضوء اللهب شاهدت صديقها منعنيا محطماً فوق السرير
وسألها افعلتني ؟

..اجل كلها .

وقبل ان تنتهي النار من التهام تلك الاوراق اقلت عليها نظرة
اخيرة كأنها تودع شخصاً حبيباً يغيب في باطن الارض ثم عادت الى
الجريح فرفعت رأسه بخنو واعادتها الى الوسادة . كان يلهث ووجهه
قد تغضن بالالم البالغ وبدأ كأنه لا يعرف هذه لواقفة الى قربه .
وانتظر ان يهدأ روعه قليلاً فيرفع رأسه ويفتح جفنيه ويخاطبها
وسألته وقد طال سكوته .. اتنا لم كثيراً ؟ . فلم يجب . وانحنت فوقه
ووضعت اصبعها فوق جبينه . ففتح عينيه الزائغتين ، عينيه الضائعتين
ورددت باضطراب عظيم اتنا لم ؟ اجني اوليفيه تريد ان استنجد...
ابذل جهداً قل لي شيئاً.

سمعته بتمتم : لم تاتي بها ... لقد اقسمتي لي ...
ثم اضطرب تحت اغطيته فمادت تقول : اوليفيه ! يا الهي !
اوليفيه ! ماذا بك ؟ تريد ان اناذي ...

وسمعا هذه المرة واجابها ... كلاً ليس بي شيء .
وبداً فعلاً كما لو كان قد استعاد قواه وخفت الامه ثم سقط
في شبه غيبوبة وقد ظنت انه يوشك ان ينام فعادت تجلس بالقرب من
السريّر وتناول يده وتنتظر ولم يعد يتحرك وذقنه فوق صدره وفمه

نصف مفتوح تردد منه انفاسه التي تشخب في حنجرتة . فلم يكن يتحرك فيه سوى اصابعه التي كانت بالرغم عنه تتشنج تشنجا خفيفا فيمس ذلك الكونتس فيكاد شعرها ينتصب من الهلع لقد ادركها الخوف، خوف مربع ورغبة جنونية في الهرب في طلب النجدة ولكنها لم تبد حرا كما خوفا من ان تقلق راحته .

كان ضجيج العربات يأتي من الشارع فينفذ عبر الجدران وهي تصيح بسمها لعل احداها تتوقف امام الباب فيصل بها زوجها- وينقذها من هذا الانفراد الهائل .

وحاولت استخلاص يدها من يد اوليفيه واكنه شد عليها واطلق تنهدة قوية ! فابقتها له لكي لا تزعجه

كانت النار تخرج في الموقد فوق رماد الرسائل الاسود والشمعتان قد اخذتا تنطفآن .

كل شي كان صامتا ، كل شي خيم عليه ظل الموت ، ما عدى الساعة الكبيرة المعلقة فوق السلم التي كانت تدق بانتظام معلنة الساعات وانصافها وارباعها وهي تحدد الليل الى غاية

واحست الكونتس بالهلع يعظم في نفسها كأن اشباحا تحرق

بها وافكاراً هائلة تمكر نفسها وظنت ان اصابع اوليفيه قد تجمدت في
كفيها. ايمكن ذلك ! كلا ولا ربب ! من اين جاءها اذا هذا الشمور
بانها تلامس جليداً ! ونهضت وقد اصناع الخوف صوابها ونظرت الى
وجهه : كان مسترخيا لا حراك فيه ولا خلة من حياة * لم يعد يشعر
بكل آلامه فقد غلفه النسيان الابدى ...



دار اليفظ العربفة للنألف والترجمة والنشر بؤرفة

نقدم

جفن اوسفن

فف

أشهر روافاها

عقل وعاطفة

أو

البؤور وعارباه

كفف بفارع عقل المواء جفها ، وكفف فسر العاطفة
ذلك الحب عند أختها

قصة قلبي ففافن فف أحاسففسها ومشاعرها فقصها امرأة

قصة الففاة الفف فحكم العقل فف كل ما بفدر عنها

وقصة الافف الفف ففسلم لعاطففا

ففاة فحب بففلها فففسج ، وأفف فحب بفاطففا فففسفها
الحظ وفلب على أمرها

سلوك الحببة ، وأمها ، وأففا الففالك على المال

قصة الففسع الانكلفزف فف أوائل القرن الفاسع عشر

بطلب من كافة المسكفبات فف أرجاء العالم العربف

.. وهذا كتاب آخر تصدره

دار اليقظة العربية للنألف والترجمة والنشر بسورية

للقصاص الفرنسي الكبير

چي ده موياسان

إن چي ده موياسان حفيد الرواة الفرنسيين
للقنين السابع عشر والثامن عشر
« أنا تول فرانس »

حياة صاحبة

قطعة من الأدب العالمي الرفيع تصور نفسية الشباب في أعقد مشاكلها
وأعنف ثورات غرائزها وأدق خلجات عواطفها



تحليل غاية في الدقة، استخرجه الكاتب من أعماق نفسه
يوم كان في ريق الشباب فصور ببراعة الساحر
خلجات نفسه ونبضات قلبه وثورة غرائزه



كتاب ممتع رائع يقع في ٢٥٠ صفحة من القطع الكبير
كتاب لكل شاب وشابة

بطلب من دار اليقظة ومن كافة المكتبات في أرجاء العالم العربي

... وهذه المجموعة جديدة من المؤلفات العالمية أصدرتها

دار البقعة العربية للتأليف والترجمة والنشر بسورية

قرش سوري	ليرة سورية	قرش سوري	ليرة سورية	الكتاب
٥٠	٦ مغلف	٥٠	٨ مجلد	الأم
٥٠	٣	٥٠	٤	مجموعة تشيخوف الاولى
٥٠	٣	٥٠	٤	تولستوي
٥٠	٣	٥٠	٤	نيتوتشكا
٥٠	٤	٥٠	٥	مشاكل العالم العربي
٥٠	١	٥٠	٢	أوسكار وايلد
٢٥	١	٥٠	٢	في أمريكا
٢٥	١	٥٠	٢	ليرونتوف
٢٥	١	٥٠	٢	المركية
٥٠	٢	٥٠	٣	مستقبل المرأة العربية
٥٠	١	٥٠	١	تربية الوليد
٥٠	١	٥٠	٢	في ظلال الوعي
٥٠	٢	٥٠	٣	الثورات
٥٠	٤	٥٠	٥	من الأدب الألماني
٥٠	٣	٥٠	٤	قوي كالموت
٥٠	٥	٥٠	٦	الساقدون

أو ما يعادلها بالعملة الأجنبية

تطلب منشوراتنا من كافة المكتبات في أرجاء العالم العربي

(في كل صفحة منة فائدة وفي كل كتاب لذة دائمة)

توطئة

كانت الغاية من الرواية والقصة - قبل جي دي موباسان - الموعظة وإزجاء النصيح واغداق الدروس الاخلاقية ، لذا نجد لها قليلة الجدوى عديمة النفع ، ذلك ان المرء بطبعه يكره الامر والنهي ان ينصبا عليه كما ينفر من يتشع بمسحوح الرعاعظ ويعلو المنابر ليضع في مسمعه قوله : لا تفعل هذا وافعل ذاك !

أما « موباسان » فقد اتجه الى الغاية نفسها منتهجاً - بيلا أقصر واكثر استقامة إذ جعل شاغله تصوير جمال الحياة وقبحها جميعاً ، فخرج الخير والشر متعانقين ، في كتاباته ، غير مفترقين ؛ لانها في حياة الناس كما خطها بقلمه البليغ . واكتفى بان يريك القبح باسج أشكاله دون ان يقول لك : لا تفعله ! واكتفى بتركك تعيش الجمال الخالد بابدع الروانه دون ان يدفعك اليه . فائلا : دونك إياه ! هذا هو العبقرى الروائي موباسان الذي فهم الحياة كما لم يفهمها كاتب من قبل .

* * *

يعتبر الكاتب الروائي الفرنسي « جي دي موباسان » علماً من أعلام القصة في الأدب العالمي الحديث ، فهو صاحب مدرسة مجددة طوحت بالأساليب القديمة وعصفت بالطريقة الكلاسيكية وأرغمت الرومنطيكية على الانحناء ! ولم تكن هذه المدرسة الجديدة التي ابتدعها موباسان إلا المدرسة الواقعية التي تجنح الى تصوير الانسان كما هو - لا كما يجب ان يكون ! فكأن الكاتب الواقعي ذاك الرسام الصناع الذي ينقل عن الطبيعة مظاهرها وخلقاتها على ثلاثها ، فلا يسج

بيد الفرق على جراحاتها ليلثها ، ولا يشوه حقائقها باصبعه زائفة دخيلة وانما عليه ان يعطيك صورة صادقة عن الحياة فتواها جميلة في قبحها وقوية في ضعفها ومرة في حقيقتها ، فليس من طبعه ولا في خلقه ان يمول لك المعاييب ولا ان يعظم لك الفضائل ولا ان يجعل لك من الابطال أنصاف آلهة ، وجل قصده انه يمر بالقلم على القراطس فيقول لك ما تراه تحت ناظريك بقلم حي وفكر خالد !

و أحب السماء كحُب الطائر لها ... وأحب الغابة كحُب الذئب لها . .
وأحب الصخرة كحُب الوعل الذي اتخذها له ملعباً ... (١)

ومعني الحب عند موباسان هو الرغبة العارمة في الامتزاج ، والفناء فيها هو محبوب . ومن ثم استوسل موباسان بمتزج بتلك الامواج الذائخة التي تضطرب في محيط الحياة ، يملو متونها تارة ، ويهبط الى اعماقها تارة ، لا يضيّق بشيء مما يكون ، ولا يفسد الاستقرار فيما يجري ، فقد فني في هذه الحركة الدؤوب كل فناء ! ولكن .. غفر الله للحياة ! فلشد ما تشبث بها فنبذته عنها بعيداً ! !

* * *

ولد موباسان سنة ١٨٥٠ من عائلة تمت الى العراقة بسبب قسوي وبدأ حياته المدرسية في كلية مدينته « روان » فكان تلميذاً غير مرغوب فيه ، فهو لا يأبه الانزعاجات نفسه الطليقة فلا يملك عن الاسترسال معها محيداً ، فضاقت المدرسة بقصوره وما هي الا فترة حتى الفى نفسه يخرج الى الحياة الصاخبة شبه طريد ... وانتقل الى الريف يرتع فيه ويمرح ، يحيا مع الزراع ، ويختلط بهم في حياتهم الحشنة الطليقة فيجد في ذلك انساً وسلوى .. ولكن الريف ضاق به ، فهو يأخذ منه ولا يعطيه ، فما لبث ان الفى نفسه طريد الريف ..

وقضى حقبة اخرى من حياته موظفاً في وزارة البحرية ، وكان من فضائل وظيفته القليلة ما تركته له من فراغ .. فانصرف الى الأدب ، واتصل بغوستاف فلوبير الذي كانت تربطه بعائلة موباسان او اصرمتينة ، فتلقا بهذراعين مبدوتين ، واخذ عنه اول اساليب التأليف الروائي ، وبغفلة عرف موباسان

(١) من « رسالة الى موباسان » لمحمود تيمور .

كبار الروائيين اتباع المدرسة الواقعية . ولم ينقطع موباسان بين عامي ١٨٨٠ و ١٨٩١ عن نشر القصص والروايات التي امتازت بقوة أسلوبها وصدق تصويرها والمتسمة بسمو الواقعية المفرقة التي كادت ان تنقلب سبة عليه !

أحب موباسان في الحياة متعها اشكالا والوانا ، فأغرق نفسه في لجة الحسن : فهدر القود جهد طاقتة ، واعتصر الكؤوس اعتصار ظامي . لا يروى له غليل ... وكان يصور كل ما أحب الصورة الصادقة التي علفت في ذهنه منه ساعة أحبه . . لذا ترى في كتابة موباسان كل لون يخطر لك في بال ، وتجد بين ابطاله كل نموذج يمكنك ان تلتقي به في اي مجتمع وفي اي زمان . . ومن هنا تأتي القيمة الانسانية لأدبه ، بيد أنه آنس من الحياة إباء عليه وتقصاً من بين يديه . ولم تكذب الأيام ظنه فما بلغ الأربعين من عمره حتى انقص ما بينه وبين عالم الاحياء من صلات واتخذ لنفسه سكناً بين القلم والقرطاس . . يعمل ليل نهار دون ان يدركه تعب او يحس مللاً . . يالها من غرائب ، فإن حبه للحياة هو الذي حرمه دوام وصالحا ، وكلها هم بها صدت وكلها مال اليها بعدت . . فلا بدع ان يحقد عليها حقداً مريراً ، حقداً يخاط ذلك الحب المكين كما يخاط السم النافع رطب الشراب !

ورأى المجتمع تتحكم به عادات ومعتقدات عليها غلائل فاخرة من نسج الخادعة والرياء ، فجبرى يحطم القيود ويمزق الاغلال لا يصدده عائق عن هدفه المرموق ، فنضاً الاستار عن تلك الفرائز البشرية التي تعمل في السرائر وتجعل من الناس دميّ تبعث السخرية والاشمئزاز .

وربع المجتمع بما جابه به من مساوئه ونزعاته الدنيئة ، واذله ما صفه به من حقيقة علقمية الطعم ، فظيعة في بشاعتها ولكنها متناهية في صدقها واخلاص اهدافها . . . فصاح به المجتمع بنفس واحد : مكانك ايها الفاجر السليط ! الا ان ذلك المجتمع كان في قرارة نفسه مقراً بصدق ما ذهب اليه ، معترفاً ان الحق ما قاله . . فسكأنه يستزيده ولا يحاول خنق انفاسه كما تظاهر .

ولم تمهل الحياة موباسان حتى يحقق كل غاياته واهدافه ، فما لبثت متسع

الحياة ، واستمّار الشباب أن سرت في دمه سمّاً زعافاً ، وحل يوم شعر فيه أن عقله ينزف ، وأنه موشك أن ينضب .

واصيب موباسان بالجنون ، فأقام سنوات ثلاثاً في مصحح للأمراض العقلية وقضى نحبّه في نهايتها سنة ١٨٩٣ بعد أن كان قد وهب المكتبة الفرنسية ثروة طائلة خليق بها أن تزهو وتفخر بهذه الهدية الكريمة . كما كان قد اهدى للادب الحديث طريقته الجديدة الواقعية إذ أنه ابدع فناً يكاد أن يكون جديداً في الادب الفرنسي آنذاك هو فن القصة القصيرة التي احدثت ثورة فعلية في الادب العالمي فيما تلا ذلك من اعوام .

واذا كانت المكتبة الفرنسية قد اتحفت بهذه الروائع التي قدمها لها القصاص الكبير موباسان فإن المكتبة العربية ما زالت ظامئة الى هذا الادب الرفيع تضيفه الى ذخيرتها الخالدة ، وها هي ذي دار البقطة العربية تسهم - على عادتها - في بناء المكتبة العربية فتقدم للقارئ العربي هذا الاثر النفيس من آثار موباسان الذي يغلو بعض النقاد فيرى فيه خير ما انتجته قريحة موباسان وافضل - ل ما خطه براعه !

دمشق - حزيران ١٩٥٣

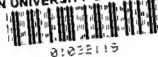
المعرب

843:M452aA:c.1

الحلو، ابراهيم

قوى الموت

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01032115

